خيول الشمس (ملحمة الجزائر)

مدونات سيد متيجة

جول روا

الجزء الرابع

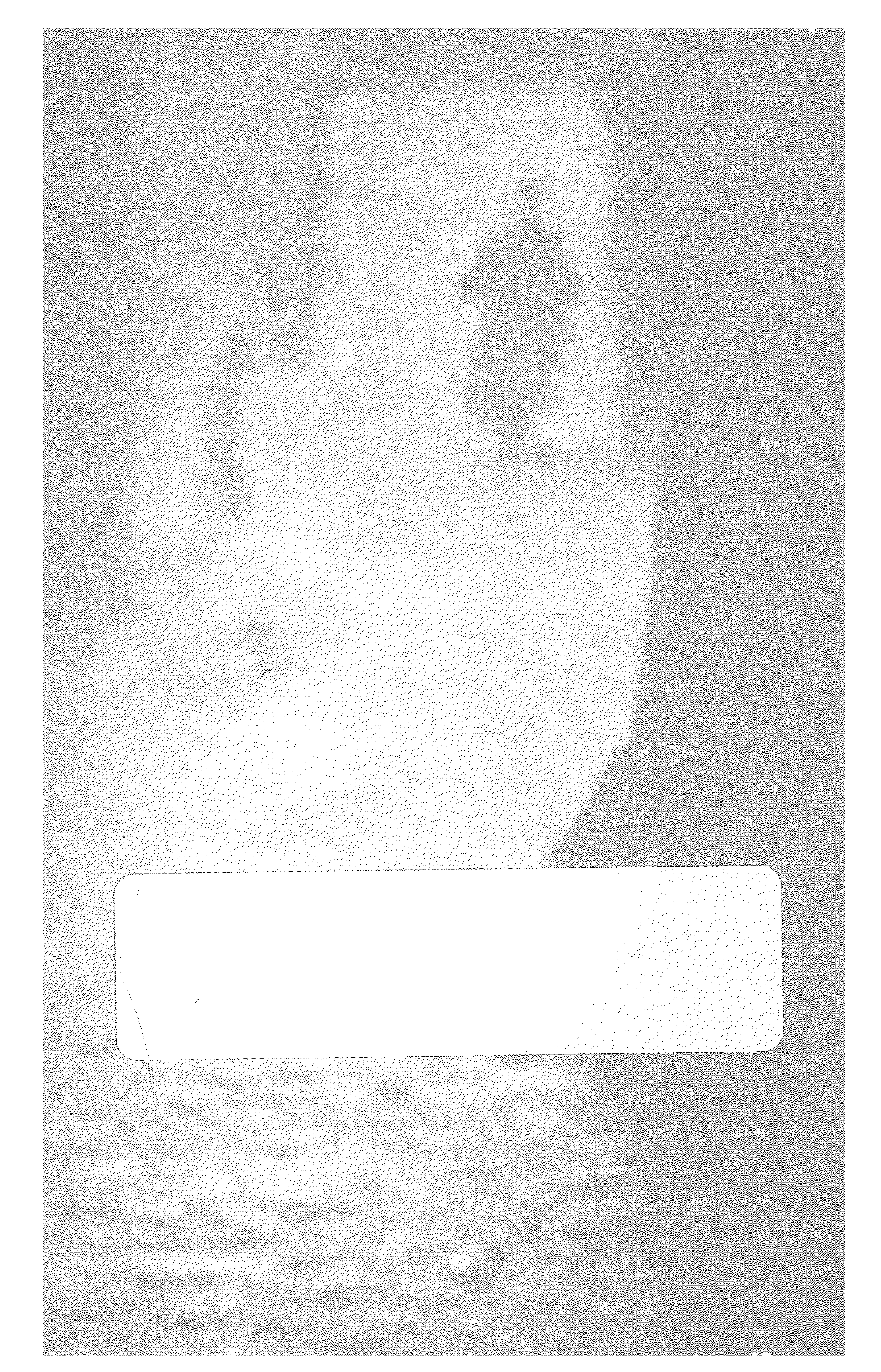
ترجمة : ضياء حيدر

نبذة عن المؤلف:

ولد جول روا في الجزائر 1907 في واحدة من عائلات المستوطنين الفرنسيين. وتابع دروسة الثانوية في المدرسة الإكليريكية. قبل أن يدخل إلى السلك العسكري في جند المشاة ثم الطيران العسكري في فرنسا لينتقل بعدها إلى بريطانيا ويشارك في الجيش الفرنسي للتحرير. في العام 1946 يغادر الجيش الذي اعتبر حربه في شبه الجزيرة الهندوصينية مخزية. ليتحول بالكامل إلى العمل الأدبي. حاز العديد من الجوائز الأدبية. وأصدر إلى أعماله الروائية والقصصية التي وصلت إلى أكثر من ثلاثين عملاً. أعمالاً مسرحية وشعرية. سنين حياته العشرين الأخيرة أمضاها متفرغاً للكتابة في فيزاليه. شمال شرق فرنسا وتوفي فيها 15 يونيو 2000.

من أعماله الروائية: "خيول الشمس". 1968 - 1972."صحراء ريتز". 1978. "موسم زا". غراسيه. 1982.

ومن أعماله القصصية: "سماء وأرض". 1943. "الوادي السعيد". 1948. "البحار". 1954. "الخائنة". 1955. "الحروب الصليبية الجميلة". 1959. "حرب الجزائر". 1960. "معركة ديان بيان فو". 1963. "رحلة إلى الصين". 1965. "موت ماو". 1969. "رقص شرقي على وقع المدافع". 1976. "بيروت. يحيا الموت". 1984. "حب ما بعد الحرب". 1995.



خيول الشمس «ملحمة الجزائر»

الجزء الرابع

مدوّنات سيد متيجة

تأليف: جول روا

ترجمة: ضياء حيدر

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

ملحمة الجزائر: (خيول الشمس). الجزء 4، مدونات سيد متيجة
جول روا

PQ2635.O9654 M312 2011
Roy, Jules, 1907-2000
[Maître de la Mitidja]
ملحمة الجزائر: (خيول الشمس). الجزء 4. مدونات سيد متيجة / جول روا ؛ ترجمة ضياء حيدر.- ط.
1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
262 ص. : 20x13 سم.
ترجمة كتاب : Le maître de la Mitidja
تدمك: 978-9948-01-863-6
1.القصص الفرنسية. أ. حيدر، ضياء. ب. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jules Roy
Les chevaux du soleil
Copyright© 1980 by Editions Grasset et Fasquelle.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

مدوّنات سيد متيجة

مدوّنات سيد متيجة

إهداء

إلى زوجتي تاتيانا التي شاركتني أمل كل يوم وخيبته، على امتداد السنوات العشر التي استغرقها هذا الكتاب.

وإلى كل من ألهمني.

إلى الشخصيات الكبيرة التي جرفتها رياح التاريخ، من البارون دوبريه إلى الجنرال دو بورمون حتى ديغول، وأيضاً إلى أبناء ذاكرتي ومخيلتي، من الجد الأول مارجول إلى كل رجال دو رواي، من الكولونيل غربيه إلى أستاذ روفيغو الذي هو أبي.

إلى كل النساء اللواتي لهن اسم نجمة وقلباً من ألماس، وكل اللواتي لا يهزمن، إلى ذاكرة أمي في ثورتها ثم في خضوعها، إلى دموع إليز.

إلى كل أهلي الذين دمرهم حبهم لأرض احتضنتهم، لمن اعتقدوا أنهم ماتوا عبثاً، كما لكل من سقطوا من أجل كرامتهم ومعتقداتهم، إلى أخي الذي أنهى حياته بالقرب من بيربينيان بهاجس أن تفوته اللحظة التي عليه أن يذهب فيها إلى عمله في محطة القطارات الجزائرية الرسمية.

إلى كل من حارب من أجل الحق، إلى أبناء البقّالين من القبائل وعمال المزارع الذين شاركوا في الثورة، إلى من ذبحوا وقتلوا وعذبوا، إلى كل من لم يجدوا أيّ عزاء بعد خسارتهم الجنة... وإلى من استعادوا كرامتهم بالألم والعنف.

أهدي عملي هذا.

جول روا

المحتويات

مقدمة المترجمة

غالباً ما يجري تناول البعد السياسي والاقتصادي أو حتى الثقافي للاستعمار، لكن قلما يجري تناول البعد الاجتماعي والآثار العميقة التي يحدثها الاستعمار – لا سيما ذلك الذي يستمر لأجيال مديدة كحال الاستعمار الفرنسي للجزائر – في حياة المجموعات والأفراد على حدّ سواء. وقد حقّت تسمية هذه الرواية بالملحمة، لا لامتداد أحداثها إلى زهاء مئة وثلاثين عاماً فحسب، بل بصورة أساسية لأنها تصحبنا في رحلة إلى تلك التحولات الاجتماعية التي ضربت جذورها عميقاً ليس في حياة المستَعمَرين ووعيهم فحسب، بل أيضاً في حياة المستعمِرين ووعيهم، أو كما يصف الكاتب نفسه ذلك:

«حملة العام 1830، ذلك الغزو الدموي الذي استمر مصهراً للاختبارات، صراع السلطة، التنافس السياسي، الطروحات الكولونيالية ونقيضاتها، الأوهام، ظهور الأفكار الجديدة، صراع الديانات، المسافة مع الوطن الأم، كل هذا يبدو لي حلقة هائلة. حرب 1870 مع ألمانيا، الحرب العالمية الثانية، الصراعات الكولونيالية في مكان آخر، صراع الأم، مشاكل التوطين، الحنين، الممانعات العنيفة للاستيعاب المستحيل أو التساكن، الميول الانفصالية، العنصرية، الكوارث الطبيعية، كما تمجيد الأحلام الإمبراطورية، كل ذلك كان يزمجر كأنما في قفص للأسود. بالنسبة للعائلات التي كانت مركز اهتمامي الأول، والتي أتت من كل أوروبا وخاصة من البحر المتوسط، فقد تصادمت في طموحاتها وشهرتها، بارتباطها أو ابتعادها عن الآخرين، وشكلت العناصر التي تحركت من

خلالها عائلتي الخاصة ذات الأصول المتواضعة، ضمن شبكة مذهلة من العلاقات العاطفية والأحقاد والنكبات والانتصارات وكل ما يشكل حياة البشر لشعب كامل على امتداد الزمن. ثم يأتي المواليد الجدد، ويطرح الموت الذي يخطف شخصيات تعلقنا بها سؤال الوراثة. تغيب شخصية واحدة ويكون علينا إعادة توليدها بشكل آخر، في جيل آخر، لضمان استمرارية الحدث وتواصله مع الورثة في الدم وفي الروح. وعندما لا يكون هناك وريث مباشر، نخلق لاحقاً بعد عدة سنوات، براعم من غصن قريب».

هي رحلة مأساوية إذن نتعرف من خلالها على مصائر أجيال ممتدة، تكاد تكون حياتها صورة عن ذلك العنف الذي عصف بأرض الجزائر؛ ونقف وجهاً لوجه في الأثناء على الدعاوى الزائفة التي انطلق منها الاستعمار واستمرّ قائماً عليها، ولا سيما دعوى «تحرير الشعب الجزائري» من محتلّ آخر أو من حاكم جائر؛ كما نتعرف في ثنايا الرواية وتحولاتها وأحداثها على تلك الظاهرة التي يبدو أن لا مفرّ منها، وهي ولع المستعمرين أو المستوطنين بالأرض التي استوطنوها، حتى يستحيل ما بدأ كذبة أو خدعة إلى واقع سرعان ما يتشظى أمام واقع آخر، وولع آخر، هو ولع سكان الأرض الأصليين – مثلما اعتاد الفرنسيون أن يسمّوا الجزائريين – بأرضهم.

عندما بدأ جول روا كتابة «خيول الشمس» في العام 1966، لم يكن قد مضى على تحرير الجزائر سوى أربع سنوات، وهو ما دفعه كما يقول في مقدمة طبعة العام 1995 من الرواية إلى التردد، «لأنني لم أكن أملك الثقة بالنفس»، بيد أنه تجرّأ أخيراً على خوض المغامرة، لتأتي روايته هذه ليس

فقط من وحي زمنٍ معاش وإنما أيضاً من وحي تجربة عميقة للكاتب نفسه، الذي عاش التجربة الفرنسية في الجزائر بكل أوجهها، حتى تكاد تكون الرواية في أحد مستوياتها، سيرة ذاتية، بنيت على سيرة عائلتين، واحدة منهما هي عائلة الكاتب نفسه، على امتداد أكثر من قرنٍ من الزمن، منذ تاريخ الغزو في 1830 وحتى استقلال الجزائر في 1962، ولتغدو بذلك العمل الملحمي الأهم الذي تمكن من أن يغطي بالكامل مرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، وذلك من خلال رصد أعقد تفاصيل الحياة اليومية وأبسطها على خلفية أحداث وشخصيات حقيقية، وغيرها متخيلة غير أنها مستقاة بدورها من شخصيات عرفها الكاتب وعايشها عن كثب.

والأهم أنه حتى التفاصيل اليومية متأتية من التجربة الشخصية للكاتب الذي هو نفسه «هكتور كونيغ» في الرواية، الذي ولد مثل «هكتور» في روفيغو (وهي التسمية الفرنسية لمدينة بوقرة خلال احتلال الجزائر) نتيجة علاقة غير شرعية بين أمه المتزوجة من شرطي، واسمها الحقيقي «ماتيلد» كما في الرواية، وأستاذ مدرسي هو أيضاً «ديماتون»، وهو والده الحقيقي. كما انه عاش في الحقيقة تجربة المدرسة الإكليريكية التي غادرها لينتقل إلى الجيش ويعيش تجربة الحرب الفرنسية في الجزيرة الهندوصينية في إطار سلاح الجو، وهي التي ولدت لديه تحولاً كبيراً، ليصبح واحداً من كبار المنتقدين لهذه الحرب وللحرب في الجزائر، ومن المؤيدين لحق الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وهذا ما أعطى هذه الملحمة التي كتبها على امتداد عشر سنوات القدرة على أن ترسم بموضوعية كاملة تجربة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

بيد أن هذه الملحمة بنيت أيضاً على جهدٍ توثيقي هائل يمنح الرواية

ثقلها التاريخي الضروري الذي يجعلها تأريخ حياتي حقيقي للتجربة الفرنسية في الجزائر. والجدير ذكره أن الرواية وضعت في البداية في ستة أجزاء منفصلة صدرت بالتوالي منذ العام 1968 وحتى العام 1972، ثم قام الكاتب بتلخيصها لتقدم عملاً تلفزيونياً عرضه التلفزيون الفرنسي في 1980 في اثنتي عشرة حلقة. ليعود ويجمع في 1995 الأجزاء الستة في مجلد واحد أسماه ملحمة الجزائر.

لم تكن ترجمة هذه الرواية بالعمل البسيط، ومثل الكاتب نفسه عندما بدأ بكتابة ملحمته، فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي على خوض غمار مثل هذه المغامرة، خاصة وأن ترجمة مثل هذا العمل لابدّ من أن تقودنا إلى التاريخ بتشابكاته وتعقيداته، وأيضاً إلى الجغرافيا الجزائرية المعقدة، حيث يصعب في كثير من الأحيان العثور على اسم قرية أو شارع أو الوقوف على كافة تفاصيل واقعة تاريخية معينة، قد تمرّ في السرد بصورة ثانوية، غير أنها قد تكون عائقاً أمام الإحاطة بأحداث أكبر وأهم تأتي لاحقاً. هذا ناهيك عن التحدي الذي فرضه أسلوب الكاتب نفسه. ذلك الأسلوب المتسم بالتنقل بين عدة مستويات سردية، تبدأ وصفية مجردة أحياناً لتغوص الشخصية فجأة في رحلة من التداعيات المنفصلة عن السرد الواقعي للأحداث أو لمحادثة ما... غير أن هذا الأسلوب على تعقيده هو ما يمنح ذلك العمق الحقيقي للرواية، وكأنها النسخة المخبأة لها أو للواقع الذي تسرده، وهو وإن كبد المترجم، والقارئ بطبيعة الحال، بعض العناء، إلا أنه يمنحه شعوراً بـ «الأمانة التاريخية».

ضياء حيدر

آه! كم هو أبدي هواء هذه السنديانات الكبيرة!
مثل ترنيمة الآلام
التي تمر، ثم تخفت إلى نحيب
بلا نهاية، في هدير الشلالات البعيدة،
بعيداً جداً! وأنا، لا أريد أن أعرف
أن هذا الصخب هو نهاية حفلتي،
وأن كل هذا النحيب يبحث عن قلب الأشياء،
ولا يجده، فيبكي يأسه.
ولكن من يحبني أنا، وحيداً، وحيداً. آه يا ترنيمة الريح،
خذي إذن قلبي! وفي مكان أعلى من الصدى
اكسري كمان نحيب الأرض
في ثورة صراخك البهيج!

جول لافورغ

الجزء الاول

قرية روفيغو[1]

وتحب الغريب كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر

سفر اللاويين[2]، الإصحاح التاسع عشر، 33

المدوّنة الأولى

في قرية روفيغو، ليل الرابع من أبريل 1901[3]، حيث ثمة نذر بعاصفة رعدية بعيدة، وحيث هنري ديماتون، المدرّس الشاب، يعاني من الوحدة والحر.

لا بدّ من أنها الحادية عشرة ليلاً، ويبدو أن القرية قد غطّت في النوم. في فرنسا بالكاد يمكن رؤية النجوم، أما هنا فتبدو كبيرة حتى تخالها ستهوي على رأسك. تشعر بها تكاد تلامسك، والقمر الآخذ في الاكتمال لن

---

(1) روفيغو هي مدينة بوقرة الجزائرية وهي إحدى بلديات ولاية البليدة التي أطلق عليها الفرنسيون خلال احتلالهم للجزائر اسم روفيغو، وذلك تكريماً لدوق دو روفيغو الذي كان رئيس أركان القوات الفرنسية في الجزائر بين 1831 و1833 والذي عرف بعنفه وشراسته. وتجدر الإشارة إلى أن هناك مدينة إيطالية تحمل هذا الاسم أيضاً «روفيغو».

(2) سفر اللاويين هو ثالث سفر من أسفار التناخ والعهد القديم.

(3) يتضح من خلال العام الذي تجري فيه أحداث هذا الجزء أنه مرّ ثلاثين عاماً، أي قرابة جيل، على تاريخ أحداث الجزء السابق.

يتأخر في الظهور. كنت أبحث عن شعاعه عندما لمع البرق شرقاً، فدبّت فيّ الحماسة وأخذت أعدّ اللحظات، حتى وصلت إلى المئة، لكن لم يحدث شيء. لا عاصفة. أحبطت. لن تبلغنا العاصفة أبداً. بيد أن الرب يعرف أنني أناديها. أيّ سعادة أن تسمع انفجار البرق، ثم زخ المطر وارتطام البرَد بالسقوف، حين تتنفس أخيراً، تستنشق الهواء، وتعبّ كل هذا الماء الذي تبخل به هذه البلاد! لو تجرأت، لوقفت عارياً في الساحة، فاغراً فمي، ومددت ذراعيّ وشرّعت وجهي لوابل المطر الذي لم يهطل.

انتهى الأمر بأن أضأتُ شمعةً، فتسلل سربٌ من الحشرات الليلية، من فراش وسواها، وأخذت جميعها ترفرف حول اللهب حتى الاحتراق، من بينها فراشة «صمل»[1] الليلية الضخمة، بألوانها البديعة، الأرجوانية الذهبية، التي سقطت خافقةً بأجنحتها. سئمت الحشرات. فأطفأت الشمعة وخرجت بلا قبعة.

توجهت شمالاً مديراً ظهري للساحة والكنيسة. وعلى بعد مئتي متر كان آخر المنازل، حيث أشجار الكينا السامقة ذات الوريقات الطويلة الجافة اللمّاعة تترعبقاً رقيقاً مدوّخاً. كنت قد احتطت بارتداء سترةٍ فوق القميص، بعد أن نزعت ياقتي وربطة عنقي. ثم هبطت متمهلاً الطريق المنحدرة بعض الشيء. كانت جميع النوافذ موصدة. فالناس لا يعانون مثلي من بداية الحر، ثم في روفيغو يستفيقون مع بداية النهار وأحياناً قبل ذلك. وبالتالي فهم ينامون باكراً أيضاً.

تتالت، صامتة، التماعات البرق، الذي كان أحياناً يضيء السماء ويشعل

(1) Sphinx وهي حشرة من فصيلة الهوليات، فراشة على زركشة كبيرة يتوسطها علامة كعلامة الخطر التي توضع في الأماكن الخطرة والممنوعة، ولذلك تسمى بالفرنسية «برأس الموت» (tete-de-mort).

الغيوم. تتبعت مسار الضوء، لكن لا شيء. لابدّ من أن ذلك يحصل فوق الشاطئ، على بعد مئة كيلومتر على الأقل، وربما أبعد من ذلك، باتجاه أوليانسفيل أو رليزان، أو فوق قمة مركز عملي، الأول لي في الجزائر: سانت- إيمي- لا جديوية[1]، على حدود دائرتي الجزائر ووهران.

كما ذكرت في المفكرات التي كنت قد أعطيتها، ببراءة، لجونسون، لكي يقرأها، كنت أعيش كرجل بريٍّ بين رمال الصحراء وحجارتها السود، في خضم علاقات حبٍ جنونية مدمّرة. سعيت لرقة تمنعت عليّ. ما كنت لأوفر طريقة لكي أجد في منزلي قارورة من الكولونيا، إشارة ما على وجود امرأة. وحين حصلت عليها، ماذا تراني فعلت بها؟ ها أنا في الثلاثين من العمر، مطلق مرتين... أيكون طبعي الخاص هو الذي يحكم عليّ بالعيش وحيداً، غير قادر على التأقلم مع أيّ شيء، مدمراً كل شيء، وغير محتمل صحبة أحد؟

كان في وسعي أن أعيش بسعادة مع دلفين، غير أني كنت في مقتبل شبابي، ثم كيف كان لي مقاومة إغراء إجيني؟

غارقاً في هذه التأملات، وجدت نفسي أقترب من أشجار الكينا. كانت القرية غارقة في الظلام، ما عدا باتجاه السوق حيث كان سعيد، البقال المزابي[2] يجري حساباته. بين التماعات البرق بدا الليل أكثر حلكة، بيد أن نظري تآلف مع الظلمات البعيدة، بدا لي أن هناك برودة ما تقترب..

(1) Saint-Aime-La-Djidiouia أي جديوية: مدينة جزائرية تقع غرب العاصمة الجزائرية 275 كلم. وقد سماها الفرنسيون عند دخولهم إليها في العام 1873 سانت إيمي.

(2) مزابي نسبة لمنطقة ميزاب أو مزاب والتي تسمى ببلاد الشبكة (شبكة ميزاب)، وهي هضبة صخرية كلسية، تقع شمالي الصحراء الأفريقية الكبرى (منطقة الجزائر)، وتمتاز عن بقية المناطق المجاورة لها بطبيعتها القاسية، فهي صحراء ضمن صحراء. سميت منطقة ميزاب ببلاد الشبكة، نظراً لشبكة أودية عديدة، لا يتجاوز عمقها المئة متر.

وإذ بي أقع فجأة على مجموعة من العرب يفترشون الأرض أسفل شجرةٍ وقد اتخذوا من أذرعتهم مساند لرؤوسهم. إنهم بلا شك عمال مزارع يستريحون من تعب النهار، متحدّثين بأصوات خفيضة، وقد أخذت رؤوس سجائرهم تتوهج مشتعلة. لا أعرفهم، وعلى أية حال، فلا فرق عندي بين عربي وآخر. حيوني: «صباح الخير أستاذ سْتوتور...»، فأجبت «مساء الخير، كيف حالكم، بخير؟». سْتوتور[1]، المدرّس، كلمة يصعب لفظها. أيمكن أن أجد في محادثتهم ما يثير اهتمامي؟ في الواقع لا تنقصني الرغبة، خاصة منذ أن بدأت الاهتمام ببلقاسم، الصبي القبلي الذي رسب لدي في المرحلة الابتدائية، ولكن عما نتحدث؟ ثم إنهم جميعاً انكفأوا إلى الصمت. ماذا سيكون رأيهم إن علموا أنني أخاطب طائر النّوء[2] في منتصف الليل؟

عندما أقول «طيور النّوء»، أتذكر زميلي المحترم غوريو من لاربعاء[3]، فهو يقصد بها العرب لأنهم، أي العرب، يذكرونه بالطيور التي تعيش في جزر منطقته برِتاني[4]، لأن الجزائريين بالنسبة إليه هم الفرنسيون والأوروبيون الذين يعيشون في الجزائر. أما العرب فنسميهم: البيكو أو البيك[5] أو أحياناً جذوع التين، ربما لأننا نراهم غالباً ممددين تحت أشجار التين أو مسندين ظهورهم إليها. إدارياً، نسميهم «البلديين» أو «السكان

---

(1) ستوتور يقصد بها المدرّس بالفرنسية أي أنستيتور (instituteur) وقد حرفها الكثير من العرب في ذاك الوقت لصعوبة لفظها.

(2) طيور النّوء هي طيور مائية مهاجرة لا تحط إلى عندما تضع بيوضها.

(3) لاربعاء: دائرة في ولاية البليدة الجزائرية.

(4) Bretagne منطقة تقع غرب فرنسا.

(5) Bic او bicot أي الماعز أو رعاة الماعز، وقد استعملها الفرنسيون، كما سبق وذكرنا في مكان آخر من الرواية، تحقيراً للعرب.

الأصليين»[1]. وقد دأبنا على مخاطبتهم بصيغة المفرد، في حين أخاطبهم، وعلى الرغم من استنكار مواطنيّ وخاصة غوريو، احتراماً بصيغة الجمع مستعملاً كلمة «أنتم» أو «أيها السيد»[2]. بالنسبة إليّ هم بشر، أكثر فقراً وأقل حظاً مني. ثم إنهم في أرضهم. غوريو يسخر مني: «ستدفع ثمن مبادئك يا عزيزي. هم بشر مثلنا؟ لولانا لكانوا تعفنوا في ظلامية دينهم وأحوالهم. كانوا اليأكلوا الحصى، ويموتوا كالذباب. فقد أصبحوا بشراً بعد أن علمناهم...»، وعندما أجبت بأنه يجب أن نبدأ بفتح أبواب مدارسنا لهم، تلك المدارس التي يتقزز هو نفسه منها، أجابني: «لاحقاً، فليكتفوا الآن بتأمل ما حملناه لهم وهو ما لم يحلموا يوماً بشم رائحته لولانا...».

أول من أمس، استقللت القطار المحليّ وذهبت لرؤيته. كان لديه معاون من السكان الأصليين. وعلى الرغم من أنه كان من مجايليّ، إلا أن المنصب الذي يشغله كمدير للمدرسة في حين أني لست سوى مدرّس فيها، يجعله يبدو أكبر سناً مني. كنا في اليوم الثالث من عطلة عيد الفصح، 1901، التي بدأت في الثاني من أبريل، وبتنا اليوم في الخامس منه، بما أننا تخطينا منتصف الليل، فأحد الفصح يصادف هذا العام في السابع من أبريل. رسمت له لوحة مائية تمثّل سمكة ملونة، مع قشور مرجانية وزعانف ذهبية تسبح في زرقة خفيفة. هز رأسه معجباً وقال إنه سيعلقها في الصف. ثم فجأة سألني أي نوع من الأسماك هي.

(1) Indigéne: في المنطق الاستعماري، كما نجد في مثال استعمار أمريكا سابقاً، وسوى ذلك، تستعمل غالباً هذه الكلمة للتمييز بين السكان الذين وجدهم المستعمرون على تلك الأرض، وبين السكان الجدد، من دون أن يعني ذلك من قبل المستعمر إعلاء من شأن السكان الأصليين أو اعترافاً بحقوقهم، بقدر ما يعني العكس تماماً.

(2) في اللغة الفرنسية فإن مفردة Vous حين تستعمل مع الأفراد يقصد بها الاحترام، أما حين تستعمل مفردة tu في المخاطبة فينطوي ذلك على رفع الكلفة وأحياناً قلة الاحترام.

– لقد اخترعتها.

– ألم تنقل ذلك عن قاموس؟ إذن كيف تريدني أن أعرضها. سيسألونني إن كانت سمك قاروس أو ثعبان البحر. لا يمكنني أن أجيبهم بأنها صنيعة خيال زميلي الموقر ديماتوس دي روفيغو.

بدا غوريو محبطاً. «في النهاية شكراً على أية حال»، أردف بفتور.

عادة لا نرفع الكلفة بيننا على هذا النحو، بل يخاطب واحدنا الآخر بصيغة الجمع. فنحن لا نأتي من دار المعلمين نفسها، ومنصبه يؤكد ادعاءاته، كما أن سنيه العشر في الجزائر تفرض نفسها عليّ، إذ لم يمض على وجودي في الجزائر سوى خمس سنوات بالتمام والكمال. وهو يذكرني بجانسون، قصير القامة مثله، وله مثل استطالة وجهه وشفتيه الغليظتين. جبهته أعلى غير أنها مستديرة، وقد صبّت من السنديان المصقول نفسه. أما جبهة جانسون فتشبه مقدّم سفينة قادرة على سحق كل ما يقف في وجهها، مع غرّة متمردة. ومثل جونسون، فإن شعر غوريو فاتح، لكنه ناعم رفيع، شديد الشقرة، يصففه جانبياً، في حين أن شعر جونسون أكثر غلظة، ولكن مع التموج الكثيف نفسه في الجهة اليسرى، علامة على الذكاء، كما يبدو. هذا التشابه يلفتني ويقلقني.

أما أنا فإني على الأرجح توتوني[1]. لو اعتمرت قبعة المدرّسين البروسيين الدائرية لخالوني توتونياً. أنفي أفطس، وفكي عريض، وجبهتي قوية تغرق فيها عيناي المتباعدتان، نظرتي قاسية، شفتاي يغطيهما شاربان مفتولان، لحيتي شقراء غير كثيفة مع بعض خصل من الشعر الأصهب.

بعد أن تبادلت السلام والعرب، مضيت في طريقي. نمّ صوتهم عن

(1) توتوني أي من سكان جرمانيا الشمالية.

احترام ونبرتهم عن صداقةٍ ما، وكانت تفوح حولهم رائحة زيتون نافذة وفطائر الشوفان. ربما يحسبونني في طريقي للقاء امرأة. ففي حياتهم كما في حياتي، يحتل الجنس حيزاً كبيراً. أصحيح أنه لولا الجنس لما بقي لهم شيء؟ ذريتهم التي تتناسل وتتكدّس في أكواخهم، تملأ القرية، وتسيطر على كل شيء. عرضت منذ أيام على غوريو صحيفة لا دبييش ألجيريين[1]، عدد 30 مارس، الذي نشر فيه قرار مجلس النواب الذي أقرّ تعليق «إعلان حقوق الإنسان والمواطنية» على جدران كافة المدارس الرسمية. أضف إلى ذلك أن الحاكم الجديد السيد جونار يتبع هو أيضاً سياسة مراعاة.

– السيد المدير، ستكون مجبراً...

– ماذا؟ صرخ محتجاً، ما كان ينقصني سوى هذا! يولد البشر أحراراً متساوين في الحقوق...، هذا ينطبق قطعاً على أمثالنا نحن. أما الماعز؟ إنك تمزح. سيجبرونني على تعليقها وسأرضخ خاصة من أجل مساعدي، أنت تعرف جيداً: فقد تمكن من مصاهرة السيد لوكان، مدير مدرسة سيدي موسى، ذاك المسكين، فقد زوج ابنته لواحد من السكان الأصليين! لكنني سأعلق الإعلان في مكان عالٍ جداً حتى لا يتمكن أحد من قراءته. أما الحاكم؟ ذكره يثير فيّ الضحك. ثم دعني من مخاطبتي بـ السيد المدير هذه، فأنا أرى ما تضمره من سخرية. عندما تغدو يوماً مديراً لمدرسةٍ سيعلمك الزمن حدود الاحترام الذي يمكن أن تقدمه لهؤلاء التافهين[2].

---

(1) La Depeche Algerienne صحيفة أسبوعية جزائرية تصدر باللغة الفرنسية.

(2) هنا يستعمل الكاتب كلمة coco وهي كلمة قد تدخل في الأحاديث الحميمية، ولكنها غالباً تحمل معنى سلبياً لتعني شخصاً قليل الأهمية ويشار بها أيضاً إلى الشيوعي او إلى مناهض الملكية. والمعنى المستخدم هنا سلبي على الأرجح.

أحرار متساوون في الحقوق، كرّر العبارة، ستتحدث لاحقاً بهذا الشأن».

ولد في إحدى ضواحي كوت– دي– نور[1] التي يتحدث عنها وكأنها جنة عدن: شاطئ صخري مسنن، لاركواست[2]، أمام حفنة من الجزر المتشظية في بحر رمادي هائج على امتداد العام، تضربه الرياح...

جزيرة صغيرة تتحول مع المد العالي إلى قلعة على رأس جبلها، الذي يمكن تسلقه مشياً على الأقدام. في كل مرة كنت أبدي الاعتراض نفسه:

– ليست خبيثة طيورك النّوء[3] هذه. كان بإمكانها أن تبقى بعيدة لو...

– أين تريدها أن تذهب. سمِّ لي زاوية في هذا العالم لم يصلها الإنسان، ونحن لسنا سوى في بداية القرن العشرين، سترى كيف ستكون الحال بعد ثلاثين عاماً.

وعندما أبديت استغرابي من أن كل طيور النّوء في العالم تبيض على صخرة في أرموريكا، قال «لم أقل لك كل طيور النّوء في العالم... بالطبع تلك التي في السنغال تبيض على منحدر صخري في السنغال وتعود بعدها إلى أركواست. ولكن طيورنا، أجل، عندما تشعر بالحرارة تتّقد في أجسادها، تترك مراكبها تكمل طريقها وتعود إلى أركواست. أتمنى لو

(1) Cote- du- Nord والتي سميت لاحقا Côtes-d'Armor وهي بلدية في شمال بريتاني (Bretagne)، تقع شمال غرب فرنسا.

(2) l'Arcouest وهي ميناء، توجد فيه منازل العديد من العلماء والكتاب الفرنسيين الذين سكنوا هذا الشاطئ منذ بداية القرن العشرين.

(3) هنا يجري الربط بين أبناء الجزائريين في المدرسة والذين سموا هنا «التافهين» وبين «طيور النّوء» التي يعتبرها مدير المدرسة في هذه الرواية رمزاً للعرب بمعنى تحقيري، ويأتي هذا الكلام بناء على نقاش سابق افتراضي بين الاثنين.

تراها كيف تكون على هذه الجزيرة الصغيرة، قبائل وعشائر متلاصقة. كانت دائماً تبدو لي أكثر اهتياجاً مع الجَزر عندما تغدو الأرض فضية مع كتلٍ من الحمم السود، براكين وبحور جافة، تطير أسراباً على حافة الأرض الوعرة وتغط فجأة وتتجمع وتتعارك ثم تعاود الطيران. هل باضت إحدى إناثها أو أن فرخةً جديدة خرجت من بيضتها؟ إذ تحلقت جميعها لتتفرج على المعجزة، تزعق وتزقزق وتموء، أجل، يا عزيزي تموء، ونظن أحياناً بأننا نسمع صوت القطط».

مع طيور النّوء، يجب استعادة كل المصطلحات الخاصة بأصوات الحيوانات. لا تهدر ولا تجأر ولكنها تصرّ، تنقنق، تقاقي كالدجاج والأوز، تنعق وتزمر، تصوِّت، تنفخ بالبوق كالصقور، تنعق كالغربان، وأحياناً أخرى تصفّر وتنعب كالبوم. ضوضاء...

ودون سأم، يستفيض:

«من قال إن النوارس تزعق؟ إنه تحريف للمأثورات الشعبية. طيور النّوء، عندما تكون جماعةً تصفر مثل طيور الشحرور وتنعق كالبوم. أحياناً يسود صمتٌ تام فنسأل أنفسنا ما الذي يحصل، ونكاد نقلق عندما تتماهى مع الحصى بسبب سواد ريشها، ثم عند أول نداء يبدأ كل شيء من جديد، فتطير أسرابها وتهتاج وتستسلم لحفلة سحرة جديدة مليئة بالضحك والهذر. وعند المدّ، تهدأ وكأن البحر يعيد لها السلام، فلا نقلق حينئذ لرؤيتها تنسحب تدريجياً... أنت تفهم، هذه هي حياتها، ومشيئة الرب لها...».

عند هذه الكلمة، نظرت إليه بشيء من السخرية، فهو دائماً يستثار قليلاً فيتلفظ ببعض الكلمات، ليجعلني أعتقد أنه يعرف أكثر بكثير مما

قاله. كنت أتسلى بإغاظته.

«لم أرَ وجه الشبه بين طيور النّوء والعرب».

يطلق صفرة خفيفة.

«أولاً السذاجة، فهذه الطيور، كالعرب، لم تفهم بعد، أنه عند ساعة محددة وثابتة، يحصل الجزر والمدّ. ثم هناك انهماك العرب، وارتباكهم، واضطرابهم تجاه أي شيء واحتجاجهم الدائم، وكثرة إنجابهم، والطقوس السرية التي ينذرون أنفسهم لها. لو لم نحتلّ هذه البلاد، لأغرقنا العرب بنسلهم. يجب إجبارهم على البقاء في زواياهم وعلى التمدد في الصحراء في حين نحتفظ نحن بما لدينا. وإن لم نفعل ذلك، فسنختنق في النهاية. أتريد الحقيقة؟ لا يستهويني هذا الصخب، هذه الحيوانات التي تعوي لا نعرف لماذا. هذا يقلقني وأشعر بالحاجة إلى الدفاع عن نفسي وإلى امتشاق بندقيتي لإيقافهم عند حدهم. هم في ديارهم وأنا في دياري».

لم أتجرأ على القول له إننا نحن من أتينا إلى أرض طيور النّوء لا العكس. وكان سيجيبني بأنني أنا نفسي سأدرس عندما سأصل إلى تاريخ فرنسا في القرن التاسع عشر، أسباب التدخل في الجزائر. ربما كان غوريو محقاً: القرصنة على السفن على شاطئ بروفنس، وفي أنحاء البحر المتوسط، التي بدأت تكون مصدر قلق آنذاك، غطرسة الداي تجاه قناصلتنا، حادثة المروحة[1] تلك...

(1) ويقصد هنا الحادثة التي فجرت أو اتخذت كحجة لقيام الحملة على الجزائر واحتلالها. وذلك عندما، وحسب رواية القنصل الفرنسي في الجزائر في العام 1830، قام داي الجزائر (أي حاكمها التركي) برميه بالمروحة التي كانت في يده (وهي عملياً طاردة للذباب مؤلفة من عصا تنتهي بذيل حصان) بعد أن رد عليه بأن الحكومة الفرنسية لن تدفع ديونها التي انتظر سنين لاستعادتها من فرنسا وهي قروض مالية ومواد غذائية ومساعدات خاصة أيام المجاعة التي اجتاحت فرنسا بعد ثورة 1789، وأكمل بالرد بطريقة غير لائقة =

زقزقتهم المتخيلة أحدثت في داخلي انقلاباً سحرياً، وتردد في داخلي رجع اسم امرأة، الاسم الذي أعيده سراً ويصدح في مسمعي، همساً في البداية، ثم يتردد أكثر وضوحاً صارخاً: ماتيلد، ماتيلد!... لم تكن طيور النّوء التي تصرخ، إنما أنا.

عدت مسرعاً. خشيت أن يسمعوا ما يثقب سمعي. خلال مروري بمدرسة البنات، أجلت بصري قلقاً. ولكن لا، لا، ليس هناك أحد. المعلمة، الآنسة روسي، ذهبت منذ الأحد إلى الدويرة للقاء خطيبها، المدرّس مثلها طبعاً، ولكنه من المستوطنين. ولن تعود إلا عشية استئناف الدراسة. في غيابها أشعر بنوع من الراحة: يمكنني أن أتصرف كما يحلو لي دون أن أثير حشرية زملائي أو انتقاداتهم. ماذا كانت لتظن مثلاً لو رأتني أخرج في منتصف الليل؟

ولكن عند وصولي إلى المنزل...

كان بابي مقفلاً. كنت أحسبني تركته مفتوحاً. دخلت متلمساً طريقي، أوصدت مزلاج الباب، ثم أغلقت المصاريع، وإذا بي أتجمد من الخوف.

أحسست بشعر جسدي ينتصب، هناك أحد في المنزل. غريب ما. أهو عربي جاء يسرقني؟ فهم يعرفون جيداً أنني لا أملك شيئاً، وبأن بعض القروش التي أملكها أحملها معي، وبالتالي ليس في المنزل ما يستأهل السرقة.

الظلام حالكٌ، وقفت قريباً من مكتبي حيث أضع أوراقي وبريدي ودفاتر تلامذتي ومددت يدي إلى علبة الكبريت. شعرت بأنني مشوش

= على الداي عند استفساره عن الأسباب، مما دفع الداي لطرده في النهاية، ولأنه لم يخرج فدفعه بالمروحة التي كانت في يده.

الذهن وأملت بأنه حين ينار المكان سأجد كوخي الحقير وسريري الهابط الرث والصندوق الذي اتخذه كمنضدة بجانب السرير ووعائي المعدني والإبريق وزوج حذائي في أسفل الخزانة حيث أضع ثيابي النظيفة والمتسخة، وسأجد على الجدران المطلية بالكلس، بضع سحليات هاربة. سمعت طنين حشرة. أخذ قلبي يدق بقوة، أشعلت عود ثقاب لأرى عند الكرسي.. ما هذا المجنون، هذا المخبّل كما يقولون هنا؟ أجل بالفعل، رأيته جالساً بهدوء، يداه مضمومتان بتوسّل، مرتدياً بزة أنيقة من الجوخ، كان قصيراً جداً، جداً، مسالماً، ولكنه في النهاية وقح لدخوله عنوة إلى بيوت الناس، وبابتسامته المعتذرة وطلبه السماح.. لقد سبق ورأيت هذا الرجل في مركز استيراد وتصدير الحبوب في الجزائر.

«ماذا تفعل هنا؟».

نهض، وكان بالكاد يصل حتى كتفي، شفتاه ترتجفان، ولعابه يسيل.

«سأشرح لك...».

أحرق عود الثقاب أصابعي. فتخلصت منه، وأشعلت آخر وأضأت شمعة. وحده الرب يعرف لماذا لم أنس وجهه. مضى عامان تقريباً، ولماذا تذكرت اسمه الذي بمثل هذا الوضوح؟ فقبل ثوان فحسب كنت أهذي بامرأةٍ، أختنق بسببها، أكثر من اختناقي من الطقس، وأحلم بها وأحرق لياليّ بالتهامها غير آبهٍ ببقية العالم، ثم يأتيني رجل متخفياً، ينتظرني، كان هو إذن.

المدوّنة الثانية

حالماً بامرأةٍ يهواها، يجد المعلم نفسه أمام يهودي جاء يحتمي عنده من مشاعر الكراهية ضد اليهود في تلك الحقبة. إدوارد درومون[1] يصبح نائباً للجزائر في 1898، لحظة احتدام قضية درايفوس[2].

أخذ يكلمني همساً مربتاً ذراعي. دفعته عني:

– في ساعة متأخرة كهذه...

– إنه صديقنا الكولونيل غربيه هو من نصحني... أنت الوحيد الذي

(1) إدوارد درومون (Édouard Drumont) صحافي وكاتب فرنسي (1844 – 1917) وقد اشتهر بمعاداته لليهود وقد ضمن أفكاره كتاب فرنسا اليهودية (1886) الذي طُبع أكثر من مئة طبعة، وكان من أكثر الكتب الأوروبية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر. وقد ألّف درومون كتباً أخرى تتضمن الأفكار نفسها والرؤية نفسها. وكان درومون يرى أن يهود فرنسا عنصر أجنبي غريب يستغل النظام الاقتصادي الفرنسي لتحقيق منافعه الخاصة وبسط سيطرته على العالم، وأنهم عنصر تجاري بطبيعته، يسيطر على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى التي تعوق نمو الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة، فهم يركزون الثروة في أيديهم (مثل روتشيلد) ويشكلون خطراً على مستقبل الطبقة العاملة في البلاد. ورأى أن اليهود يشكلون «دولة داخل دولة» و«أمة داخل أمة»، ولذلك فإن اندماجهم ليس ممكناً، كما أن اختلاطهم بالشعب الفرنسي عن طريق التزاوج أمر غير مرغوب فيه.

(2) درايفوس (Dreyfus) هو ضابط فرنسي من أصل يهودي برتبة نقيب، اتهم بتسريب معلومات عسكرية الى ألمانيا عام 1894. جرت محاكمته في غياب أدلة كافية تثبت تورطه، وفي ظل مناخ معاد لليهودية (معاداة السامية) الذي ساد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا، أشعلت قضية درايفوس فتيل محتدم في الحياة الاجتماعية والسياسية لمدة تزيد على عشر سنوات في فرنسا، التي انقسم شعبها بين مناصر لدرايفوس ومعاد له، وفي ظل هذا الاحتدام ظهر أول بيان في تاريخ الفكر الغربي عن جماعة من رجال الأدب والفكر، تسمي نفسها «المثقفين»، نشر في جريدة «الفجر» سنة 1898، وقعته أسماء كبرى مثل: أميل زولا، أناتول فرانس، مارسيل بروست، وليون بلوم.

يمكنني عنده... أنت تعرفني؟ أنا...

– أجل، أجل... أنت السيد موردخاي بكري، أليس كذلك؟ التاجر من البليدة[1]. قل لي ماذا يجري؟

– أنت تعرف أن درومون سيصل إلى الجزائر؟

– حسناً؟

– هل هذا يبشر بالخير لجماعتنا؟

«جماعتنا»؟ وهل أن اسمي ليفي؟ وهل لي هيئة يهودي؟

خلال ما يقارب العشرة أعوام، نسيت درومون. في أركونفيل، انشغلت بوظيفتي الأولى، ثم بزواجي من دلفين، وولادة روبير، ولاحقاً لاجيري، عندما كانت لدي أفكار أخرى. وفجأة أعلم أنه أمسى نائباً للجزائر. ثم إنه، لولا الصدف التي جعلتني ألتقي الكولونيل غربيه، وآل باري وماتيلد، لكان بدا لي كل ذلك غامضاً. في سانت– إيمي– جديوية، لم أهتم قط بقضية اليهود. في «الداخل» كما يقال هنا، لا يوجد إلا القليل منهم. كان عليّ الاقتراب من مدينة الجزائر حتى أسمع من جديد النقاش العقيم مع الروابط المعادية للسامية، وتأييدهم لرئيس البلدية ماكس رِجيه، وبالحرائق التي اشتعلت في «للربعاء» وبوفاريك. أما غوريو فهو يسخر منهم، إذ لا تشغل باله سوى النّوء تلك. كل ذلك لمع في رأسي مع اسم موردخاي بكري.

«سيصل دورمون، حسناً، وماذا تريد لذلك أن يعني لي، سيد بكري؟»

(1) البليدة تقع في شمال الجزائر على سفوح جبال الأطلس إلى الجنوب من سهل متيجة، ومدينة البليدة عاصمة متيجة.

وأردفت:

«أرغب في أن... اسمع لقد غدا ذلك كله من الماضي. لو كان عليّ الاختيار حينها، ما كنت لأعرف في أي صفٍ سأقف. بعض مواطنيّ كانوا ليضحون بأنفسهم من أجل النقيب درايفوس. وما أعرفه هو أنه ما يزال حياً. ومذ ذاك، تمت مسامحة الجميع. إذن...».

بدا مصعوقاً. بالنسبة إليه بالطبع، من المفترض أن اسم درايفوس يذكره بأحداثٍ ماضية. اتخذ شكل ممثل تراجيدي، وتداعت تقاسيم وجهه. لا، لم يكن وسيماً. وكأنه وليد خيال رسام كاريكاتور لاسييت أو بار[1]: عين نصف مغلقة، فم معقوف، خطوط عريضة تشقّ الجبهة الضيقة والوجنتين، ذقن طويلة، وكأنه يبتسم لينسى كل ذلك، وليبث الفرح حوله. أهو غني؟ لديه تجارة مزدهرة ومبانٍ فالمنزل الذي يعيش فيه الكولونيل غربيه يعود إليه.

شعرت بالشفقة لرؤيته مهزوماً إلى هذا الحد. في الوقت نفسه كنت حذراً: أتذكر قول درومون: اليهودي خبيث، يؤدي أكثر من شخصية. قال لي:

– سيد ديماتون، النقيب درايفوس كان دائماً بريئاً. لماذا تريده أن يموت؟

– لا أريد شيئاً، سيد بكري. أنا أذكّرك بأنه ما زال حياً. هذا كل ما قصدت قوله.

– أحياناً أن نبقى أحياءً شيء يستحق التقدير أكثر من الموت. لستُ

(1) L'Assiette au beurre مجلة مصورة فرنسية موجهة للفوضويين، ظهرت في الرابع من أبريل 1901 واستمرت بالصدور حتى 1 أكتوبر 1912 وقد صدر منها 593 عدداً. وصاحبها صاموئيل شوارز كان يهودياً هنغارياً تجنس في فرنسا.

النقيب درايفوس، لا أتمتع بشرف الدفاع مثله، ولكن أقسم لك بأنه تنتابني أحياناً الرغبة في الذهاب بعيداً من هنا، والتخلي عن كل شيء والاختفاء.

– ولماذا لم تفعل ذلك؟

– الجزائر هي بلدي، سيد دماتون. أتترك بلدك؟ أنا من البليدة.

– يمكننا العيش دون البليدة.

كان كلامي بمثابة الصدمة بالنسبة إليه.

«أنت ربما. أما أنا فقد ولد أبي وجدي هنا. إنه دمي».

أبي ولد مثلي في ليفيني[1] (أوب). أما أنا فانتقلت إلى سانت– إيمي– جديوية وروفيغو. لقد رددوا كثيراً أن الجزائر هي فرنسا...

ومضى سيد بكري يقول:

– أن تكون منبوذاً في بلادك، ومطارداً...

– أنت تبالغ. هناك وزراء يهود في الحكومة. فمن منحك الجنسية الفرنسية هو وزير يهودي.

شعرت بالغضب يصعد إلى رأسي وبدأت أصيح:

«تقتحم بيتي في منتصف الليل، كان كل هذا ممكناً لو كنت أعرفك، كل هذا لأن درومون الذي كتب فرنسا اليهودية سيصل؟».

أي جلبة، أي كتاب ذاك! أي انقلاب! ثلاثة آلاف متهم. فرنسا مضللة، مسحورة، تسلّم نفسها وتصمت بدافع الخوف من أسيادها، توقّر الوريثات اليهوديات الثريات اللواتي أصبحن دوقات وماركيزات، وقسم كبير من الأرستقراطية مباعة لليهود لتلميع صورتهم وإنقاذ ممتلكاتهم

(1) Levigny هي قرية فرنسية في دائرة أوب.

وقصورهم، وكل عائدات الازدهار الإقتصادي تعود بشكل غير معلن لهم، هم دكتاتوريو المال... درومون الذي استفزه النقاش الذي أثاره مدير غولوا[1] هاجم بوحشية مايار[2] فما كان من هذا الأخير إلا أن يستل سيفه بيسراه ويجرح درومون في فخذه، يا لتلك الضجة! تعاطفنا مع درومون، هذا النبي الذي يقال إنه مشعّر كالذئب، وبالقلق عليه هو الذي يعاني كما يبدو من تشنجات في المعدة ولا يتوقف عن القتال تحت عنوان أن الرجل المستعد للموت هو القادر على تغيير وجه العالم. كاثوليكي تقليدي، مدافع عن الجيش، وهذا ما يتعارض مع أفكاري، ولكن معظم أبائنا يشبهونه، لقد عاشوا مثله مشاعر الهزيمة ثم الاستسلام[3]. كل صباح في ليبر بارول[4]، يذكر بعدو الوطن: اليهود الذين يتهمهم بنهبنا.

شعر بكري بالغثيان.

«لا تصرخ، أرجوك، سأذهب».

نهض. رأيت حذاءه، لم يكن متسخاً، ربما تنتظره عربة على طريق سوما. لمحت في عينيه حزناً جعلني أطلب منه البقاء، شاداً بقوة على كتفيه، وكأنني أمحوه محواً. رضخ وقبل البقاء.

«أينوون أذيتك؟».

صمت.

---

(1) صحيفة Gaulois الفرنسية.

(2) Arthur Meyer وهو يهودي فرنسي (1844– 1924) ومؤسس صحيفة Gaulois الفرنسية في العام 1868 والتي استمرت حتى العام 1929 حين اندمجت بالـ Figaro.

(3) تذكير بالهزيمة التي تلقاها الفرنسيون أمام البروسيين في 1870.

(4) Libre Parole صحيفة سياسية فرنسية منهاضة للسامية (باريس 1892 – 1924) أسسها إدوار درومون الذي هو موضوع الحديث بين الرجلين، والذي كان في زيارة للجزائر، هنا في أحداث الرواية.

– هل هددوك؟ أجب.

– ما فائدة ذلك؟ بالنسبة إليك، أنا حثالة الناس، جمعت ثروتي على ظهر المساكين.

– لم أخترع شيئاً.

– لقد كتبوا الكثير من الترهات، ورووا الكثير منها. كراهية العرب لليهود... بالطبع، التحقير والشتائم. وبينكم، أنتم الأوروبيون، ألا تسمون أبداً بعضكم بعض أنتم الإيطاليون والإسبان والفرنسيون بالقذرين؟ وهذه الأسطورة التي تحصر نشاطنا بالتجارة والمال، وكأنه ليس بإمكاننا أن نكون علماء وكتاباً وعسكريين، ولا يمكننا أن نقود عربة ونعمل في الأرض، أتصدق ذلك؟ أو أننا خونة؟

رفعت يدي قليلاً. فأكمل:

«عندنا، كما عندكم، أناس شرفاء وآخرون غير شرفاء، لدي أخوة في الدين في البليدة، بني سعيد. الكثير من اليهود الجزائريين أتخذوا أسماء عربية لكي يندمجوا في البلاد. قديماً، وقبل المسيحية، أغلبهم تحولوا إلى البربر للاحتماء من جيش تراجان[1] ولاحقاً بليزير. بن سعيد يعملون في تجارة الحبوب وتحديداً بدافع تعلقهم بالأرض. واليوم، الأرض أنتم من

(1) الإمبراطور تراجان هو ثاني الأباطرة الأنطونيين الرومان (98–117) الذي بلغت معه الإمبراطورية الرومانية أوج اتساعها. خاض حرباً شرسة ضد اليهود في شمال أفريقيا. ففي السنة الثامنة عشرة من حكمه عاد الصراع بين اليهود واليونان في شمال أفريقيا، وتفاقمت الخلافات حتى ثار اليهود على الدولة الرومانية وأعلنوا العصيان فحاول لأوبوس الوالي الروماني قمع ثورتهم وأخفق، استمرت الحرب سنتين حتى أصبحت ولاية ليبيا تئن من أهوال هذه الحرب الداخلية إلى أن أرسل الإمبراطور أخيراً القائد مارسيوس توربو بجيش جرار إلى مصر لمحاربتهم وبعد قتال عنيف في عدة مواقع هزم اليهود شر هزيمة وقتل ألوف منهم وجردوا عقب هزيمتهم من امتيازاتهم، واعتنقوا مذ ذاك المسيحية في جماعات.

سرقها من العرب، وتملكونها، ونحن نرفض أن نكون صراحة إلى جانب المحتلين، فالأرض تشبه إلى حدٍ ما المرأة، حسناً، بن سعيد لا يشبهونني بأي شكل: فهم أقوياء، أشداء، فقد تخالهم مستوطنين...».

بدا متألماً وهو يقول ذلك، محتقراً ذاته. كان أصلع الرأس أيضاً، وأخذ العرق يتصبب من جبهته وخديه، وهذا ما لم يتنبه له إلا مع نظرتي المندهشة، فجفف فجأةً قحف رأسه بمنديل. ماذا سأكتشف أيضاً؟ أنه أصدف[1]؟ أنه يعاني من السكري؟ فنظره يبدو ضعيفاً لأنه يزمّ عينيه كثيراً. فما لم أحبه هو طريقته في الكلام إذ يهمس همساً. إنه عيب في النطق على الأرجح. بعد ثوان كنت لأتهمه بالخداع.

– إن كنت أحدثك عن أصدقائي من بني سعيد، فذلك إجابة عن سؤالك. فبن سعيد مدججون بالسلاح. واحتفالاً بزيارة درومون للجزائر، سيدفّعونهم في البليدة ثمن ما يسمى يهوديتهم[2]، أتفهمني؟ لأن بني سعيد ليسوا ممن يتسامحون مع الإهانات. فقد ردوا سابقاً على المحرضين وواجهوهم. هذه المرة سيذهبون أبعد. فإن حاولوا الاعتداء عليهم وقتلهم، سيقتَلون بدورهم. لا أريد أن أدخل في ذلك كله.

– ولهذا السبب أنت هنا؟ كان بإمكانك أن تكون بمأمن أكثر في مدينة الجزائر.

– مع وصول درومون؟ فهم يعرفونني هناك. ويعرفون أين أسكن.

– هل تفضل أن تورطني، أنا المدرّس، في بلدة مثل روفيغو؟ وإن

(1) الأصدف هو من تكاد ركبتاه تتماسان وتتباعدان عند القدمين.

(2) يستعمل هنا كلمة youpinsde نسبة لـ youpin وهو تعبير تحقيري يشار فيه لليهود.

جاءت زميلتي المعلمة في مدرسة الفتيات إلى هنا؟

– لا أحد يعلم أني هنا، إنها مسألة يومين أو ثلاثة. يمكن أن تذهب وتقفل كل شيء. وأنا لن أبرح مكاني.

«ماذا سآكل؟».

بطرحي هذا السؤال أكون قد خسرت: فقد قبلت استضافته عندي. سينام في سريري، سيتطفل على كل شيء، وإن اكتشفوه، فسيتهمونني بحماية اليهود، ويطالبون بترحيلي، كيف سيعاملونني؟ «لا يهود في المدرسة»، هذا أحد الشعارات. وحتى هذه اللحظة، وعلى الرغم من أن ماكس رِجيه جاء ليؤسس هنا رابطة معادية لليهود، يبدو لي الأمر مضحكاً إذ لا يهود في روفيغو. في الواقع، ليس لديّ من الطلبة، من السكان الأصليين، سوى الصغير بلقاسم. سينتهي بي الأمر منبوذاً ولن يدافع عني غوريو ولا الآنسة روسي.

«لقد جلبت ذلك على نفسي».

يكشف لي تحت مكتبي عن حزمةٍ صغيرة لم ألاحظها من قبل، محشورة في قطعة من القماش، حيِّك، مثل تلك التي يستعملها العرب لتغليف صررهم عندما يسافرون.

«فطائر مع قليل من الماء، لدي ما يكفيني لأسبوع».

إنه يبالغ. فقد أخرجني صراحةً من منزلي.

«لا أفهم لماذا، بما أن أصدقاءك بني سعيد بقوا في البليدة...».

تنهد.

«سيد ديماتون، أنت تجبرني على قول أشياء يصعب علي قولها. بن سعيد شجعان، للأب ثلاثة ذكور وأنا لم أنجب سوى الفتيات. أنت تفهم

مقصدي، أليس كذلك؟».

في غرفة روبير، من الجهة الأخرى من المطبخ، هناك سرير صغير بلا حوافٍ، اشتريته خلال التنزيلات في سانت– إيمي– جديوية. أشرت إليه في العتمة.

«لن أشعل الضوء. لا أريد أن يشك أحد بأني لست وحيداً. فهم يعلمون أن ابني ذهب بالأمس. أراك غداً».

تركته وعدت إلى الغرفة التي تضم مكتبي وسريري. فكرت بأن أحمل له صرة فطائره لكنه لن يحتاج إليها الآن. ثم أني لم أتجرأ على لمس ما يأكله هؤلاء البشر. سكبت لنفسي قدحاً من النبيذ. وبصوت منخفض سألته: «هل ترغب في بعض منه؟».

لم يجب. وأكثر من ذلك، لم يكن يريد أن يشرب سوى نبيذ كاشير[1]. هززت كتفي، وأقفلت باب المطبخ. وقلت لنفسي إن عليّ أن أسكنه بشكل شرعي، وربما قد يساعدني ذلك أن أعرف إن كان بإمكاني مع الاقتصاد في المصروف أن أوفر الخمسة وعشرين فرنكاً التي تطالبني بها إجيني. أخذت بعدها من مخزون القرطاسية دفتراً وعلى الغلاف الأزرق فوق الشعارين – الأول مع تاجين مثلثين منفصلين بعصابة عرضية والآخر مع ثلاثة عصافير أو ثلاث حمامات أو ربما أنها ثلاثة بواشق – عنوان بأحرف رومانية كبيرة: «كاليغرافيا». وتحته بقليل: «دفتر الـ..» وأيضاً «اسم الطالب...». حملت الريشة وبدأت بالكتابة...

كم كراساً ملأت، منذ ثلاث سنوات؟ أحد عشر كراساً، وقد أحطت الرقم بدائرة. هذا الخميس، جاء جونسون، زميلي في بوسانكور،

(1) Kasher هو نبيذ أو طعام يعد وفقاً للطقوس اليهودية.

لزيارتي، فنحن من الدفعة نفسها من دار المعلمين. فلأني لم أذهب لزيارته منذ ثلاثة أسابيع، شعر بالقلق عليّ إذ كان يعرف أن علاقتي بإجيني تتطور نحو الأسوأ. سألني: «أأنت وحدك؟». إجيني كانت قد رحلت منذ خمسة عشر يوماً. قلت له «لا»، وأظهرت له الدفاتر في درج المكتب في غرفة الطعام، في الغرفة الوحيدة التي تكون دافئة حتى في الشتاء. أخبرته باقتضاب بما جرى، وفيما ذهبت لقطع القليل من الحطب، تركت له الكراس الأول «خذ، تسلى بهذا. ستفهم...». عند عودتي، وجدت الكراس على الطاولة، مقلوباً، وكأنه رماه بتقزز. وقرأت استهجاناً على وجهه.

«ألم يعجبك؟».

تحاشى النظر إليّ، ثم التفت بكليته. وضع غليونه بين أسنانه وبصوت خفيض وإنما واضح وغاضب قليلاً، قال لي:

«إنه عمل جنوني».

صافح يدي. حاولت بشدة أن أسحبها، وأن أشرح له بأنه لم يحن بعد وقت العربة، لكنه حمل بعنفٍ معطفه الكبير، رماه كجناح رماديٍ على كتفيه وهرب. رأيته يمشي بخطى كبيرة ويختفي خلف أشجار الزيزفون، يهبط باتجاه بيتي– ميسنيل، على امتداد السياج. مشلحه الذي كان يطير خلفه، جعله يبدو مثل بومة.

هرولت للاختباء في الصف الشاغر الذي سأرحل عنه قريباً، فأنا لم أتجرأ على القول لجونسون إني تلقيت في الصباح نفسه، موافقة من الأكاديمية، لنقلي إلى الجزائر. فجأة شعرت بالبرد، فانسللت إلى غرفة الطعام ولقمت الموقد بالحطب، وعلى الرغم من أن الوقت ما يزال نهاراً، فقد أشعلت

المصباح. كي أرى نفسي بشكل واضح؟ كلمة جونسون مزقت قلبي: «عمل جنونيّ»... جفلت. ربما كان محقاً. تصفحت الكرّاس الذي رماه. مدرّس يكتب أشياء كهذه، ويترك نفسه لمثل هذه النوازع الداخلية!

وجدتني فجأة أجعّد الكرّاس بيدي، أفتح الدرج، أسحب رزمة الدفاتر المكدسة وأرميها كلها في المدفأة، منقباً بغضب بالملاقط الصغيرة. بعدها ذهبت باتجاه دار البلدية، واقتربت قليلاً من أشجار الزيزفون لأتأكد من أن جونسون لم يعد. ستمطر، غيوم سود كبيرة تغطي الهضاب حيث تبدأ غابة أوريون الكبيرة على امتداد طريق بار- سور- أوب في بريان- لو- شات، والتي تمر عبر بوسانكور. ناديت جونسون بصوت خفيض وكأنه قادر على سماعي واستدرت. يمكن رؤية مصباحي مضاءً، والناس في الأسفل قد يتساءلون ما الذي أصابني، أو ربما، لم تعد إجيني إلى منزلها الزوجي. حسناً، حسناً! ها أنا هنا أبدأ من جديد.

المدوّنة الثالثة

لوحة عن حياة مدرّس في قرية في فرنسا. ذكرى العفة المنزلية للدلفين في حين تذهب إجيني إلى القرية وتعود متأخرةً مع هدايا غير ضرورية، كما تشتري بيانو.

أيقظني عبق القهوة.

نظرت إلى ساعتي على الكرسي: إنها التاسعة. للحظة حسبت نفسي في أركونفيل، حيث كانت دلفين تفيق قبلي. في البداية كنت أنا من يحضر الإفطار في السرير لإجيني. لقد دللتها، وأظهرت لها كم تأسرني. وعندما تنبهت إلى أنها ليست جيدة سوى في ذلك، أي في السرير، كان الوقت قد تأخراً كثيراً. لماذا فُتنتُ بها إلى هذه الدرجة؟ بأي سحرٍ حصل ذلك؟ أنا الرجل النظامي المنهجي الذي يشمئز من الغبار والفوضى والشجار، كيف تحملت القذارة التي خلفتها في منزلي؟ كانت تتسلى برؤية الاستهجان على وجهي عند عودتي من المدرسة لأرى أن شيئاً لم يجهز بعد والمنزل غارق في الفوضى والسرير بلا ترتيب، ولم يتم بعد حتى تسخين أي طبق. لا بل أباغتها في الغرفة وهي تتبرج. تبتسم لي في المرآة مع حركة مط شفتين لا أستطيع مقاومتها.

«لا تغضب حبيبي، لقد انتهيت. وستتم خدمتك، بما أنه يحب ذلك، فالسيد ستتم خدمته» تقول ذلك مقطّعةً الكلام.

تدنو مني، فأشعر أنني فقدت جميع أسلحتي. يتبخر غضبي، واستبدل خيبة الأمل بالاستسلام. وأتساءل إن لم تكن السعادة فعلاً في التنازل عن

ترتيب الأشياء والتواقيت لصالح وحي اللحظة والمصادفات. تخفق البيض وتخرج قطعة من لحم الخنزير من الخزانة وتفتح قنينة نبيذٍ، إذ كان لدينا دائماً نبيذ ريسيه الوردي الذي تفضله هي.

«لا ينقصنا سوى خادمة، لتعيشين مترفةً».

كان هوسها الحصول على خادمة لأنها جاءت في البداية كخياطةٍ لتساعد دلفين. لا تترك البتة امرأة لم تبلغ بعد عمر الأربعين تدخل منزلك، حتى لو بدت خجولة وشبه خفية. إجيني، في المرة الأولى التي رأيتها فيها، لم ترفع نظرها عن ماكينة الخياطة، موحية بثقة وبراءة كبريين. قالت لي دلفين: «لقد أوصوني بهذه المرأة التي عانت الكثير». لم أعرف يوماً ما هي معاناتها بالضبط.

«لقد تركها هيدلجٌ[1] قذر»، تابعت دلفين.

لدى إجيني كان كل شيء يتركز في العينين، ليس بسبب روعتهما، فهما ليستا تلك الماستان الزرقاوان البنفسجيتان كعيني زوجة سلطان من ألف ليلة وليلة، ليس هذا أبداً. عيناها بندقيتا اللون، شديدتا الاتساع، ولكن مليئتان برقةٍ ومخملية وحرارة ما، وفي الوقت نفسه لامعتان لدرجة لا يمكن معها التحرر منهما. وستحدّث نفسك «يا إلهي، أي حرارة تخبئ هاتين العينين، أي بدائع؟». ستشعر بالرغبة في تقبيلهما وفي الغوص والضياع فيهما. هاتان العينان مع تلك البراءة في الوجه وآثار الجرح، إذن، عليك أن تؤاسيها، وتصبح أسيرها، وتجثو على ركبتيك، وتقع في غرامها.

تطلّب الأمر ثلاثة أشهر لترضخ. فمنذ نحو التسع سنوات، وأنا أعيش مع دلفين. ضجرت. عندما تتزوج بامرأة من عائلة تروسيلار، اسم طبيبٍ

(1) Hidalgo هيدلج أي من النبلاء الإسبان.

جراح، يا للقدر! حققت شهرة في امتحانات الثانوية، فكل الطلاب الذين علمتهم نجحوا، تمتعت بهيبة كبيرة كمدرّس، كانوا يستشيرونني في كل شيء، في حين تضخمت دلفين، صنعت حياة رتيبة خالية من المفاجآت، رعت بعناية ابننا روبير، كانت طيبة، مقتصدة، دون غنجٍ أو طموح، وقد تمكنا من توفير بعض المال. كانت عمياء إذ فرحت بتحولي إلى رجلِ بيت. في العادة عند نهاية اليوم، وعندما تنتهي الدروس، أخرج إلى القرية مستمتعاً بتبادل الحديث مع أهل الطلبة، ويوم الخميس أذهب لزيارة زميل في الجوار، أذهب راجلاً حاملاً العصا بيدي. وأحياناً أعود متأخراً.

بدأت إجيني أعمال الخياطة لدينا يوم خميس، لأني عادةً أخرج في هذا اليوم من المنزل. أعود للغداء، وأجلس لأدخن وأنا أراقبها. ما عدنا نتبادل الحديث أنا وزوجتي، ما عاد لدينا الكثير لقوله في الوقت الذي لم أكن أتوقف فيه عن الكلام، في حاجة دائمة لأن أكون لامعاً. مزاجي الرائق كان يدفع دلفين إلى التبسّم. وأعتقد أن ذلك كان يدهش إجيني. باختصار، صرت لا أخرج من البيت يوم الخميس. ولم يطل الأمر حتى بدأت النميمة، طائر التدرج الهائل الشارد هذا في قنّنا. بدأ مزاجي يسوء وبدأت أتوتر وأنتظر يوم الخميس كالعيد. وعندما تذهب أشعر بالإرباك ويصيبني شعور مفاجئ بالفراغ: مثل ثورٍ يخفض جبهته ويضرب الأرض بحوافره، حيال شعوره بالتهديد. في النهاية، تمكنت في إحدى الليالي من اللقاء بها.

في البداية قاومت، وهذا ما زاد لهفتي، ثم استسلمت للحب الذي دمرني وانفجرت الفضيحة. هذا ما يحصل أحياناً. في هذه الحالة، على المدرّس أن يترك وظيفته. استغللت العطلة الكبيرة لإتمام معاملات

الطلاق، كما أعيد تعييني على بعد عشرين كيلومتر من هنا، في الوادي، في لاجيبيري، وسجلت روبير في المدرسة الداخلية في بار– سور– أوب. وبعدها بقليل تزوجت من إجيني. معها، اتخذت لنفسي منهجاً جديداً في الحياة، او بالأحرى تعلمته. أعترف، في السرير، جعلتني أكثر طاقةً، أعادت إليّ حماسةً كنت أحسبها جفّت. وجدت نفسي في كل مساء أغرق في متعة مدمرة.

في بداية انتقالنا إلى لاجيبري، كانت ساعة الحائط التي ركزناها في سقف منزلنا مع قبة صغيرة مسنونة وإطار مزدوج، واحد لجهة الغرب والوادي المسطّح والآخر لجهة الشرق والغابة والمستنقع، تجعلنا نرتعب مع دقاتها التي تكررها بفارق دقيقتين كل مرة. محركها الذي كنت أنزله ثم أعيده كل أحد إلى موضعه في السقيفة أسفل غرفة نومنا في الطابق الأول، كان يجعل السقف يرتجّ عندما يدق لثلاث مرات كلّ ساعة. تبدأ العملية بصوت مكتومٍ ثم يكون هناك دوران حتى ترتطم المطرقة بالجرس. يتردد الصوت في القرية: صوتٌ متصدع، رهيب حاد، كضربة سيف فارس الآلام. في النهار يختلط هذا الضجيج بأصوات الحياة، ولكن في الليل... تضع إجيني يديها على قلبها مرتعبةً. منغمسين في الليل وفي واحدنا الآخر، اعتدنا بسرعة على الصوت، وما عدت أسمع سوى هدير نهري الداخلي، وأحياناً صوت خوارٍ آتٍ من الإصطبلات، في البعيد.

ظننت نفسي سعيداً. كنت سعيداً حقاً.

حوالي الساعة السابعة أخرج من سباتي، أعد ضربات الجرس وأتحرك. تتثاءب إجيني وتتأوه. يستولي عليّ هم النهار. أنفصل عنها وأنهض. في المطبخ، أدفع بالأطباق المتسخة جانباً، أشعل موقد الغاز وأعدّ القهوة. في

البداية كنت أحملها لها، ثم اعتدت أن أشربها لوحدي، لأنه كان يحصل أحياناً أن أعود من الصف الصباحي عند الحادية عشر فأجدها ما زالت في السرير. لا تكون نائمة، بل متكاسلة، مستغرقةً في أحلام اليقظة. وهذا ما كان يغيظني. بدأت تعاودني أفكار مريرة. أبدأ بالتمتمة، افتح النافذة، أضرب الباب بعنف، وأنزل إلى الطابق السفلي في غرفة الطعام منتظراً ظهورها.

هنا بدأت مشاجراتنا الجدية، أحرد وأدخل في الصمت، غضب يجعلني أطيح ما على الطاولة بضربة واحدةٍ، رامياً الصحون المنسية عليها. فتجلس إجيني باكيةً. دموعها كانت تجرحني كما الخنجر. «إذن، ما عدت روحك؟...»، تقول لي بصوتٍ مكسور، إذ كنت قد وجدت تصغيراً لاسمها «مون جيني»[1]، آه، أجل، روح جميلة، روح عظيمة...

كل صباحٍ، وبسبب القهوة، عدت أفكر بدلفين. قلت لنفسي إنها كانت بلا عيوب. بالعكس، كان لديها الكثير من المزايا التي يطلبها الرجال: الخضوع، الطيبة، الإخلاص، إدارتها المنزل، رعايتها لابنها، مهارتها في الطبخ، لا تتذمر أبداً ولا تشتكي أبداً. ولكن فقط، عندما انفجرت إجيني مثل قنبلةٍ في حياتي وقلت لنفسي إنني وجدت الحب، تغير كل شيء.

لم أكن مخطئاً. ومن دون شك، كانت هي جديةً... هي التي دفعتني لكي أطلق وأتزوج ثانيةً. «هل تريد أن تتزوج الآنسة ساروت، إجيني الحاضرة هنا؟...»، لم تكن في فستانٍ أبيض ولكن بلباس لائق.

في إحدى الأيام، ذات أربعاءٍ في ديسمبر، كما أذكر، وقد مضى على

---

(1) Mon genie بالفرنسية «genie» تعني الروح.

زواجنا ثلاثة أشهر، حدث أني لم أسمع أي حركة في العلية. وجدت ورقة على طاولة الطعام بالقرب من زبديتي التي بقيت في مكانها مع فتات خبزٍ: «أنا ذاهبة إلى بار– سور– أوب للتسوق».

في البداية، سيطر عليّ الغضب. مشتريات، في الوقت الذي نعاني فيه لنسدد أبسط حاجياتنا؟ أي نوع من المشتريات؟ للمنزل؟ لها؟ طالما أرادت سخاناً آخر للقهوة أكثر عمليةً، ومدفأة في الرواق. ما زلنا في بداية الشهر وقد أخطأت في إعطائها كل راتبي: مائة فرنك. أعرف رغبتها في الفخامة، كل شيء ممكن: اشترت أجمل وأغلى ما يمكن. من يعلم بمَ ستعود؟ ستائر ربما، فهي تشتكي من عدم وجود ستارة في غرفة الطعام، وكنبة، يلزمها كنبة هذه السيدة، لا لكي تجلس ورتق الثياب بل لكي تقرأ الجريدة. إذ كانت تأسف لعدم وجود خياطات في المنطقة. فهذه الماركيزة كانت تريد حياة القصور.

أكلت قطعة نقانق، وفتحت مرطبان مربى البرقوق من أيام دلفين. ها، لقد نسيت هذا، مربيات دلفين. وماذا لو أوقعتنا إجيني في الدين؟ فهي زوجة مدرّس وفي المنطقة اسم ديماتون معروف. التقسيط هذا هو السبب الذي دفعها لاختيار بار– سور– أوب. والدي، هذا الرجل القاسي، سيشعر بالخزي وسيكتب لي يسألني عن السبب أو قد يستدعيني إلى لافينيي والتي أصبح فيها رئيس البلدية بعد تقاعده. أنا أخاطر بأن أكون سبباً لعاره.

حافلة البريد ستمر مرة أخرى عند الرابعة، في الاتجاه المعاكس. في هذا اليوم، وبعد أن صرفت طلابي الكسالى جلست أمام نافذة غرفة الطعام حيث أستطيع رؤية الطريق التي تصعد من بيتي – منسيل. لا أحد. من

وقت لآخر كنت أصل حتى التقاطع الثاني القائم تحت أشجار الزيزفون الكبيرة، في أعلى الشاطئ. الطقس يوحي بأنها ستثلج، بدأت أشعر بالقلق.

عادت بعد هبوط الظلام، بعد مرور خمس ساعات. سمعت الباب يفتح.

«أنت هنا؟».

أشعلت الفرن كي أتدفا ثم جسلت دون حراك مدخناً غليوني بغضب.

«تعال وانظر ماذا أحضرت. ألست غاضباً؟ فعلت ذلك من أجلك كي تشعر بالراحة في منزلك بالقرب من زوجتك. أنا أعرفك، أنت أمير...».

راحت تداهنني حتى تمكنت من السيطرة عليّ.

«أكنت تنتظرني في الظلام؟ أأنت غاضب؟».

أشعلت المصباح، كانت تحمل رزمتين كبيرتين خفيفتين جداً.

«سيرسلون الباقي غداً».

كنت محقاً، إنها ستائر بيج، حريرية، لابدّ من أنها كلفتنا ثروة، تمتمت. وقماش أورغندي للنوافذ أيضاً.

«وأيضاً ربطة عنقٍ لك، وأوشحة حريرية أيضاً. خذ انظر».

لم أكن بحاجة إليها ولكنها أعجبتني، فأمير وسيم مثلي ينبغي أن تكون لديه ربطات عنقٍ وأوشحة حريرية.

«ثم أنني لم أستطع مقاومتها. كان هناك عرض رائع عليها...».

ترددت، وكأنها كانت تنبهت لعدم جدوى الشيء.

«بيانو».

أحسست بالذهول يخنقني، ثم انفجرت:

ماذا تظنين بأننا سنفعل بالبيانو؟ أسبق ورأيتِ بيانو في منزل مدرّس؟

حبيبي، كانت فرصة، وبثمن زهيدٍ جداً: عشر فرنكات في الشهر. يمكنك أن تسمعني أعزف من صفك. وعندما تعود، سأعزف لك، أنا لا أجيد العزف ولكني رأيت كتباً عند البائع لشوبان وبيتهوفن، أو ربما ومن أجل أجواء الفرح التي تفضلها وقت الكرز...

مدفأة للرواق كانت لتكون مفيدة. يمكن أن تنفع لشيء ما، أن تنشر الدفء في المنزل إن أشعلت لأربع وعشرين ساعة. كان يمكنني أن أتسامح مع الأمر لو أنها اشترت المدفأة، ولكن بيانو من أجل الإبهار! كما ستحتاج إلى مدرّس موسيقى.

«المدفأة، يمكننا أن نرجئها. لا أريد أن أفلسك. لا بأس، إذا شعرت بالبرد فستدفئني».

وكأنها طعنتني بالخنجر. أجبرت نفسي على الاستمرار في لعب دور الغاضب.

«ودروسك، من سيعطيك إياها؟».

عليها أن تذهب إلى بار– سور– أوب مرتين في الأسبوع في الوقت الذي أكدح فيه، وفي ما تبقى من الوقت، ستصمّ أذنيّ بالألحان والنوتات الناشزة. شعرت بالعجز.

– والمنزل إجيني؟ هل تعتقدين أننا سنأكل البيانو.

– كل شيء سيتغير من أجلك. ستستمع إلى الموسيقى، وستكون سعيداً، زوجتك ستصبح فنانة، سترى...

صعدت إلى الغرفة لتخلع معطفها وقبعتها، ونزلت هرولةً، أشعلت مصباحاً آخر ووضعته على طاولة المطبخ، ورمت المعكرونة في الماء المغلي، وخفقت البيض. فيما أضع رأسي بين يدي، كنت مشوشاً.

بأي سحرٍ أطفأت غضبي؟ العودة من المدينة مع بيانو! عشرة فرنكات في الشهر: عُشر ما أجني. هذا بالإضافة إلى ما كنت أخشاه. تنهدت وأخرجت ساعتي.

- هل تأخرت حافلة البريد؟

- لقد اعتقدت أنني لن أصل أبداً وفكرت بأنك ستقلق.

- لكانوا اصطحبوك في عربة، وكنت لأسمع هدير سيارة تتوقف أمام المنزل. ورأيت ميلورد[1] يساعدك على النزول...

- ماذا يخيل لك؟

- لا شيء، إنها الحياة. لو كنت غنياً ومررت أمامي...

- تخطفني؟

قهقهت، وملأت لي كاساً ورمقتني بدفء. الرحلة أعطتها لا أعرف، شيئاً ما جديداً ومثيراً لا أعرف ما هو. داعبت خدي.

«هذا عظيم، إنه غيّور».

تعجلت في النوم، لأراها تخلع ثيابها، وتخرج من هذا الفستان الذي يظهر قامتها ممشوقة، والذي يصل حتى كاحليها ويضغط على صدرها، ثم تنضم لي عاريةً. خيّل لي بأني سأفقدها وبأنه سيكون علي البحث عنها.

«عندما ترى، ستعرف لماذا لم يكن بإمكاني أن أقاوم، إنه شغف البيانو، فاتن، مرهف، بيانو للمساء، يكاد يكون قيثارة. الأصابع تجد

(1) ميلورد هو رجل إنكليزي كريم المحتد، أو رجل غني جداً وأنيق جداً.

طريقها بنفسها على مفاتيح البيانو، الصوت ناعم مخملي».

قلت لنفسي إنه يمكننا أن نقتصد في الوقود، فلما سنحتاج إلى هذا القدر من الإضاءة، وفي الصحف والتبغ والملبس، ويمكنني حينئذ أن أوفر عشرة فرنكاتٍ. المدفأة سننشتريها في العام القادم: سيكون علينا شراء الفحم وستقدم لي البلدية كل ما أحتاج إليه من الحطب. وطلبتي المغفلون، لماذا لا آخذ منهم بعض البنسات؟ ربطات العنق والأوشحة الحريرية والستائر ستترك فجوة في ميزانية الشهر. كنت حساساً إزاء الفكرة التي شكلتها إجيني عن شخصيتي.

واليوم أتساءل، إن لم أكن عادلاً بالنسبة إليها. كانت تتمتع بكل ما يسبب المتعة والتوتر والغضب ولكن أيضاً السكينة، تلك الكلمات المعسولة. فهي تتكلم جيداً، في حين أن دلفين كانت كالبقرة تجتر لاعقةً من وقت لآخر عجلها. مع إجيني نرى الأشياء تكبر وتتحرك، تفتح أمامنا سماء الفجر، أمل يكفي أن نندفع باتجاهه، مثل الجزائر بالنسبة إلي. فأنا أصدق تمنياتها لي بالسعادة والنجاح. وإن كانت محتالة، فهذا نابع من البراءة، فهي تبحر عبر الأوهام. قبل أن أصل إلى هنا، كنت أجهل ما تعنيه هذه الكلمة. لقد علمتني اياها سانت – إيمي – لا – جديوية. على بعد خمسة عشر كيلومتراً من البلدة، باتجاه الغرب، عندما نسلك الطريق باتجاه سبخة بن زيان، هناك نوع من المنخفض ما بين وادي الشلف وجبال الونشريس، امتداد فسيح من الرمل والسماء يحيط بسكة حديد وهران في السهل الجاف الحار جداً، دون شجرةٍ واحدة. في المرة الأولى التي اصطحبت فيها روبير في عربة أحد المستوطنين، خدعت مثل الجميع. وجدت نفسي أتقدم إلى جنةٍ من المياه الجارية، والقصب والعذوبة.

«ما هذا؟ لم تقل لي...».

الناس هنا حصلوا على الكثير من العجائب لحد أني اعتقدت بأني حصلت على واحدة لي، بحيرة اصطناعية وغابات ومراكب. وتساءلت لماذا بنوا القرية فوق هذا الصلصال الحار جداً والمتشقق، بعيداً جداً من هنا. لماذا يحرمون أنفسهم من هذه الظلال؟ قال لي الرجل وهو يشد الرسن على أرداف الجياد:

«هذا لا شيء، إنه سراب، هواء، ذهب مزيف».

تنحنحت كي أدعي تمرير ذلك، ولأبرهن لروبير أن هذه هي الحياة، ندعي بأننا نتقدم باتجاه البيرو[1] سابحين في النعم، نتلوث، وكحمامات نبدأ بخبط أجنحتنا أمام الخدعة. ها، كانت لإجيني هذه الموهبة، تحكي فتظهر الواحة، نقترب فيختفي كل شيء.

وعلى الرغم من ذلك، فهذا المساء، وعندما لمست ربطات العنق والأوشحة، حلمت بالثروة. لم أسمع دقات الساعة. تعجلت لإنهاء حمامي ولأصعد لانتظارها. حتى إنني مازحتها لكونها لم تغسل الأطباق، قلت لها: «اتركيها...». كما لو أنه خطر لها أساساً فكرة غسلها. بدأت تتساقط ندف الثلج وقد تجلدت الأغطية. في هذا الفصل، كانت دلفين تضع تحت اللحاف دائماً أكياساً حارة. أما إجيني فهي مدفأتي وجمري.

(1) Perou هي بلاد تقع غرب أميركا الجنوبية، وتطل على المحيط الهادئ وذات طبيعة خلابة.

المدوّنة الرابعة

المدرّس ليس بحاجة إلى بيانو. كيف تسببت نار الغيرة بطلاقه ثانية، وذهابه وحيداً إلى الجزائر.

أفيق ليلاً. تكون نائمةً، رأسها على كتفي، وشعرها منشور فوق اللحاف كموجة من السعادة. شعرت فجأة بالتيقّظ على الرغم من أنني ما زلت في السرير، في المكان الوحيد الذي أحاول فيه الامتناع عن التفكير. عشرة فرنكات في الشهر، لم تخبرني كم سيستمر التقسيط. بيانو وموسيقى وكنبة في حين أن ملابس روبير رثة مهترئة... عندما تصل العربة، لن أدعهم ينزلون البيانو. سأعيد إرساله. «كان خطأ، لقد أخطأت امرأتي. سنسوي موضوع المال معكم...» والكنبة أيضاً سأرجئها لوقتٍ لاحق. ألتصق بإجيني شاعراً ببعض الخزي، فالصور تحاصرني عن مرافقٍ يفتح لها باب اللندوية[1] ثم يقدم لها الشمبانيا والفرنيات[2]، ويغني لها أغنية رومانسية ويقبل يدها. ألم يعطها هذا الشراء حجة للعودة إلى بار– سور– أوب؟ لا، لن يكون هناك بيانو. هل سبق وحصل أن شهد منزل مدرسٍ حصص تعليم على البيانو؟

في هذه اللحظة فكرت أيضاً بجونسون. فأنا أحبه فعلاً، وسعدت لرؤيته ثانية في باسونكور. يزورني عادة بعد ظهر الخميس، لم أرَ يوماً البهجة على وجهه. يدخن الغليون بكل كياسة وبلا توقف ولا يتحدث

(1) اللندوية عربة بأربع عجلات.

(2) الفرنيات هو ما يعرف بالفرنسية بـ prtits four والذي يسميه العرب في عاميتهم أيضاً بيي فور نقلاً عن الفرنسية.

إلا عن التعليم والأساليب الجديدة والنتائج. يريد أن يصبح مدرّس ثانوية، ويدفعني لذلك أيضاً. «أليس كذلك سيدتي؟» كان يحب أحياناً أن يؤكد. تفاجأت به يوماً يرميها بنظرة كضربة رمحٍ، متأملاً غرتها وخصلة متفلتة مغرية على جبينها. كل من يقترب من إجيني يعشقها فلمَ يكون هو استثناءً؟ إنه يقاوم ذلك ولكنه ربما يحلم بها.

تجمد عقلي للحظة. هذا الصباح بالتحديد تلقيت موافقة بالنقل إلى الجزائر مع محفزات: ما يوازي دخل ربع مستوطن، صفوف أقل اكتظاظاً، ومسؤوليات أكبر، ووعد بترقية أسرع، حياة أقل كلفة وطقس فاتن. لكل الفصول الصيغة نفسها، وهذا ما يغريني. أن أنهي حياتي مدرساً ولكن ليس في أوب[1]. أن أقطع الصلة مع هذه السنين العِشر مع أركونفيل ومع ذكرى دلفين. وإن اصطحبت معي إجيني؟ فتعويضات الانتقال يمكنها أن تسدد كل المترتبات. وسأنطلق من الصفر. وسأصبح ربما مديراً في وقت قصير جداً. الجزائر. إنها الخلاص.

دق البندول منتصف الساعة. تنهدت وعدت إلى النوم.

المدرسة تطل على الجهة الأخرى من الواجهة البحرية، لجهة الشرق وخلال فترات الاستراحة التي على الأساتذة أن يشرفوا عليها، يتسبب الفتية ببعض الضجيج... ولكن بالرغم من ذلك فقد طلبت من إجيني أن توقظني ولم أقل لها لماذا. فيوم الخميس، ومخافة أن تصل المشتريات خلال غيابي، لم أتحرك من مكاني. فالثلج الذي تساقط لم يدم سوى قليلاً ليتحسن بعدها الطقس. لا بل بدا دافئاً قياساً بهذا الفصل.

(1) أوب (Aube) هو أحد الأقسام الإدارية في فرنسا، يقع شمال غرب فرنسا في منطقة شامبانيا. سمي بهذا الاسم نسبة لنهر أوب.

عندما خرجت من الصف عند الرابعة، وقبل أن أدخل إلى غرفة الطعام، سدّت إجيني عليّ الطريق. وغطت عيني بيديها.

«لم أشأ إزعاجك حبيبي».

مسنود إلى الحائط بالقرب من النافذة: أسود لامع بخطوط مذهبة، صغير جداً في حقيقة الأمر، مع مقعد مستدير بقماش موشى ومطرز ودواستين وشمعدانين شرقيين. لم أتمكن من إخفاء ردة فعلي. أقسم أنني لو كنت موجوداً عند وصول عامل التوصيل، لكنت صرفته. وحتى إني حضرت خمسة فرنكات في جيبي لأقدمها له. ولكن ما الذي يمكنني فعله الآن؟

رفعت إجيني غطاء لوحة المفاتيح التي طبع عليها اسم البيانو، بلايال، بأحرف كبيرة مفخّمة ومذهّبة، فتحت حامل النوتات الموسيقية، ووضعت كتاباً للموسيقى للسنة الأولى، جلست أمام البيانو وبدأت بالعزف. عزف جميل! رقة الأصوات، ومخمليتها... أبديت بروداً وحيادية صارمة.

– وماذا عن دروسك؟

– لقد قلت لك، سأدرس مرتين في الأسبوع. ومن أجلك سأخفضهما إلى يومٍ واحد هو يوم الأربعاء.

في حين سأنه أنا مربيات دلفين.

صباح السبت، كما كل سبت، فتحت كتاب الدليل العملي لشهادة التدريس، على الامتحان الثالث. عنوان نص الإملاء كان: التدبير المنزلي.

«على التدبير المنزلي أن يكون واجباً محبباً بالنسبة للمرأة وأن تسعد به وتتكرس له بجدية وفرح. وألا تعتقد أبداً أن التدبير المنزلي لا يمكنه أن يقدم لها الفضائل العالية والنبيلة والمرهفة. فالتوفير، مثلاً، هو فضيلة متواضعة

جداً وشعبية جداً: لا نتباهى أبداً بها لا بل نتفاخر بعدم امتلاكها... ولكن ألا يمكن اعتبارها، بالمعنى الإيجابي، فضيلة بطولية في زمن يصعب تطبيقها في مجتمع استهلاكي...».

كنت في الجملة الأخيرة من النص غير الموقّع الذي من المفترض أنه للكاتب نفسه، السيد هاندوش، مفتش تعليم للمرحلة الإبتدائية في منطقة الشمال، ضابط التوجيه العام والحائز على وسام الاستحقاق الزراعي[1] برتبة فارس، وإذ... بطلابي اليقظين يشنفون السمع. تظاهرت بعدم سماعي وأعدت بصوتٍ أعلى: «... استنزفته المنافسة على الفخامة... ونهم حب الظهور...» عادت ريش الطلاب تصّر من جديد.

بعد ذلك، كان عليّ أن أسأل الطلاب عن كلمات جداً ومعنى النهم. في البداية مررت إجيني يدها على لوحة المفاتيح ثم... معتقدة أننا لا نسمعها؟ نوتات مضطربة تتوالى بحماقة أو تتصادم عندما يضغط إصبعها على مفتاحين في الوقت ذاته. نظر الأولاد لبعضهم بعض مبتسمين.

– ما الذي يضحكك، ديلين؟

– لست أضحك، أستاذ.

اضطررت إلى الخروج للحظات لأطلب من إجيني التوقف عن العزف، رغم أنني أفضل أن أتصرف كأن شيئاً لم يكن، لأنني أتمتع أساساً بما يكفي من السلطة لكي أضبط الصف. فهم يهابونني. لحظات قليلة وعاد

(1) وسام الاستحقاق الزراعي هو وسام تقديري، أنشأه في فرنسا العام 1883 وزير الزراعة الفرنسي حينذاك جول ميلين لمكافأة من قدموا خدمات للحقل الزراعي ولتعزيز مكانة الزراعة في الاقتصاد والوعي الفرنسيين، وقد تدرجت هذه الميدالية بدرجة الاستحقاق الذي تقدمه من خيالة، إلى ضابط ومن ثم إلى قائد. وقد قدمت هذه الميدالية أيضاً لفنانين دعموا هذا القطاع بطرق مختلفة منهم لويس باستور، ميشال سيرو، كاترين دونوف وغيرهم.

الصمت. تنفست الصعداء. كنت قد وصلت إلى السؤال الأخير.

«هوييه، أعطني مثالاً على حب الظهور».

لا أنسى ذلك قط. هوييه كان الابن البكر لزوجين شابين من مزرعة بيتي–مينسيل، المزرعة الأولى في حيّ روتيير، دائماً شارد الذهن، متوسط الذكاء، وله رأس أبيه المغفل.

– لا أعرف، أستاذ.

– فكّر.

رفع ناظريه إليّ، وكأنه يسأل المساحة الفارغة على الجدار فوق طاولتي وتمثال المسيح المصلوب الذي اكتشفته في عليتي. في هذه اللحظة استأنفت إجيني العزف. نوتتان، ثلاث، أربع اندفعت ثم تحطّمت. كززت على أسناني وأمسكت بالمسطرة مسلطاً ناظري على الطلاب. إذن ماذا عن هذه الحاجة للظهور؟

«أن نمتلك بيانو، أستاذ...».

انفجر الصف بالضحك. تجمّد جسمي، كما في ذلك المساء عندما عدت إلى منزلي وشعرت بوجود بكري. ضربت بالمسطرة على مكتبي.

«ساذجون! صرخت. البيانو، لا، ليس موضوع تباهٍ. إنه الحاجة إلى التعلم والتثقّف. الحياة ليست فقط كلمات وحروف وإنما أيضاً فنون: الرسم، الهندسة، الموسيقى، وما يمكن تعلمه من خلال باء + ألف يساوي با، خطوط ونوتات تغدو لوحات وتماثيل وسمفونيات. ماذا تعرفون عن كل هذا؟ لا شيء. لا تعيشون سوى مع حيوانات وسذج. فمن يريد أن يتخطى واقعه، ويفتح عقله على أشياء أخرى، يمكن للبيانو أن يكون وسيلة للوصول إلى مساحات ما كنتم لتطؤونها على الأرجح في حياتكم،

فقط لأن طموحكم محدود بامتلاك حقول عمل فيها آباؤكم قبلكم، وأن تضاعفوا عديد قطعانكم. ما الفرق بين العجول وبينكم؟ مضيت أقول وانا أقطّع الكلام بغضب. فالعجول لا تملك بيانو. أنتم تعرفون على الأقل كيف تنتهي العجول. فلنعد إلى الدرس».

أطرقوا رؤوسهم شاخصين في دفاترهم، دافنين فيها شعورهم بالخزي. استغللت الأمر لأخرج إلى الرواق لنيل استراحة قصيرة في غرفة الطعام في منزلي. إجيني، الجالسة على مقعد البيانو، نظرت إليّ مشدوهةً إذ قلت لها ببساطة:

«عزفك للبيانو مسموعٌ، وهو يزعجني».

يوم الأربعاء التالي، ذهبت إجيني إلى بار– سور– أوب، دون أي حماسة. في هذا اليوم، نظفت المطبخ تماماً وحضرت لي سلطة البطاطا مع ما تبقى من اللحم المسلوق الذي أحبه كثيراً. عندما حلّ المساء شعرت بالقلق، وبدأت أدور مثل دبٍ ووقفت للحظة أمام البيانو. من يدري إن لم يكن هوييه على حق، وإن لم يكن بالفعل لدي إجيني ذلك النهم للظهور؟ لماذا لم تعد بعد؟ أين تناولت غداءها؟ من رأت؟ من يعلمها الموسيقى؟ بما أنها تزعجني كما قلت لها فلن تعود. في هذه الحالة، ما كانت لتنظف المطبخ وتحضر لي الغداء، وقد تشتري شيئاً ما أيضاً للعشاء.

صعدت إلى غرفتي حاملاً الشمعة، وبحثت فوق منضدة الزينة عن قوارير الكولونيا الخاصة بها، نقبت في الخزانة. يبدو أن كل شيء ما زال في مكانه. مع دلفين، ما كنت لأعيش هذا التهديد: دائماً في الإصطبل، دلفين. امرأة مثل إجيني تشكل عالماً غامضاً بالنسبة إلي إلا انها ليست مداهنة فهي تحبني، لا يمكننا اختراع أشياءٍ كهذه، سعادتها بقربي ليست

إدعاء، ولكن هل يمكن لأحد غيري أن يقدم لها كل ما تشاء؟ فهي ضعيفة مسكونة دائماً بالأحلام. فما أحسبه نوعاً من الحدس قد يصبح حقيقة: يضحك لها، ويفتح لها باب العربة فتصعد. وأسمعه يقول لها: «أنت تتعلمين العزف، أنا لدي بيانو جميل جداً، غريب جداً». يقول لها اسم العلامة التجارية، إنها إلمانية: «تعالي جربيه، أنا متأكد من...». الحقير. تشعر بالإطراء وتعتقد نفسها قد أضحت فنانة تقدم حفلات في المدينة، يجاملونها ويصفقون لها ويقبلون يديها ويقدمون لها الشمبانيا مع الشموع والورود.

عندما دقت السابعة مساءً، رميت معطفي على كتفي وأضأت قنديلاً وخرجت. لابدّ من أنه وقع لها حادث ما. مشيت باتجاه الشاطئ، ومررت بالقرب من كنيسة بيتي منسيل والتي يحجبها سورها بالكامل ما عدا السقف فقط: كنيسة واطئة مثل معظم الكنائس في المنطقة، مع سلسلة من القرميد المسطّح الذي التوى قليلاً جراء الحمل الكبير للهيكل وجرس مربع يعلوه سنان من الحديد رمادي وأردوازي. بعض أضواء في المزارع عند التقاطع. الجميع يستعدون للنوم. ماذا سأقول لو التقيت أحداً؟ كلاب تعوي عند مروري. تقاطع روتيير يقع على بعد كيلومترين في آخر طريق بالكاد تبدو محفورة في السهل المنبسط بالكامل. لا يمكن لإجيني أن تعود سوى عبر هذه الطريق. وماذا لو لم تعد؟

عندما وصلت إلى الشارع الرئيسي، وقفت وسط الطريق شاخصاً نحو بار – سور– أوب باحثاً عن أضواء سيارةٍ ما ولم أر شيئاً، لا شيء، لا شيء، بدأت أفقد رباطة جأشي. عدت إلى المنزل مسرعاً. يمكنني إن مشيت بهذا الإيقاع مهرولاً أن أصل إلى المنزل في غضون نصف ساعة. قبل بيت بيتي

منسيل بقليل، شاهدت ضوءاً في أعلى الطريق الساحلية. أي غباءٍ! فقد صعدت الجبل بدلاً من أن أنتظر، عادت ولم تجد أحداً فأيقظت الجيران لتسألهم عني. ها أنا إيجني، ها أنا! نعيق البوم يرافقني. أسرع أيها المغفل! أبدو محترماً جداً مع مواعظي! لو رآني الطلاب ألهث بهذا الشكل...

عند منتصف المنحدر، أدركت أن الغرفة المضاءة لم تكن غرفة النوم وإنما غرفة الطعام في الطابق السفلي حيث تركت الشمعة مضاءة مثل منارةٍ حتى تتعرف السفينة على مرساها. أسرعت ودفعت الباب منادياً:

«إجيني!».

كان الدخان يتصاعد من الشمعة، المنزل فارغ، لا يمكن لهذه الاشياء أن تخطئ. صعدت السلالم مهرولاً وفتحت باب الغرفة، فعفت رائحة عطرها وليس جسدها ولا دفئها. بقيت واقفاً لبعض الوقت في العتمة، تحدوني رغبة في البكاء. ثم هبطت متمهلاً، كل درجة في السلم كانت تئن. أخفضت فتيل القنديل، ووضعت يدي على البيانو، رفعت غطاء لوحة المفاتيح التي لامست أصابعها. لقد هجرتني إجيني. لماذا؟ لماذ؟ دق الجرس دقة واحدة. نظرت إلى ساعتي: التاسعة والنصف. قلت لنفسي إنها فضلت عليّ رجل المرافقة أو أستاذ الموسيقى، وبأنها ترتمي الآن في غير ذراعيّ وتتمتم بكلماتٍ كالتي كانت تقولها لي، أدركت سخافة حياتي وغرور ما كنت أدرسه لتلامذتي: الاستقامة والوفاء للأفكار والنزاهة والتمسك بمبادئ الثورة الفرنسية؛ لقد شبهتهم بالعجول لأنهم سخروا من بيانو إجيني. كنت محطماً. كان علي الاهتمام بروبير خلال العطلة، يريد أن يذهب لرؤية أمه في أركونفيل، ماذا سأفعل بالبيانو؟

تخيلت نفسي أذهب إلى البائع في بار- سور- أوب وتخيلته يقول

لي:

«لقد جعلتك السيدة ديماتون توقع تعهداً بالشراء»، كيف سيبدو منظري حينئذ؟

لم يخطر لي أن تأخرها قد يعود لسببٍ بسيطٍ جداً أو لعائق ما سخيف. عندما تقطع زوجة مدرّس في وسط قرية ثمانية عشر كيلومتراً في الشتاء من أجل رغبة تعلّم الموسيقى ولتجعلني سعيداً، أي جنونٍ هذا!

وفجأة وجدت الحل في الذهاب إلى الجزائر، وحيداً. منذ الغد، سأعود إلى الوكيل الذي ما زال أساساً مشغولاً بطلاقي من دلفين. فعندما يتحطّم قلب المرء وهو بعد في الثلاثين لا تكون تلك نهايته. ستكلفني إجيني ثمن بيانو وسينتهي الأمر بأن تدفع ثمنه. سأحزمه حالاً مع أغراضها، لن تكون حمولة كبيرة. ولا بل أشعر بشكل ما بأني محررٌ: فهكذا يمكنني أن أؤكد لابني أنني لم أترك والدته من أجل امرأةٍ أخرى.

المرشحون لوظائف في الجزائر سينتقلون في الخامس عشر من يناير. نمت أخيراً على منظر شواطئ ذهبية، وأشجار نخيلٍ تتمايل مع الهواء.

المدوّنة الخامسة

في القطار الصغير الذي يقوده إلى الجزائر، يفكّر المدرّس بالمرأة التي يهواها، يجد في حقيبته الفطائر والبرتقال التي وضعها له السيد بكري.

في روفيغو، في الوقت الذي وصلت فيه رائحة القهوة إلى أنفي، وتساءلت أين أنا واستعدت كل ما حصل أمامي، استعدت ذكرى موردخاي بكري.

استدرت، كان باب المطبخ مغلقاً، وأنا جالس في سريري، لا أجرؤ على فتح المصاريع. هنا أساساً، عندما تضرب الشمس نبقي كل شيء مقفلاً. بقيت لبعض الوقت ثم نهضت. قال لي صباح الخير.

«هل نمت جيداً؟»، سألته.

لا بأس، ولكنني معتاد على الاستيقاظ باكراً. أرجو ألا أكون قد أحدثت الكثير من الضجة؟ لقد حضرت لك القهوة. ولا أخفي عنك بأني شربت أنا أيضاً.

عثر على الموقد والغلاية وعلبة البن والفناجين. كان وجهه مضاءً بالكامل. فهذا يدل المشهد عن إجيني وجونسون. أي انتقال مفاجئ منذ لا جيبري[1]!

أطريت على قهوته.

«لدينا طريقتنا في إعداد القهوة، سأعلمك إياها ثم سأجلب لك من

(1) Giberie منطقة في فرنسا.

قهوتي الخاصة والتي تأتي من أميركا».

على أمل لقاء ماتيلد مرةً أخرى، قررت الذهاب إلى الجزائر، عندما دعاني الكولونيل غربيه. لم يشك أحد بوجود بكري. فإن رغب بالرحيل يمكنه ذلك. دسست المفتاح تحت المصاريع. استقللت قطار الظهر. هناك ثلاثة قطارات في اليوم، وكنا ما زلنا في الدوام الشتوي. مع التوقف المتكرر والتبديلات في ساحة العمال، سيلزمنا نحو الساعتين للوصول إلى الجزائر.

طوال فترة إقامته عندي، أبدى بكري كما كل الناس هنا، حسن الضيافة. يحاول استنباط الطرق لينسيني وجوده الذي يحسبه مزعجاً. فقد أجبرني مرة على تذوق واحدة من فطائره. وجدتها لذيذة جداً مع القهوة وما قلته أفرحه جداً فقال لي:

«زوجتي هي من أعدتها لي قبل مجيئي».

وجدتها خفيفة طرية.

«إنها من الخبز الفطير، أنت تعرفه، بلا خميرة، لم أذق خبزاً أفضل منه».

كنت في حصة الرياضيات مع تلاميذي الكسولين، صبيحة الليلة الرهيبة، أنهي عملية حسابية على اللوح، وحتى إني أتذكر ما هي: «بعد أن باع التاجر ثلث برميل النبيذ بـ 0,35 فرنكاً لليتر الواحد، باع الباقي بـ 0,40 فرنكاً، ليحصل في المجموع على اثني عشر فرنكاً، فما هي سعة البرميل؟»، كنت أكتب السطر الأخير عندما فتح الباب وظهرت إجيني، رميت علبة الطبشور وتركت شياطيني الثلاثة يتدبرون أمرهم من دوني.

بدت مهزومة جداً ومهجورة. خبأت وجهها في صدري.

«سامحني حبيبي، هل قلقت كثيراً؟».

لم أجب. لقد فاتتها ببساطة حافلة البريد. عندما أفقت في ذلك الصباح قلت لنفسي إنها لو عادت فسأرميها خارجاً. عندما كانت تحدثني، أبديت لا مبالاةٍ كاملة ثم لعبت دور الزوج الغاضب. حاولت أن أخفي عنها كم أن رجوعها أعاد لي الحياة وغمرني بالسعادة. رفعت إليّ عيناها المليئتان بالدمع.

عدت بسرعة لأرى ما توصل إليه طلبتي من حلول. لم يكن عسيراً: البرميل يحتوي على 360 ليتراً. يبدو أنهم مرحوا كثيراً في غيابي، وكان من الصعب عليهم أن يخفوا حشريتهم. هل شاهدوني أركض في الطرقات في منتصف الليل؟ تعجلت في صرفهم.

سألتني إجيني ماذا تعشيت وغمرتني بعناقاتها. كذبت عليها وقلت لها إنني تعشيت مما بقي من الغداء.

– أنمت جيداً؟

– أجل، أجل، نمت جيداً.

– وأنت؟ سألتها بقسوة.

– آه أنا عندما رأيت حافلة البريد، ركضت كالمجنونة، بحثت عن عربة لألحق بها. لم يكن هناك أي عربة. ولا يمكنني على أية حال أن أستقل عربةً. مع مسافةٍ كهذه، كنت ستغضب مني. عدت إلى المدرّس، أردت الذهاب إلى الفندق، أصرّت زوجته على أن أبيت عندهم وقدمت لي غرفة ابنها الغائب في المدرسة الداخلية. السرير ضيق قليلاً وقد اشتقت إليك. كيف كان بإمكاني أن أخبرك؟ لو فقط كان لدى البلدية هاتف، ففي بعض الحالات يكون ذلك ضرورياً.

فنحن متفاهمان وقد اعتقدت بأنك ستنتظرني متعقلاً.

هل تقول الحقيقة؟ في المساء عزف المدرّس مقطوعات لمؤلف ألماني، يوهان برامز، الذي سمعت اسمه للمرة الأولى و«ليست» أيضاً.

«إنه لبديع. فعندما سأتوصل للعزف بهذه الطريقة، ستسمعني لساعات. أي سحر! ولكني لا أعرف إن كان البيانو الذي اشتريناه مناسب فهو للمبتدئين».

شعرت أنني أعيش كابوساً. تساءلت في سري، إن كان قد أعجبها أمر الخروج من المنزل فكيف يمكن منعها بعد ذلك؟ سأحطم البيانو وأحرقه. شعاع الشمس أضاء الصباح، أما هي فقد بدأت تروح وتغدو في المنزل مرتبة كل شيء، طلبت مني أن أشعل الفرن، استغللت الأمر كي أراقبها بشكل أفضل. ألم تتنبه بعد؟ لم تعرف بأي حالةٍ أغرقني رحيلها.

وصل جونسون مبكراً جداً، توقف أمام البيانو يتأمله بإعجاب، ورمقني بنظرة جانبية، وقال بنبرة ساخرة: «إنها بداية العزّ يا عزيزي».

شعرت بنوع من التواطؤ بينها وبين جونسون. قد أكون مخطئاً. أحياناً، عندما تجيل بصرك في الجبل أو حتى هكذا بالصدفة، تحدث التماعات خاطفة، انعكاس شمس على ماكينة أو أداةٍ أو على زجاج عربة. نبحث عن الالتماعة إلا أنها لا تحدث مرة أخرى. أغرتني فكرة الانفراد بجونسون والاعتراف بأني فكرت بالذهاب إليه في منتصف الليل. على الرغم من بروده وانطوائيته اللذين أعرفهما، كان من الممكن أن يفضح نفسه. فكرت بأنه لم يأتِ في هذا اليوم بالذات إلا لكي يبدد شكوكي. في النهاية، هو عازب، كيف يمكنه رفض هدية كهذه تكسر جمود حياته والرائحة الحادة لحظائر الخنازير والإصطبلات؟ وأكثر من ذلك، لا يبدو

عليه السكون، شيء ما يتآكله. أهي الحماسة فحسب، كما تقول إجيني؟

– قل لي سيد بكري، هل تعرف من هو المؤلف الموسيقى برامز؟
– أعرف هذا الاسم، إنه ألماني كما أظن.
– أليس يهودياً؟
– ربما. فاليهود قدموا الكثير من الموسيقيين. في أوركسترا المسرح البلدي في الجزائر، هناك الكثير من اليهود، قديماً...
– والآن؟
– طردوهم، تخيّل. مع رئيس بلديةٍ مثل ماكس رِجيه...
– إلى هذا الحد؟
– لم تعش سوى قليلاً في الجزائر سيد ديماتون...

لم يكن ممكناً تغيير إجيني، فقد عادت إلى بار– سور– أوب. هذه المرة، وعلى الرغم من أنها عادت في الليلة نفسها، فقد غضبت ومنعتها من التحرك من دوني. أخذت تشهق بالبكاء، وهددتني بأن ترمي نفسها في البحيرة. كنت مغتاظاً، فتحت لها الباب على مصراعيه.

«هيا اذهبي الآن».

نظرت إليّ بأسى.

تلك الليلة وفي السرير، انزوى كل منا في جانب. وعلى الرغم من أننا أفقنا في اليوم الثاني متعانقين، إلا أن حزناً ثقيلاً بقي يخيم بيننا. لم تعد إجيني تلمس البيانو الذي أمسى كالنعش مركوناً، مع أنني كنت أرغب في معرفة ما تعلمته فعلاً خلال حصتين.

في اليوم الأول من العطلة، ذهبنا سوياً إلى بار– سور– أوب. هي إلى

درسها الموسيقي وأنا لزيارة روبير في المدرسة واصطحابه في نزهة. وهناك أخبرني بحصوله على علامات جيدة وعلى رضا أساتذته كما التقيت المدير الذي أطرى عليّ. خرجنا للغداء أنا وروبير وجلسنا على مقعد في الجادة، نتناول الخبز والنقانق. كنت قد راسلت أمه أخبرها بأنه سيقضي عيدي الميلاد ورأس السنة معها، وعلى أية حالٍ هو لا يبدي حماسةً للعطَل. في التاسعة من عمره، لقد أصبح رجلاً. قلت له إنني قد أصطحبه معي إلى الجزائر ولكن عليه إبقاء ذلك سراً بينهما.

– هل ستحضرالبيانو إلى الجزائر؟

– إن ذهبنا إلى الجزائر سنذهب أنا وأنت وحدنا أنا.

نظر إليّ بجدية ثم هز رأسه قليلاً كإشارة موافقة.

هو لا يشبهني سوى في القامة. له خطوط الوجه الجميلة نفسها لأسلافه موِيفير الذين أتحدر منهم لجهة الأم، وشعر أصهب متوهج.

مرّرت يدي على شعره الكثيف.

– ألا يزعجونك مع هذا الشعر؟

– أعرف كيف أجعلهم يحترمون ذلك.

التقينا إجيني أمام المقهى من حيث تستقل عربة البريد. حملت معي كل مدخراتي؛ خمسون فرنكاً لم أحدثها عنها إذ لم أشأ دفعها ثمناً للبيانو. اشتريت الهدايا لروبير. ليس بالشيء العظيم: ثلاث ألواح من الشوكولا والبونبون وحذاء جديد بدلاً من حذائه الرث، ولإجيني اشتريت معطفاً بيتياً من الساتان الرمادي المبطن.

وصلنا نحن الثلاثة إلى لا جيري. وجود روبير أشعرني وكأن أمه عادت لتسكن معنا دون أن تكون مفيدة، للأسف، فقط لكي تتفرج

علينا. روبير كان بمثابة وخز للضمير. لقد عودته دلفين على رعاية يفتقدها الآن، لذا فهو يبدو ضجراً. من أجل عيد الميلاد، طلبت من إجيني أن تعد طبق خضار مع الملفوف بشحم الخنزير. لا قداس بالطبع. فمدرّس علماني لا يذهب إلى القداس. كل يعتبر سيداً في داره: الكاهن في كنيسته، المدرّس في مدرسته. أجل ولكن ليل الرابع والعشرين من ديسمبر، من الذي يزور المواقد، بابا نويل أم السيد المسيح؟ لا هذا ولا ذاك يملكان العصا السحرية في هذا اليوم: الأغنياء يبقون أغنياء والفقراء...

في حذائي، وجدت غليوناً رائعاً على شكل سفينة، ضخماً أشقر بلون شعر إجيني، وبالتأكيد كلفني ثروة. كما أنه تلزمه علبة كاملة من التبغ لحشوه.

هذا الصباح، روبير هو من فتح البيانو، وراح يجرّب بعض النوتات، اعتقدت أنها إجيني فركضت فرحاً. أجل، فبعد لعن هذه الآلة، كنت أتمنى أن أرى إجيني تعود إليها. ظهرت هي أيضاً. كان يجدر بها أن تحث روبير على الجلوس أمام لوحة المفاتيح وتعلمه بدورها ما تعلمته هي، وكم كان سيسعدني ذلك، ولكنت حلمت بروبير موسيقياً كبيراً كبرامز، وكان البيانو لأعاد بناء عائلتي. أي امرأة كانت لتفعل ذلك. غير انها لم تكن خبيثة، أو أنني أصبحت ربما مضلّلاً بالكامل، لم تستطع تحمل ابني ولم ترغب بلا شك أن يكون ابننا. ففخر إنتاجنا المشترك برأيها هو هذه الكلمة الهزلية، إن جيني[1]. على أي أساس؟ العبقري ينبت حيث تتوافر له الظروف، فليس هناك بذور للعبقرية هنا ولا يمكن اختراعها وليس هناك من وصفةٍ جاهزة لها.

(1) Un genie أي عبقري وذلك في تطابق لفظي مع اسم إجيني (Eugenie).

أغلقت إجيني غطاء البيانو: «أبوك لا يحب ذلك».

في اليوم التالي، عندما عاد روبير إلى مدرسته، رأيته عبر زجاج العربة يبكي.

في القطار المحلي المترجرج، وعند أسفل الهضاب على طول الطريق إلى لاربعاء، مررنا بعربات ودراجات ثلاثية العجلات. في العادة يوقف السائقون الخيول، وينزل بعضهم ليمسكوا بالرسن جيداً حتى لا تنتفض الخيول خوفاً من صفير القطار. يكمل الدرّاجون طريقهم وهم يلوحون لنا. هذه المرة، شعرت ببعض السعادة وأنا أفكر بإجيني. نعم لقد تحررت ولكن عما أبحث في انتقالي هذا؟ في البداية أدارت الجزائر رأسي ثم صدمتني.

تحمل روبير ذلك كله بصورة أفضل مني. يا له من ولدٍ مسكين! لقد خرج من سانت- إيمي- لا- جديوية ضعيفاً كظل حتى إن شعره بدا شائباً. قاومت من نهاية أبريل حتى نهاية الدروس في الرابع عشر من يوليو 1899. هنا انهرت، إذ أفرغ الإسهال جسمي وهزمني التيفوئيد والملاريا. نقلني المفتش إلى مستشفى سيدي بلعباس وهناك ما عاد عليّ أن أطبخ، وأي طبخٍ: بعض قطعٍ من اللحم في حساء اللفت! كيف يمكنني أن أدفع لخادمة حتى لو كانت جزائرية؟ الخمسة وعشرون فرنكاً التي عليّ إرسالها شهرياً إلى إجيني تجردني من المال. في سيدي بلعباس، تعرف روبير على أصدقاء كما أحبه المدير العام في المرحلة الابتدائية وسمح له بامتيازات خاصة وقدم له حتى منحة بالتسجيل في مدرسته للعام المدرسي المقبل.

عندما نكون في وضح النهار أحذّر نفسي قائلاً: «انتبه يا صديقي، هذه المرأة الجديدة التي تجري وراءها، أوليست هي الأخرى سراباً؟»،

رجل مثلي اكتوى بهذا القدر كان عليه الحذر. زوجة شرطي! هذه المرة، أجل وبسبب تجربتي، عليّ أن أطرح السؤال على نفسي ألن ينتهي الأمر مرة أخرى بالألم. لم أكن قادراً أن أصدق: لا شيء مشتركاً بين إجيني وماتيلد. فماتيلد ولدت في هذه الأرض. إنها واحدة من النساء التي لا يشكل الحب بالنسبة إليهن مغامرة فحسب وإنما القدر نفسه، السماء التي تفتح فوق البحر والجبال. في مكان أبعد نتخيل الصحراء، نقبل العواصف التي تهب والآلام والتجارب بيد أننا نعرف أن المساء سيحمل إلينا الكثير من سحر حياة ممتلئة. مع ماتيلد أشعر بحنين دفين، لشيء ما أنتظره.

في مدينة لاربعاء، وعلى الرغم من أنه ليس يوم السوق، تتدفق أسراب من السكان الأصليين ثم تعود غالبيتهم إلى منازلهم على ظهور الحمير وهم يطرطقون بألسنتهم. الجبل ليس بعيداً، هنا تتجمع وتثرثر وتنقنق طيور النّوء كما كان ليقول غوريو. أنا لا أحب لاربعاء. هل لأن فيها لواء للشرطة؟ أم بسبب الكنيسة التي بنيت فيها على طريقة المستعربين، قبة بين برجين على شكل مآذن مع صليب يعلوهما: تزييف. في الحد الأدنى، أليست مسجداً حوّل إلى كنيسة كاثوليكية. في الجزائر وعلى الرغم من ممارستهم الدين أقل من غيرهم، إلا أن لديهم ذلك الميل السيء لإغاظة المسلمين ببناء كنائس استفزازية. فلكي نبرهن لهم أننا لسنا كلاباً كما يقولون وإننا نحتفي بديننا، يطلق الكهنة أحياناً المسيرات في الشوارع. في فرنسا، يا إلهي، هذا لا يبدو متنافراً إلى هذا الحد. هنا، كهنة في ردائهم الكنسي الكامل، يترنحون خلف كورس الأولاد تحت الشمس، وسط طيور النّوء، أجد كل ذلك مهيناً. وفوق ذلك أناشيد باللاتينية! ينظر العرب باشمئزاز إلى المتنصرين وهم مستغرقون في هذه المسرحية التي ينهونها ليتجمعوا

بعدها في مقاهي الرصيف يشربون الأفسنتين والفيرمونت.

ربما لأنني لا أعرفهم جيداً، فإن أهل لاربعاء يذكرونني بأهل سانت– إيمي– لا– جديوية. في روفيغو الناس أقل غروراً. فمع مساحة مربعةٍ مزروعة بشجر الدلب ونافورةٍ كبيرة وفنادق، وبعض المقاهي المتواضعة، جعلت لاربعاء نفسها شبه مدينة. لا يحبون فيها اليهود، إنه لواقع. فأنا أتذكر أنهم يتباهون هناك بمنعهم اليهود من المجيء إلى السوق وبإقفالهم الحانات في وجههم. ومع ذلك ما زال الأمر بعيداً جداً عن التهديد. لقد بالغ بكري.

كما أنه ليس هناك محطة، فالقطار يتوقف كما في روفيغو على حافة الطريق الرئيسية. وعلى الناس أن يتسلقوا حافلات القطار مع قففهم والعرب مع غنمهم، كل شيء يجري هنا ببساطة، بلا تكلف. نفثت القاطرة الدخان وعندما انطلقت العربة، طارت قطعة فحم سوداء وغطّت في عيني. عندما فتحتها لأفتش عن منديل في حقيبتي الجلدية التي باتت جرداء بالكامل، حيث وضعت بعض حاجات التنظيف الشخصية، وجدت فطيرتين وبرتقالتين مغلفة كلها بورق حريري. هذه المرة الأولى منذ دلفين التي أشعر فيها بهذا النوع من الاهتمام. فدلفين كانت تخصص كل وقتها تقريباً للطعام. لم أذهب يوماً لزيارة زميل دون أن تحملني بزوادة لوقت الحاجة. «خذها فنحن لا نعرف ما الذي قد يحصل، وستفرح ربما حينئذ بأن لديك ما تأكله». هذا لا يخطر في بال إجيني. بالنسبة إليها في الطريق هناك مطاعم، وبعد هجر الهيدلج لها، عملت خياطةٍ دون أن تفكر يوماً بتوفير قرشين، لا تعرف. التفاتة كهذه من السيد بكري أثّرت بي. الناس يؤكدون أن اليهود بخلاء. فلو علموا بما أعطاني...

الطريق بين لاربعاء وروفيغو مليئة بالمنحنيات، في حين لا تجد كوعاً واحداً بين لاربعاء ومنطقة الكينا على امتداد تسعة كيلومترات. فعلى هذه الطريق المستقيمة وكأنها خطّطت بالمسطرة، نشم رائحة العسكر والمستوطنين الذين يريدون دائماً أن يكون المشهد أمامهم مكشوفاً لكي يرصدوا كل من يأتي من بعيد. القطار يتقدم ناشراً الغبار بين الكروم الصغيرة. ومن وقتٍ لآخر يلوح سقف، وبساتين مصوّنة بالسرو، وقبب بيضاء لمنازل البربر، ومقاطعات تحمل أسماء القديسين. فقد بنى أهل لاربعاء غابة بولونيا، غابة صنوبر صغيرة على طول النهر ليقلدوا مدينة الجزائر التي تقلّد باريس.

في حافلة القطار التي خلا منها الهواء، مسافرون يدخنون ويثرثرون ويأكلون. وكأنه الصيف. القطار يتقدم بسرعة كبيرة، ثلاثون كيلومتراً في الساعة على الأقل، وإن فتحنا الشبابيك لنتخلص من الدخان الذي ينفثه المسافرون، نختنق. إنها السيفيرا[1]، كما يسمونها هنا، خطوط سكك الحديد الجزائرية. جلست بعيداً عن طيور النّوء المكدسة في المقصورات المجاورة والتي لا يفصلنا عنها أي حاجز، وبجواري ركّاب متجهون إلى لاربعاء: ثلاث نسوة متوسطات العمر، مع قفف وحشد من الأولاد، رجلان من أصل إسباني بلباسهما الحريري. لم يكن هناك مستوطنون، ربما يذهبون إلى الجزائر في عرباتهم. تمحور حديث النساء حول المونى[2]، هذا الكعك المحلى الذي سيأكلونه مع العائلة على الشاطئ في اثنين الفصح. في هذا الوقت تمتلئ الطرقات بالعربات رباعية المقاعد، ثنائية العجلات،

(1) C.F.R.A أو cefera (كما تسمى شعبياً) أي خطوط سكك الحديد الجزائرية التي بناها الفرنسيون خلال احتلالهم للجزائر.

(2) المونى هي نوع من الكعك المخصص لعيد الفصح.

كما بدأنا بمصادفة بعض السيارات.

هؤلاء الأوروبيون يتصرفون كالفرنسيين، يدّعون العيش مثلنا والتمتع بالحقوق نفسها، يحتقرون أهل البلاد الأصليين، يغطي النسوة أكتافهن بشالات رقيقة وكأن العرب الذين يجاورونهن سينقلون إليهن القمل، يتظاهرن بنفض ثيابهن وحك جلودهن، ويضحك الرجال، يتحدثون برطانةٍ مع تعابير كان يجدر بي تعلمها مع الوقت. بالقرب منهم، وبلباسي الجوخ وقميصي الأبيض وربطة عنقي وقبعتي اللباد المنتفخة والعصا، أبدو فعلاً كزائر وصل تواً، وهذا ما لا يخفى. فهم عادة قذرون بقبعات بناما[1] مرمية إلى الخلف وحتى إنهم قد لا يلبسون السترات. يعودون من زيارة أهلٍ حاملين صناديق من الطماطم وسلاسل من النقانق، هذه النقانق الإسبانية الدهنية بالبهار الأحمر لجزر البليار. يعتقدون أنهم في أرضهم، يا إلهي! وهذه الطريقة الدائمة في بدء الحديث من آخر الجملة وليس بالفعل أو المبتدأ: «متأخرون، اعتقدنا أن...». كما أنهم لا يستعملون الفاعل إلا بإرفاقه بالضمير: «والدتك، إنها متعبة... أخاك إنه ركض إليّ...». أي لغة هذه! هناك مدارس في الجزائر منذ أكثر من ستين عاماً، وكل الأولاد تقريباً يتعلمون، كيف يمكن تدريسهم قواعد اللغة عندما يعودون إلى منازلهم ويسمعون هذه المحادثات! هناك كاتب يحترمونه هنا كثيراً اسمه لويس برتران وهو مدرّس في الثانوية، وتعجبه كثيراً هذه الصيغ في المحادثة لا بل تشعره بالنشوة. ويدعي غوريو أن كتاب برتران هذا «دم الأعراق» الذي أعارني إياه هو تكملة لرواية فلوبير سلامبو[2]. كما الجميع، فقد التهمت

(1) قبعات بناما هي قبعات على النسق الجنوبي الأمريكي.

(2) Gustave Flaubert كاتب فرنسي (1821—1880) ينتمي إلى المدرسة الواقعية وهو صاحب الرواية الشهيرة «مدام بوفاري» وروايته المشار إليها هنا هي «سلامبو» أو «فتاة قرطاجة»

سلامبو التهاماً، غير أني أخطأت بلا شك، فلويس برتران سيكون يوماً ابن الأكاديمية الفرنسية أما فلوبير فلا. فهذا هو السيد برتران ينهل من الشرق من أسواق باب عزون وضواحي باب الواد. لويس برتران، مدرّس متواضع مثلي يلمع. كان يؤلمني سماع هذه المجزرة التي ترتكب بحق اللغة الفرنسية.

التي يدخل فيها في أجواء الشرق.

المدوّنة السادسة

مع ظهور البحر أمامه، يتذكر المدرّس وصوله إلى البلاد قبل سنتين، وصدمته عند رؤيته الجزائر للمرة الأولى ولقائه الكولونيل غربيه ومارغريت.

عندما ظهر البحر، لم يكن بإمكاني ألا أتذكر ذلك الخميس الذي سبق عيد الفصح منذ عامين، في الثامن والعشرين من مارس 1899.

قالوا لي إن الجزائر حارّة وذلك ما أغراني. ولكن عندما يتأخر المارشال بوجو في الدخول إلى المرفأ، ثم يتوقف وتتسلط عين الشمس على كتفي، أبدأ بالغليان. في بضع ثوان، كانت قبعتي وياقتي يتصببان عرقاً، انكمشت ربطة عنقي وتحولت إلى حبل رفيع. أما روبير فتضرّج وجهه كزهرة الخشخاش الأحمر، تماماً كلون شعره.

وقفنا في الظل قدر الإمكان. إنه لشيء آخر غير بار- سور- أوب وغير لا جيبري! ننظر بصمت مشدوهين ومحشورين في الدرابزين. شديدة البياض مثل الكريما المخفوقة، هكذا بدت المدينة القديمة البربرية[1] مختنقة بين أسوارها، تحاذيها المدينة الجديدة المنبسطة على امتداد النظر على الهضاب، ثم تنحدر إلى الشاطئ والمرفأ بتوالٍ مدهشٍ للأبنية والجسور ولصف الأعمدة والقناطر. في الجهة المقابلة، باتجاه الشرق، في البعيد، جبال تسبح فوق حمام بخاري.

---

(1) البربري لا يعني هنا البرابرة أو الأمازيغ، فقد استعمل الأوروبيون مصطلح الساحل البربري من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر للإشارة إلى المناطق الساحلية والغربية من شمال أفريقيا والتي هي حالياً المغرب والجزائر وتونس وليبيا.

بصعوبة أشحت ناظريّ عن هذه البقعة اللامعة وهذه السماء البيضاء لشدة إبهارها. فمنذ احتكاكنا الأول مع ما بدأنا بتسميته إمبراطورية الجمهورية الثالثة، أو اختصاراً الإمبراطورية، مع تفخيم للحرف الأول[1] لمسنا جمالها وفخامتها. مدهوشان مصعوقان، لا ندري ما الذي يحصل لنا، وفي الوقت نفسه مسحوقان بوهننا، وجدنا أنفسنا عند جسر المشاة، ثم عند الجسر العائم الذي يؤدي إلى الرصيف، وسط روائح حادة تملأ الرأس وفوضى داخلية سببتها لنا هذه الجموع التي ما زالت تجري حولنا.

في الصف الطويل للمسافرين باتجاه مكتب الشرطة للتدقيق في الهويات، وفي كل مرة رفعت فيها الحقيبة ثم أنزلتها شعرت بالغثيان من دخان فحم القطار والقطران ورائحة البحر. روبير أيضاً حمل الكثير من الحقائب، هذا بالإضافة إلى صندوق في الشحن مع بعض أشياء تافهة، سريري وخزانة وطاولتان وكراسٍ، أغراض المطبخ والتدبير المنزلي ستتبعنا في سفينة أخرى وستلتحق بنا في قطار سانت– إيمي– لا جديوية، اسم يجعل روبير يحلم. أما أنا فكنت أتخيل دائماً أشجار نخيل ومياهاً عذبة وأتخيل نفسي أدرس الفرنسية لطلبة عرب ونستمع لأصوات الناي والطبل وأحدثهم عن الوطن وواجبات الفرد. أما البيانو فقد طلبت من البائع أن يسترده، ودفعت أربعين فرنكاً من المتأخرات. لقد كلفني البيانو غالياً بقدر ما كلفني محامي الطلاق. وبما أن إجيني لم ترمِ نفسها لا في البحيرة ولا في المستنقع، كان علي أن أتخلص منها بالحسنى. استدعاء من

(1) التفخيم هنا يعني ما يمسى بالفرنسية الـ majuscule وعندما تبدأ الكلمة بحرف ماجوسكول فذلك غالباً إشارة إلى اسم علم وهنا يقصد بأنها ليست الإمبرطورية الفرنسية القديمة وإنما إمبراطورية الجزائر الخاصة.

قبل قاضي الصلح وفشل في محاولة التوفيق ثم تعهد بنفقة شهرية، وثيقة تبليغ من الشماس، لا يهم، فقد وافقوا على انتقالي إلى الجزائر، ماذا كنت لأفعل ببيانو؟

بعد وصولنا إلى اليابسة، وسط السكك اللامعة لمحطة القطار والتي تحاذي أرصفة الميناء وتوصل مقصورات التجار حتى باب السفن، أين نذهب؟ عليّ أن أبحث عن فندق وأصعد الأدراج المسورة بالدرابزين الحديد.

«انتظرني هنا روبير وانتبه إلى الحقائب، سأعود، لا تتحرك أبداً».

في أعلى الدرج، رجال شرطة وصف عساكر، المدينة في حصار.

خلال صعودي إلى ما يشبه رصيف جادةٍ، خلعت سترتي ولكن ليس ربطة عنقي فأنا مدرّس. شعرت ببعض النسيم الخفيف، التصق قميصي بظهري بيد أنه لا يمكنني أن أبقى بلا صداري، اعتدت ارتداء السترة رغم أن العرق كان يسيل على عنقي ووجنتي. على امتداد الدرابزين عرب يراقبوننا، رأيت مسافرين يرافقهم حمّالون سمحت لهم الشرطة بالصعود باتجاه الساحة. ها هي أشجار النخيل الشهيرة التي طالما حلمت بها. قرأت عبثاً وسخرية ما على وجوه المتسكعين. انتبه هناك من ينادي أسماء الفنادق: لاريجينس، لوروب، لامارين، أوتيل دو جينيف، أوتيل دو باري، لابورت دو فرانس. «تناولوا الغداء في شيان كي فوم...[1]».

الشرطة بالبزات الزرق مع قبعات عالية بحوافٍ مذهبة، تدفع بالمنادين غير أن صيحاتهم تصعد من كل اتجاه: «أوتيل دو لوازيس، لو رويال، لا

(1) أي «تناولوا الغداء في شيان كي فوم» (Le chien qui fume) (وهو اسم مطعم) وهو هتاف من أحد المروجين للمطعم المذكور «شيان كي فوم» وهو اسم طبق من النقانق الساخنة.

بيشيري، لو فو كي تيت...». بهيئتي كرجل من الشمال، لم يكن ينقصني سوى مظلة، فقد تركت عصاي في الأسفل محشورة في واحدة من أحزمة الحقائب. نفاث دخان، تزاحمٌ، تدافع للحشود التي بدت وكأنها توقفت عن التقدم، سمعت زعيق أوامرٍ وصفاراتٍ، حشد من الوقحين يجرون من شارعٍ إلى آخر، يعرضون خدماتهم هتافاً ثم ينطلقون باتجاه القناطر في الجهة المقابلة. لكزني رجل:

«فندق جميل رخيص مع كل وسائل الراحة؟ أأنت لوحدك؟ هل تحمل حقائب؟».

دفعته بحركة من كتفي، هذه اللهجة السوقية اللاذعة المغناة... وعلى الأخص لا يمكنني احتمال أن يلمسوني. أصبحت الفوضى خطيرة، تحسست محفظتي في جيب الصديري الداخلي. عليّ أن أنزل لكي أصطحب روبير وألا أترك نفسي أغرق هنا، وصلني ضجيج غناء ما كنت قادراً على تمييز كلماته ثم اقترب الصوت أكثر مني. خيّل لي أنه: «فليسقط اليهود» ولكن لا «فليسقط» ولكن فليسقط من؟ «فليسقط اليهود، فليسقط اليهود، فليسقط...»، بإيقاع غنائي يمكن بسهولة مرافقته بعزفٍ على البيانو. دائماً النوتات نفسها، بلا نهاية، مرة عالية ومرة منخفضة تليها استراحة ثم إعادة.

بسرعة، دافعاً الحشد حولي بكوعي، شققت طريقي نحو الدرج فوقعت قبعتي، انحنيت لألتقطها، لقد سحقها هؤلاء الأوغاد. عندما أفكر بما كنت ألبسه حينها، أستغرب لماذا لم أمر متخفياً. بعد أيامٍ قليلة وجدت نفسي أبتسم بدوري مميزاً هؤلاء الذين نسميهم الواصلين الجدد المغفلين الضحايا المثاليين الذين يقعون في كل المصائد. بينما أنهض لمحت

هذا الرجل. لم أر سوى وجهه الذي يطفح بحنان مرح، ورأيت نظرته الرقيقة الشاخصة نحوي. قال لي شيئاً لم أسمعه.

كان من المفترض أن أصدّ اندفاعه وحميميته المفاجئة، ما دمت لم أسمع ما قاله. ولكن هناك أناس لا يمكننا أن نخطئ بشأنهم، وهذه كانت بالفعل حالة هذا الرجل، لم يكن هناك أي قاسم مشترك بينه وبين هؤلاء الرعاع هنا. تابع:

«هل تصل مع بيجو؟ فإن كانت هذه زيارتك الأولى، فقد وصلت في اللحظة الخطأ».

لابدّ من أنه يناهز السبعين من العمر، طويل القامة مع كتفين عريضين بلباس وتمشيطة أنيقين، يبعد عنه الحشد بحركة آلية من عصاه ذات المقبض الفضي، بصرامةٍ وإنما بلا لوم. «هيا يا صديقي، افسح لي الطريق». بدا أنه يملك سلطة كبيرة تجعلهم يرضخون له. سلطة يمكن استشعارها. ماذا كان يلبس في ذاك اليوم؟ قبعة باناما أو قبعةً من القش؟ على أية حال لباس قطني خفيف مع حذاءٍ عالٍ أتذكره جيداً، أصفر شديد اللمعان مصنوع من الجلد الناعم مع كعبٍ طويلٍ مربع، حسب الموضة، حذاء لم أتمكن يوماً من شرائه. هذا الحذاء وهذه العصا وقامته وذقنه الشائبة وعزة النفس التي تبدو عليه وتلك النجمة الكبيرة لوسام استحقاقٍ المثبتة في إحدى أزرار السترة، قد يكون قاضٍ متقاعدٍ، أخذني في حمايته.

حدث كل شيء بصورة عفوية، بدأ يحدثني وكأنني أجبته فعلاً، وبادلته الحديث وكأنني أعرفه:

سأذهب لإحضار ابني من تحت.

اتبعني.

بسلاسة، فتح لي الطريق. عند الدرج كنا أقل سرعةً، بعض نقرات على السترة من الخلف، شعرت به يفحصني ويحاول تصنيفي. بدا وكأن هناك معركة جديدة بين المحتشدين إلا أننا أصبحنا بعيدين عنها الآن مع أننا ما زلنا نسمع الصرخات نفسها ودائماً هذه الأهزوجة الصبيانية المتوحشة: «فليسقط اليهود». وعلى الرغم من وجود الشرطة، فقد شعرت أن الأمر لم يعد جدياً؛ موضوع هزلي أكثر مما هو دراماتيكي..

عندما أخبرته عني «لقد راهنت على ذلك» قال لي. ولم يترك لي الوقت لأطرح السؤال بدوري، إنه كولونيل متقاعد.

«هدئ من روعك، الجزائر مدينة ريفية والجميع فيها يعرفون بعضهم بعض. فأنا أسكن قريباً جداً من هنا. وسأدفع الكثير لأكون مثلك في الثلاثينات. أين تذهب؟».

عندما أخبرته، نمت عنه حركة اشمئزاز مضحكة.

«في هذه الحال سأفكر. سانت– إيمي – لا– جديوية، أيها المسكين... هناك الأرض قاحلة، بيد أنني لا أريد أن أخيفك، أين هو ابنك؟».

للحظة شعرت بأني أضعت روبير، سفن أخرى كانت هنا عند رصيف الميناء، كما أن حوض سفن الترانزيت بدا لي أبعد مما اعتقدت، ولكن الأعلام الحمر والسود للمارشال بوجو التي ترفرف عالياً كأوشحة من الدخان قادتني إلى روبير. كدس حقائبنا البائسة المحزمةّ بالحبال، فوق بعضها بعض وأسند عليها قدمه. ومع طقمه المدرسي الأزرق بالأزرار المذهّبة ذاك، وتحت أشعة الشمس المسلطة، بدا وجهه مضرجاً بلونٍ أحمر قرمزي.

«يا له من صبي كبير»، قال الكولونيل، «ما اسمه؟».

تقدم ابني ورفع قبعته وقال اسمه بكل فخر.

«ضع قبعتك يا بني، ضعها».

بصوت خفيض سألني، كما فعل بكري بالأمس:

«أأنت متزوج؟».

انزعجت. اضطررت إلى تذكر دلفين، كما عاودتني بقوة ذكرى إجيني، شعرت بوخزة ألمٍ وبالحرمان من جسدها ورقتها ولياليها الملتهبة. لم أجب.

كما أعرفه الآن، فمن المفترض أنه تخيل حينها أن صمتي سببه المرأة التي أورثت روبي ذلك الشعر الأحمر كاللهب، صهباء جميلة بصدرٍ عارم وعينين خضراوين. أشار إلى عربٍ واقفين بالقرب من الحواجز المشبكة، واختار اثنين منهم لحمل حقائبنا على أكتافهما.

مررنا بحوض الميناء البربري القديم المليء بقوارب الصيادين وبسفن حربية صغيرة. ومن قبالة مركز القيادة البحرية، صعدنا باتجاه ما اشار إليه الكولونيل على أنه بورت دي فرانس، هنا ما عدت أرى عرباً، قلت ربما إنها عادات البلد. وجدنا أنفسنا على جادة محاطة بأشجار النخيل، تمتد مستقيمة فوق البحر والصخور. المدينة من جهة مع سقوف حمراء وشرفات متلاصقة، وعند محور الجادة حيث يمر الترامواي، كما في مارساي، ترتفع هضبة واسعة مهيبة، نصفها الأول أجرد والنصف الآخر غابات وبساتين وبيوت ريفية، وفي مكانٍ أبعد بقليل، منخفض بعض الشيء، معلمٌ أصفر أهو مسجدٌ أم كنيسة؟

«إنها نوتردام دافريك، كاتدرائية كاثوليكية، مكان للحج».

حدقت جيداً، أمسكني روبير بيدي وشدها بقوة. إلى يميننا، أسفل

الجدار الكبير، متاريس قديمة؟ البحر هائج، تهب علينا رائحة ملح وعفونة، أعتقد أنهم يرمون فضلات الطعام فتأتي القطط الجرداء لتبحث بين الحصى وتنافس النوارس على الفتات. توقفنا أمام مجموعة من البيوت محصنة بسور واحد متقدمة في البحر، نوع من حي صغير، مع شارع يفتح في نهايته على شوارع أخرى تنزل من المدينة المرصوصة المسورة الأشجار.

تمضي الجادة، مع حديقة عامة صغيرة شمالاً ومبان عالية قوية وقلعة، وخلفها بعيداً واجهة طويلة مع صفٍ من الشبابيك.

اعتقدت أننا وصلنا إلى الفندق. تبعنا الحمالان العربيان في رواقٍ ثم درجٍ ضيقٍ وضعا في أعلاه الحقائب. ثم ذهبا فنادى الكولونيل بصوتٍ قويٍّ: «مارغريت».

أدخلنا إلى غرفةٍ تطل على البحر، مع سجاجيد وصوانٍ وأباريق من النحاس، هبّ نسيم البحر على جسدي الغارق في العرق، جففت جبهتي وكانت تلك المرة الأخيرة، لم أتعرق ثانية هناك.

«هذا منزلي، تصرفوا بحرية، فهذا من دواعي سروري. أعرف أن هذا ليس منطقياً، لكنكما لا تعرفان أحداً هنا. لقد وضعت نفسي في مكانكما، لن أترك مدرّساً على رصيف الميناء».

مارغريت هي زوجته. لها طلة أميرة، وعينان شفافتان كمرايا هائلة من دون طبقة قصدير، ووجه واثقٌ بالكاد خطته بعض التجاعيد، تمشي كتمثال في مقدم سفينة. لم تبدُ لي متفاجئة. سألت روبير كم عمره وأطرت على طوله. لم أعرف كيف ينبغي عليّ مناداة زوجها. في دار المعلمين، لم يكن هناك في ذلك الوقت خدمة عسكرية.

قدمت لنا الليموناضة في كؤوس كبيرة شربناها في جرعة واحدة.

– التقيتهما على رصيف الميناء. أتعلمين إلى أين سيذهب المسكينان؟ إلى سهل الشلف... فقد نزلا وسط مظاهرة ضد اليهود، وسط الصراخ... إنها لمصادفة. إنه أستاذ أيضاً ولكن الولد... كيف يكتب اسم عائلتك؟

– ديماتون في كلمة واحدة تنتهي بـ تاء واو نون.

– ممتاز. ولكن لا تتعجل في إبداء تواضعك فهنا يولون للأرستقراطية اعتباراً كبيراً، ربما لأنها النقيصة الأكبر. فالشيء المهم الوحيد في الجزائر هو فخامة الحذاء...

في البداية بقيت مارغريت قليلاً على الحياد. فعندما يتعلق الأمر بشؤون زوجها، حتى تلك الأقل قيمة من هذه، تتركه وحده ولا تدخل في اللعبة. في البداية، لم تبد لنا أيّ شيء. إذ شكلنا بالنسبة لها شيئاً فانتازياً، نزوة تخضع لها دون أن تبدي أي رد فعلٍ أو استهجان. نحن بالنسبة إليها شخصان بائسان عابران التقاهما زوجها واصطحبنا بلا أي سبب. شعرت أنها لا تهتم سوى بالأمور الأساسية في حياتها بيد أنها في المقابل لا تتسامح البتة في ما يخصها مباشرة وبشكل حميم، يمكن قراءة ذلك على وجهها. بالرغم من الارتخاء البسيط في وجهها والذي يجعل وجنتيها هابطتين قليلاً، كانت تتمتع بمظهرٍ جميل وبعينين... هل تتألم من انكفاء الناس عنها وعن إبداء الإعجاب بها كما في السابق؟ وعلى الرغم من أنها لا تبدو منشغلة بأمر جمالها إلا أنها ما زالت جذابة.

لابدّ من أنها تناهز الستين، ولكنها تبدو أصغر من ذلك بعشرة أعوام. لم أسمعها يوماً تشكو، إلا أننا لو أمعنا النظر فيها يمكننا أن نفترض أنها واعيةً

لهبوطها إلى مكانٍ سيغمره الظل قريباً. لن يصبح زوجها أكثر من متقاعدٍ، ولن تسكن منزلاً أجمل من هذا، ليس لديها ما تنتظره، مستسلمةً بقليل من الحزن لواقع أنها ليست سوى ما هي عليه الآن. عليها أن تهنئ نفسها على ما تعيشه. من دون الكولونيل، كانت لتكون مثل أختها، مجرد مستوطنة تسكن في السهل. ولن ترتدي هذه المأساة التي تتخطى بكثير ثروتها كما يبدو، والتي تبدو إلى حدٍ ما نافرة تذكر بأيام عزٍ، بشغفٍ وبحلم بَهُتا. لابدّ من أن راتب الكولونيل المتقاعد يوازي أجر مدرّس في المرحلة الابتدائية، ما يكفي بالكاد لحياة كريمة، لا أكثر. أو ربما أني مخطئ لأني لا أعرف بما يكفي عن مارغريت، أهي واحدة من هاتيك النساء اللواتي لا يظهرن أبداً عواطفهن، الشديدات الحذر حتى في اللقاءات العابرة؟

«علينا أن نتركهما ليرتاحا»، قال الكولونيل. «وهذا المساء لكي ندخلهما في الأجواء، سنقدم لهما للعشاء طبق كسكس».

ارتميت على السرير لشدة تعبي. سمعت جزائريات يثرثرن والموج يرتطم بالصخور عند أسفل المنزل. طلع النهار، الطقس جميل، ومن دون أن أعي ذلك عدت للنوم. عندما أفقت، كان الضوء قد خفت وتحول البحر إلى مسطح ذهبي. للحظة حسبتني ما زلت على متن الباخرة، نوارس تزعق، أنا في محاذاة المتوسط، في عالم آخر، حياة جديدة تبدأ.

لأول مرة منذ زمن طويل، رأيت ابني سعيداً ورأيت عينيه تبرقان.

«ذهبنا إلى الساحة»، قال الكولونيل، «لأريه الثانوية التي قد يدرّس فيها يوماً ثم عدنا عبر باب الواد. أردت ان أريه الكاتدرائية ولكن كان هناك الكثير من التدافع في كل مكان... لديك صبي ملفت للنظر. فقد

سمعت عرباً يتساءلون فيما بينهم إن كان من القبائل».

عبقت رائحة دافئة في المنزل.

اشعلت مارغريت القناديل وأشرفت على عمل الخادمات في إعداد طاولة الطعام. عندما وضعوا الأطباق الكبيرة للكسكس، سال لعابي. كانت المرة الأولى التي أتذوق هذا الطبق، حبوب سميد كبيرة مطهوة على البخار ممزوجة بحبوب الزبيب، مع صلصلة معطرة بالخضار ولحم الغنم.

– هل أحببت الكسكس، قالت مارغريت. إذن أصبحت واحداً من أهل المكان، جزائرياً بحق.

– لقد تحمصت، قال الكولونيل مازحاً.

نظرت إليه محدقاً بوجهه. فعند رصيف الميناء، اعتقدت أني سمعتهم ينادونه غريبه، ورأيت قصره المسقوف بألواح القرميد الأحمر الصغيرة. شممت رائحة الثوم. لم يكن يكلم الخادمات اللواتي كن يأكلن في المطبخ سوى بالعربية. أمن أجل إغاظتي؟ إذ بدا لي في ذلك شيء من التباهي. النبيذ الذي جعل رأسي يدور ربما أنه يفعل ذلك بسبب شيء ما يدور في داخلي أساساً.

وإذ بي أشعر فجأة بالنشاط. فبسبب تشبيه روبير بهم، أردت أن أعرف أكثر عن القبائل، بدا الكولونيل مربكاً بعض الشيء.

«يسكن البربر في منطقة جبلية شرق الجزائر. هناك نجد الكثير من الرجال الشقر ذوي العيون الزرق. الجزائريون[1] يعتقدون أن ذلك يعود إلى موجات اللجوء من الألزاس واللورين. بيد أنه عندما تمردوا في 71

(1) الجزائريون، هنا يقصد بهم المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين، فالجزائريون حينها كانوا يسمون بـ «السكان الأصليين».

رأينا بينهم رجالاً شقراً بعيون زرق، ولم يكن حينها قد وصل أهل الألزاس واللورين بعد».

خيل لي أن مارغريت ابتسمت. غيّر الكولونيل الحديث وتشتت انتباهي مع السلة التي أحضروها.

– كرز؟ صحت.

– هنا، تثمر قبل شهرين. فالموسم بدأ في الهضاب العالية. في فرنسا يجب الانتظار حتى يوليو.

وضعت مارغريت في طبق روبير حفنة من الحبوب الضخمة. بالنسبة إلى روبير فإن الكرز يعني اقتراب العطلة الصيفية، متع الفصل الجميل. بالنسبة لي هي السعادة المفقودة: فقد ظهرت إجيني مع الكرز. هل خدعتني في النهاية؟ كل ما علمته لاحقاً ترك فيّ كآبة المشهد الجميل للشفق. تخيلت جسدها بين يدي وأنا أغرق في عينيها البريئتين الحالمتين. كل ذلك ضاع. بسببي، بسببها؟ لقد أحببنا واحدنا الآخر. عندما كانت تنسلّ في السرير في المساء، لا أعود ذاك المدرّس المسكين الذي يسأل نفسه ماذا يفعل على هذه الأرض وما نفع ما يدرّسه، بل ذلك الذئب الذي وجد ذئبته وغاص معها في ليل الغابات، ونام دافناً رأسه في فروها.

قالت لي مارغريت: «أيعني ذلك شيئاً ما؟».

صرخ روبير: «أغنية يغنيها أبي. فهو يغني أيضاً فالز دي برينو[1]».

«غنها»، قالت مارغريت. «يسرني أن أسمعك تغنيها».

تضرّج وجهي. من المستحيل أن أغنيها. في دار المعلمين، كنا نغنيها كتواطؤ سري بيننا لتحدي السلطات المفروضة علينا، وتكريماً لكومونة

(1) Valse ses pruneaux وتعني فالس البرقوق وهو عنوان أغنية فرنسية.

باريس[1] التي سحقت في أهوال باليه رويال[2] وساتوري. من يمكنه غيرنا أن يدرك أن بإمكان الحنين أن يخبّأ في كلمات رقيقة أو في الاحتفال بالأساتذة الأوائل الذين ماتوا خلف العلم الأحمر؟

عندما اشترت إجيني البيانو، قالت لي إنها سترافقني عزفاً في أغنية زمن الكرز[3]. في حفلات غداء الأعراس، أو بعد امتحانات الشهادة، كان علي دائماً أن أغنيها وكنت أجعل الجميع يبكون ويصفقون. أما على طاولة كولونيل فذلك قد يعد تحريضاً.

«ليست مناسبة»، قلت. «ليس هناك ما هو أكثر بساطة وطفولية منها. يمكن للأطفال أن يسمعوها ولكن...».

لم أشعر بأنه يحق لي خداعهم ولو قليلاً. فقد قدموا لي الكثير وبكل حب، مارغريت باسمها اليهودي، الكولونيل الذي يشكك في إدانة درايفوس وبحمايتي من الجزائريين الذين...

(1) Commune de Paris أي كومونة باريس هي نظام جماعي مساواتي أدار باريس في الفترة ما بين 18 مارس إلى 28 مايو عام 1871. هي حركة نقابية وعمالية يسارية، قامت بثورة تعتبر أول ثورة إشتراكية في العصر الحديث، استولت على السلطة في فرنسا لمدة شهرين. قامت بتعديل لون العلم الفرنسي إلى اللون الأحمر، وأجرت العديد من الإصلاحات أهمها الإصلاحات التربوية ومن ثم فصل الدولة عن الدين، وألغت العمل الليلي، ومنعت الغرامات والضرائب المفروضة على أجور العمال، واستطاعت تشغيل المعامل التي تركها أصحابها هرباً ولجأوا إلى فرساي، تحول العمال والعاملات إلى جنود فوق المتاريس للدفاع عن إنجازهم لكن كان قمع الثورة دموياً بشكل فظيع على يد تيير، وذلك في الايام الستة الأخيرة من عمر الثورة، سقطت الثورة بعد مجازر دموية لكنها كانت النار التي أوقدت العديد من الثورات الإشتراكية بعدها وما زال الشيوعيون حول العالم يحتفلون بذكرى كومونة باريس.

(2) Palais royal أي القصر الملكي أو ما يسمى بقصر فرساي، أما ساتوري فهو الجانب الجنوبي من قصر فرساي والذي عرف بقاعدته الحربية.

(3) Le temps des cerises أي زمن الكرز.

«حسناً، إنها أغنية من كومونة باريس».

لم يبد على مارغريت أنها فهمت.

«أعتقد أني عرفتها»، قال الكولونيل. «هل أنك من الثوار يا عزيزي؟ غنها لنا»، قال بلهجة آمرة.

المدوّنة السابعة

المدرّس يغني «زمن الكرز» على مائدة الكولونيل. وصول مدوٍ لدرومون إلى الجزائر، ثم زيارة إلى عائلة باري في سيدي موسى. ظهور ماتيلد: بشارة.

عادة أنشد هذه الأغنية بقوة، بملء صوتي الرجولي الجهوري. أبسبب ذلك تكون مؤثرة؟ بدا لي أني وجدت وطناً، واستعدت ابني، والتقيت أصدقاء يفهمونني أكثر من جونسون، الذي كان يضحك مستهزئاً عندما يسمعني أغنيها ربما بسبب إجيني. هذه المرة سأؤديها بصوت هادئ:

– عندما سيحين وقت الكرز،

– وفرح العندليب والشحرور الساخر

– سنحتفل معاً...

وفي المقطع الثالث بالكاد رفعت نبرتي قليلاً:

– إن كنتم تخشون آلام الحب

– فتحاشوا الجميلات

عند مارغريت وأيضاً هكتور، أي اسم جميل له، شعرت أنني أحلق في سرب طيورٍ مهاجرة، أطوف كالخيول الشاردة، لا أعرف. أمام المطبخ وقفت الجزائريات مبتسمات.

إنه لأمر سخيف. أن ندع أغنية تستولي علينا ونصدق كلماتها:

... ما أحتفظ به في قلبي

هو جرحٌ مفتوحٌ

ولا حتى ثروة كاملة
يمكن أن تنسني أحزاني...

ها هي. انتهيت. اغرورقت عينا مارغريت بالدموع وأخذ الكولونيل يمسّد ذقنه أما أنا فتذكرت إجيني التي اشتقت إليها. ولأخفّف من جدية الأمر، أطلقت فجأة ضحكة، فنهضت مارغريت ولمست كتف روبير. ولكي أخفي انزعاجي، تناولت كرزةً من السلة والتهمتها.

قبل بضع دقائق فقط، ما كنت لأجرؤ على فعل ذلك. شعرت فجأة أنني أصبحت جزءاً منهما. وهما بفضل أغنية في لحظة غمراني بحبهما، تولدت بيننا حميمية حتى أنه كان بإمكاني أن أروي لهما قصة حياتي. أغنية، كانت تلك طريقتي لشكرهما وإبداء الحب لهما.

لا أتذكر جيداً اليوم التالي.

أخرجنا الكولونيل باكراً. كانت ساحة الحكومة تلمع بالشمس. أمام قبة الجامع الكبير، وعلى قاعدة عالية من الحجر والبرونز، ارتفع النصب الفروسي لجنرال يعتمر قبعة بكوزين ملوحاً بالسيف، إنه الدوق أورليانز، أحد أبطال الغزو. أما المئذنة فكانت تحمل من جهاتها الأربع قرص ساعةٍ عملاق.

الجزائر مدينة ضاجة، صرخات التجار والترامواي، ترامليك كما يسمونه هنا يجري تسبقه صفاراته، وخيول تقطع سكك الحديد: صخب مسعور تحت سماء متألقة. حينئذ أدركت أنه لا يمكن بعد ذلك أن نحظى بالضباب والصمت والبرد والثلج والليل والطرقات الفارغة لسهل بريين والنظرة الصارمة لجونسون وثانوية بار– سور– أوب وبحيرات بيتي منسيل، ولا يسعني القول إنني ترددت وإنه كان يجدر بي اصطحاب

إجيني معي! أردت أن أصهل كحصان قبل السباق.

لبست ثياباً أخف على طريقة الناس هنا من دون صداري. ذهبنا عبر طريق باب عزون لأشتري قبعة. أعارني الكولونيل واحدة من قبعاته ولكنها لم تناسب رأسي الأضخم من رأسه. تحت القناطر، وبعد محل حلويات برائحة نفاذة، أشار لي الكولونيل بإيماءة إلى الدكان الذي سنذهب إليه، رومولي، أفضل صانع قبعات في الجزائر.

«يبدو أنه أقفل محله بعد تظاهرات الأمس. صديقي المسكين، أخشى ألا نتمكن من الحصول على قبعة لك».

المحلات المجاورة كانت أيضاً مقفلة، كلمات كبيرة بالطبشور والطلاء الملون شوهت المصاريع: «دكان يهودي»، «لا تشتروا من اليهود».

وصل درومون بعد الظهر، تسبقه الأكاليل وسعف النخيل، محاطاً بالجيش ورجال الشرطة فوق جيادهم، سارت عربته في الطرقات جارة الناس المهرولين خلفها معبرين بصخب عن فرحهم. سمعت الهتاف والأغاني والشتائم واللازمة المكررة تصعد من كل مكان:

لنذهب جميعاً إلى السجن
رِجيه ينادينا
لنذهب جميعاً إلى السجن
رِجيه ينا...

«إنه ينتظرنا»، صحح الكولونيل على مسمعي.

أخذتنا الدوامة والعناقات والناس المتعاركون. هستيريا. كل شيء كان مربكاً في داخلي لأنه كان علينا التوجه في اليوم التالي إلى سيدي موسى وإجراء اللقاء الذي أغرقني في دوامةٍ جديدة، إعصار، اضطراب هائل، لا

أجد كلمات أخرى للتعبير عن الحالة التي كنت فيها.

في هذا اليوم، صعدنا في مركبة بريد السهل التي تجرها ست جيادٍ مسببة الكثير من الصخب بأجراسها. اجتزنا المدينة، وصعدنا الهضاب ثم نزلنا مرة أخرى باتجاه متيجة عبر طريق متعرجة. ترجلنا قبل سيدي موسى بقليل، عند مفترق طريق محصاة وسط كروم العنب. عند أسفل الجبال التي ترتفع لنحو العشرة كيلومترات من هنا وتقفل جزئياً على المشهد بغابات وقمم زرق، امتد السهل بكروم العنب والحدائق وأشجار السرو، وكأننا وسط جنة. هواء يحمل عبق الزهور البرية التي تسمى البروق، كما قال لي الكولونيل. خلف حاجزٍ من أشجار المشملة والرمان وأشجار أخرى غريبة، ظهرت سقوف من القرميد الأحمر ثم ساحة مع تينة كبيرة تستريح تحتها مُكَبرتة[1] وإصطبل كبير فارغ وشجرة ليمون. بدأ كلب أصفر مربوط يعوي مسعوراً عند اقترابنا، ظهرت امرأة شابة عند الدرج. قالت مارغريت:

«إنها ماتيلد».

تقدمت الشابة باتجاهنا، مادة يديها. عانقت مارغريت والكولونيل ونظرت إليّ. هذه النظرة، هل سأنساها يوماً؟ دلفين، إجيني أين أنتما؟ في هذا اليوم المضيء رحت أردد في داخلي ما قالته مارغريت: «إنها ماتيلد...». كانت معجزة، كانت سلاماً. تركت كل شيء من أجلها، كانت حياتي وحبي وقدري. ما عدت أسمع ما يقوله الكولونيل ومارغريت، لم أعد أرى سوى ماتيلد. مدت إلي يدها التي احتفظت بها لثوانٍ في يدي، ثم التفتت بسرعة صوب روبير. جف حلقي وشعرت

(1) آلة لكبرتة النبات، أي لرشه بالكبريت.

برعشة خفيفة.

دخلنا إلى قاعة الطعام متسلقين بضع درجاتٍ، استقبلتنا الأم، جلسنا على مقاعد حول الطاولة. بدأ الكولونيل يتحدث عن تظاهرات الجزائر، نسيت أولئك المجانين، لم أفهم ماذا كانوا يريدون.

كل ذلك ما عاد موجوداً بالنسبة إلي، انتهى، اكتفيت بالصمت. الأم تخطت الخمسين، تشبه ملكة متعبة: وجه صغير نقي، بتجاعيد أنيقة، جبهة عريضة تحت شعر شائبٍ مفروق عند منتصف الرأس ومشدود بكعكة عند الرقبة، فم غض جميل ناعم مرسوم بوضوح. لابدّ من أنها في صباها كانت تشبه ماتيلد، الجالسة إلى يمينها وعلى مسافةٍ صغيرة إلى الخلف منها. كانت كلتاهما تنظران إلى الكولونيل بإعجاب معتمراً قبعة خفيفة من الكتان الباج، لحيته الكثيفة المرتعشة تلامس أحياناً عقدة ربطة عنقه، نحيفاً مستقيم البنية، واحداً من كبار الضباط الحقيقيين. يصرخ كما يفعل في منزله، يمشي ويتوقف ويعب جرعة نبيذ وردي ويطرطق بلسانه ويمزح.

فتاتان وصبيان أصغر من ماتيلد تقدموا مسرعين: إيمي رجل صامت التقيته مرة أخرى في روفيغو، وفكتور ثاني الأخوة لم يتخطّ العشرين بكثير مع قبعة قشٍ وبنطال من القماش بقطع كبيرة مرتقة عند الكاحلين. قالت له الأم: «يجب أن تبدل ثيابك».

لمست لدى آل باري كرماً لم أصادفه في أي مكان آخر. لديهم خليط من الحسّ الشرقي والريفي الفرنسي القديم مع رائحة الخشب المشمّع والأوز المقدد ورائحة البهار الأحمر والزعفران ورائحة الخبز الكبير الذين يعدونه هنا. هل رغبت بماتيلد أم بهذه العائلة؟ على الجدران المطلية بالكلس،

علقت روزنامات مصورة رسمت عليها آلة حصادة ماركة ماكورميك تجرها دواب ضخمة مقرونة تتقدم بأسنانها الكبيرة فتلتوي أمامها سنابل القمح وتتكدس الحزم راسمةً خطاً من الأتلام.

تحت هذا الضوء بدا شعر روبير ذهبياً مصفراً. داعبت الأم قليلاً رأسه. وفجأة انطلق بندول الساعة بدقات سريعة حيوية ومرحة. أشارت الساعة إلى العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً، ما عدت أتذكر بالتحديد. في البداية جرحتني ذكرى لاجيبري ثم بدأت أستمتع. شعرت باندفاعة مباغتة تجاه ماتيلد، سمعت صوتاً يقول لي: «ها هي المرأة التي أرسلها الرب لك».

ضغط الكولونيل بيديه على كتفي:

«سيد ديماتون سيذهب ليدرّس في سانت– إيمي– لا– جديوية. هل تعرفها فيكتور؟ بلاد جميلة. أردت أن أعطيه فكرة أخرى غير تلك التي يمكن أن يعرفها. أن أعرفه على متيجة وعائلة باري».

كان في سمات الجميع شيء من العجرفة. جمال ماتيلد صارم قليلاً مع شفتين مرسومتين بدقةٍ؛ حساسة إنما مع مسحة من الحزن. كان فيها شيء لا أعرف ما هو، سرّ ما يحركني. علمت بأسى أنها متزوجة من شرطي يخدم في الجزائر. ولديها ابن أيضاً موجود بيننا، ديزيريه من عمر روبير أو يكاد، ولكنه أقصر منه ولون شعره كستنائي. لقد وصلت متأخراً جداً.

لاتيتيا وماري، الفتاتان الأخريان الرشيقتان الحيويتان تغامزتا، لقد أثار المدرّس فضولهما. من جانبي لم أكن مشغولاً بهما. حكمت عليّ الأم: «هل سيغيرك هذا؟» ثم ولكي أن تحميني من نفسي قالت لي: «أنت تعرف، لسنا سوى مزارعين، عليك أن تعتاد على...».

وإذ بنا نسمع فجأة صيحات وضربات سوط، إنها ضجة عربة. شنّفت

أذنيّ.

«كان هناك اجتماع بلدي، إنه جان بيار الذي عاد»، قالت الأم مبتسمة. «يظن نفسه مجبراً على إعلامنا بأن السيد وصل».

يحب أن نستقبله، خرجنا إلى منصة الدرج، توجه الخادم العربي ليأخذ برسن الحصان. ترجل الأب باحتفالية من العربة ذات الدولابين. عانقه الكولونيل وقدمني له ثم أخذني جانباً: «يقولون إنه مصاب بمرضٍ خطير، كان نحيفاً كالمسمار بجسد مفرّغ». في عينيه كان يلوح كبرياء هادئ.

تناولنا على الغداء أرنباً مقلياً وبطاطا. وللتحلية أيضاً الكرز المقطوف من كروم المزرعة. لمحت غمزاً بين الكولونيل ومارغريت. آه لا، لا يمكن أن يطلبا مني تلك الأغنية.

مرت المركبة مرة أخرى عند الرابعة. ذهبت الفتيات لغسل الأطباق والأب والأبناء إلى قيلولتهم وهي عادة لدى المستوطنين، فيما رافقت الأم والكولونيل وماتيلد إلى الإصطبل، كان هناك آلة على البخار تشغل ناعورة البئر، وأشجار البرسيمون بجوار الحوض وشجرة دردار كبيرة بالقرب من المرأب الزراعي. للحديقة عبق النعناع والياسمين، قريباً يبدأ موسم العنب. وإلى جانب القبو عشبة معترشة أكبر حتى من نبات الوستارية، لها اسم غريب لاباسيفلور، أي «زهرة الآلام» والمسماة أيضاً شرخ الفلك. بعد موت أورتينس، قبل ثلاثين عاماً، حمل أحد ما بذور هذه النبتة من أمريكا الشمالية. في البداية بذرت ثم شتلت في أماكن متفرقة. تزهر نجمات بيض رسمت عليها خمس مطارق وثلاثة مسامير بنفسجية على شكل حرف سبعة[1].

(1) في النص الأصلي على شكل حرف Y بالأجنبية.

«إنه تاج شوك السيد المسيح»، قالت السيدة باري. «إنها تسمية خاطئة. لو سميت خميس المسيح، فقد تستدعي ذكريات وصوراً. ولو شئنا، فإن هذه التويجات تشبه نجوم البحر الواحدة تعلو الأخرى. ليس هناك ما يذكر بالغرب سوى هذا. يمكنها مواجهة غياب الشمس والعواصف، أليس ذلك غريباً؟ أما الشمس فلا تلائمها. هكذا كانت أورتينس. رقيقة، رقيقة جداً وقنوعة. ولكن في الحقيقة كانت لها روح، كيف أصفها؟ لا تقهر».

ورودها لا تدوم سوى يوم واحد وتنغلق على جوزة مستطيلة ذات قشرة قاسية. وتمضي ماتيلد في وصفها، وإن شققناها سنجد كريما لذيذة بداخلها.

رافقني الكولونيل.

«أنت لا تعرف فتيات باري. رومانسيات لكنهن يجدن جيداً استخدام البندقية. اسألهن من منهن أطلقت النار على متسكع في الليلة التي غاب الأب فيها في سيدي موسى، لنكتشف في اليوم التالي عند أسفل شجرة الجوز طربوشاً مضرجاً بالدم. بالنسبة لفتيات بويشو»، تابع واضعاً يده على كتفي، «هن قادرات على أن يفتنّك. فاحذرهن...».

أيّ أمل لي؟ وإن تمكنت ماتيلد من قراءة أشياء كثيرة عني، فقد بدت بعيدة، لم نتبادل أي كلام. أرى نفسي أشارك المستوطنين حياتهم التي لا تشبه إلا قليلاً حياة مزارعينا المحنيين تحت الأغصان الملتفة، سجناء الأرض الذين بالكاد يعرفون إلقاء تحية الصباح بقبعات ثبتت على رؤوسهم وكأنما بالمسامير، يلتهمون على مدى سنوات دهن الخنزير والبطاطا.

عندما غادرنا، ابتسمت لنا الأم.

«أتمنى أن نلتقي ثانية. عليك أن ترسل ابنك لزيارتنا».

وجدت روبير وقد خبأ في يده جوزة باسيفلور.

المدوّنة الثامنة

خبر مفاجئ عن إرسال البيانو الذي لم يبع في بار– سور– أوب.

عدتُ حزيناً.

حاول الكولونيل ومارغريت تسليتي بقراءة الصحف. درومون، الذي قدمت له الجزائر قيثارة ذهبية حضر جلسةً أخرى في قضية عرابه ماكس رِجيه[1]. بالقرب من أخيه باللباس الموحد للزواويين، تقدم رئيس البلدية المعزول متدثراً بالسواد. أما هو فقدمت له أغلال ذهبية راح يلعب بها، لقد وصف الحاكم بالقذر والقاتل والدجال. بعد الاستماع للشهادة، طوال الطريق إلى السجن المدني في بربروس، رُمي الجنود الذين يرافقون العربة بالحجارة.

لم أكن أسمع شيئاً. كنت مستعجلاً للذهاب إلى سانت– إيمي– لا– جديوية، منعاني من ذلك.

«بعد الفصح رجاء، ليس قبله».

وافقت من أجل روبير. في اليوم التالي، سلمته لمارغريت التي اصطحبته إلى احتفالات درب الآلام. رافقتهم إلى شارع باب الواد حيث تركتهم أمام الكنيسة. احتفلنا بعيد الفصح «كعائلة» ورافق روبير الكولونيل إلى قداس الكاتدرائية.

---

(1) Max Regis وهو واحد من القيادات الفرنسية المعادية للسامية والذي قام بحملات واسعة ضد اليهود في الجزائر وسيطر تحت قيادته المستوطنون المتطرفون المعادون لليهود على بلدية مدينة الجزائر في العام 1899.

صباح اليوم التالي، وخلال مرافقته لنا في وقت مبكر جداً إلى المحطة، انحنى عليّ قائلاً:

«على الأقل لم تصدم كثيراً بإقامتك عندنا؟».

وعندما اعترضت:

«أتساءل إن كانت فكرة سديدة زيارة سيدي موسى، فأنت رجل عاطفي، ستترك نفسك تنجر وراء آمال عقيمة. هذه هي الحياة يا صديقي، لن ألومك على شيء. عندما تعرف كل جرائمي التي اقترفتها...».

استغللت الظرف لأعرف المزيد عن ماتيلد، أخبرني الكولونيل كيف تزوجت. وبما أنه أمسى هناك شرطيَيْن في عائلة باري، الآخرون أولئك الذين من لاربعاء، يتصرفون وكأنهم في ديارهم، يأتون ويغازلون الفتيات في المزرعة. ما فهمته هو أن ماتيلد غير سعيدة، وبأنها تبحث عن أي حجة لزيارة أهلها. هل أراد أن يفهمني بأنها قد تطلق بطيبة خاطر؟ عندما يتحدث عن زوجها لا يسميه بل يقول «الشرطي». هنا يبدون متزمتين، لابدّ من أن هناك أسباباً أخرى للطلاق غير الكسل أو تضارب الأمزجة. السيد باري زعيم مُطلق: وإن كان يعاني من خيبة أمل ابنته بيد أنه لا يستطيع التساهل في فضيحة الطلاق. فقد كان هو العائق الرئيسي أمام ذلك.

لم ألتق ماتيلد منذ زيارتنا إلى سيدي موسى قبل عامين، لكن صورتها لم تفارقني. في سانت- إيمي- لا- جديوية لازمت فكري كالوسواس. كان يخيل لي وجهها مرسوماً على جبهة نجمةٍ صغيرة متوجةٍ بالشوك والمسامير والمناجل تلتئم في الليل. اليوم، تخيلها يجعلها أجمل بكثير من ذي قبل. أصبحت الموضوع الأثير في أحاديثي مع الزوجين غريبه، الوحيدان اللذان

يمكنني الحديث معهما عنها، لقد وضعوني دائماً في جو أخبارها.

منذ عشر سنوات وانا أنتظر الفرصة للقائها ثانية. فإن عدت إلى الجزائر، بعد أن عينت في روفيغو، فعلى أمل أن أسمع عنها أخباراً جديدة.

وفاة الأب باري في يناير الماضي، منذ عام، تماماً بعد الموجة الجديدة للجراد الأكثر فظاعة حتى الآن، هدمت الحاجز بيني وبين ماتيلد. كيف يتدبر الشرطي الذي لم يعد شرطياً ولكنهم ما زالوا ينادونه بذلك، أمور الاستثمار الزراعي الذي دخل فيه في بوقندورة؟

عند جادة الجمهورية كان احتفال كبير، شُغلت الصفارات لإبعاد الناس عن العربات التي تتوقف لمشاهدة مرور القطار أو تستدير لمتابعته عند المرفأ، وكأنهم بلا أشغال. متكئون على الدرابزين الحار، يتأملون البحر والمراكب في المرفأ. يتحدثون ويحلمون خاصة العجائز منهم، أبيلُس[1] كما يسمونهم هنا، صيادون نابوليون[2] قدماء يرتدون قبعات بحرية فوق وجوه مدبوغة وشفاهٍ تطبق على أعقاب السجائر، على مسافةٍ من العرب «هذا العرق الوسخ» ولكن العرب أيضاً يطلقون عليهم التسمية نفسها.

الشباب في مقاهي الساحة أو في باب عزون، يتحضرون مرة أخرى للقاء درومون وملاحقة اليهود. عندما أفكر بأني قد أعود لأجد هذا المساء بكري في منزلي يقرمش كعكه ويشرب قهوتي...

عند موقف أشجار النخيل قبل الساحة بقليل، ترجلت مع حقيبتي المجرودة وتوجهت إلى منزل آل غريبه. سألت أحد الجيران إن كانا في المنزل. أجابني بأنه يعتقد ذلك. آه، يا إلهي يا للفرج! هنا الجميع يعرف

---

(1) Abuelos أي الجد والجدة.

(2) نسبة لمدينة نابولي الإيطالية.

أخبار الجميع، يحفظون ما يرونه وما يسمعونه مدعين عدم التنبه لشيء. تسلقت الأدراج قفزاً.

جزائرية كانت تتفحص عجينة المونى المستريحة في سلةٍ مجدولة من أغصان الصفصاف تحت بعض الأغطية. في هذا الموسم تعبق الجزائر كلها بهذه الرائحة الكريهة بعض الشيء. وكالعادة، فقد خرج الزوجان غربيه، هذه المرة من أجل مناسبة مهمة: انتظار الابن ألكسندر الآتي في عطلة. هذا الخبر أزعجني، فوجودي سيزعجهما، أنا الذي سيأتي ويتكلم عن ماتيلد وبكري. بكري حسناً ولكن ماتيلد... شعرت بالإهانة. نادتني الجزائرية:

«ها هم، لقد وصلوا».

ترجلوا من العربة ثم انزلوا حقيبة جلدية كبيرة. سبق وسمعت بألكسندر، رائد في جند المشاة في حامية عسكرية في فرساي. بلباسه العسكري مع معطف مشدود إلى الخصر، وجدائل حول الأكمام وبنطال أحمر عليه حرف أسود، طويل نحيف كأبيه. للوهلة الأولى لم أستلطفه. شعرت أنه مغرور متعجرف مطابق للصورة التي كونتها عن الضباط. له وسامة أمه مع تقاسيم متعالية حادة لم أستطع تحديدها بدقة وشاربين شقراوين نحيفين. هل أحسّ نحوي بمثل هذا النفور. فبأي حق يدخل غريب مثلي بيته في لحظةٍ كهذه؟ عُرّفنا إلى واحدنا الآخر. صافحني دون حرارة، وعندما علم من أكون، لمعت عيناه بحذر، فقررت الرحيل في اليوم التالي.

ستبقى، قالت مارغريت بلهجة حاسمة. ستتعرف بشكل أفضل على ألكسندر.

بعد غدٍ، قال الكولونيل، سيكون هناك حفل موسيقي عند الميناء.

كانت رحلته ممتازة عبر البحر الذي كان هادئاً كسطح الزيت كما قال. سافر على الدرجة الأولى مع نخبة الجزائر، أثرياء المستوطنين وكبار الموظفين. تولّد في داخلي نفور ضد ما يمثله. أهله يحلمون له بمنزل جميل وزواج من وريثة كبيرة ويعمل والده على تعيينه في قسم الزواويين. لكن ألكسندر كان يفضل قسم المشاة في الجيش، وكما يقول، بسبب اللون الأزرق السماوي للقميص والقبعة. مضحك أن يقرر أحدهم مهنته وفق الثياب.

بعد القهوة بالحليب، انسحب ألكسندر لتبديل ملابسه.

«كيف وجدته؟»، سألني الكولونيل.

بذلت جهداً لكي أكذب إلا أنني لم أكن مقنعاً. فسارعت لشغل الموقف بالكلام عن بكري.

– ليس لطيفاً كثيراً، أليس كذلك؟ قال الكولونيل. إنه نسخة عني عندما كنت في مثل عمره. لا بل أعتقد أني كنت أكثر غروراً مع طبعٍ أكثر زهوٍ. فالنساء يحببن هذا.

– لا أعتقد أنه كان هناك ضابط في كل الجيش الفرنسي أكثر غروراً من هكتور، قالت مارغريت.

– ربما، قال الكولونيل. هلا أعطيت الرسالة للسيد دماتون؟

نهضت مباشرة.

حمل الغلاف ختم بار– سور– أوب. فأنا أتذكر أنه في نهاية إقامتي في مستشفى سيدي بلعباس قلت لوكيلي لإبهاره قليلاً، إنني سأسكن لدى الكولونيل غربيه. ما قرأته تركني في حالة ذهولٍ تامة. لقد تم دفع ثمن

البيانو منذ زمنٍ طويل واعتقدت أنني تخلصت من أمره. لا بل توقعت أن يعيدوا لي ثمن إعادة بيعه بعد خصم للرسوم. في الرسالة أعلمني البائع بأنه يستحيل عليه أن يحتفظ أكثر من ذلك بآلة لا يمكنه بيعها، وسيرسله لي بالشحن المضمون في أقرب وقتٍ ممكن.

يبدو أنه كانت لي هيئة شخص مصعوق.

«أمن خبر سيء؟».

ناولت الورقة للكولونيل.

«حسناً»، قال بعد أن قرأها سريعاً، «يمكنك بذلك أن ترافق غناءك بالعزف... إلا إذا فضلت أن تتركه هنا؟».

مررت الرسالة إلى مارغريت أيضاً. كما أن البائع أرسل لي فاتورة بالمبلغ المستحق، ما مجموعه مائة وعشرة فرنكات، خمسة فرنكات في الشهر كرسوم عرض، أي وقاحة هذه، ما يعادل تقريباً راتبي الشهري في الوقت الذي تمكنت فيه أخيراً، ومع التوفير الأقصى، أن أعدل ميزانيتي.

لا تقلق، قال لي الكولونيل. فالشحن لا يكلفك الكثير. أما بخصوص ما عليك دفعه، فيمكن للرجل أن ينتظر. إن لم يكن لديه سوى عنوانك هذا سنرمي رسائله في سلة المهملات. هل تعلم كيف كانوا يسمون فورت-نوف قديماً، هذه التي تحاذي الساحة، قريباً جداً من هنا؟ برج الزوبيا أي برج القذارة. إنها مزبلة الجزائر. هناك سنرمي الرسائل سيد ديماتون.

– لم أكن أعرف أن لديك بيانو، قالت مارغريت.

– لم أكن أعزف عليه.

– سوف تتعلم.

في لحظةٍ، عادت إليّ كل الحقبة السوداء من حياتي: دروس إجيني في

بار– سور– أوب، الليلة التي انتظرتها فيها، جرس البندول المتصدّع الذي كان يدق كل ساعة في العلية، الغيرة التي كانت تنهشني، شكوكي حول جونسون وسخريته. أظهرت تجهماً فهمته مارغريت خطأ. مع هذا البيانو الذي ربما يكون الآن في طريقه في البحر، عادت إليّ ذكرى إجيني المؤلمة. أدركت أني ما زلت مشتاقاً إليها بما أنه لم يأت من يحل مكانها، وبأني أعاني من الوحدة وبأنه ليس لدي سوى عائلة غريبه لتؤاسيني.

ذكرى اهتمام بكري عادت إليّ: القهوة، الكعك والبرتقال في حقيبتي.

الجزء الثاني

الحمل باسكال

جميعكم هالكون، جميعكم أخوة للأب الكبير نفسه الذي خلقكم. جميعكم على مأدبة الحياة الكبيرة، وبقلب أمومي، يغمركم برحمته الكلية.

أنشودة من سفر يوشع بن نون، تنشد أحياناً في شعائر الهاجاداه[1]

المدوّنة الأولى

الجزائر تستقبل درومون في احتفالات كبيرة ملوكية يوم سبت النور[2]. الموسيقى والحماسة والموكب والاستعراض الروماني. وصف لنائب الجزائر الذي يسميه الكولونيل احتقاراً «اللذن المقمّلة».

لطالما عنى لي سبت النور شيئاً. في فرنسا هناك من يمارسون الشعائر الدينية ومن لا يمارسونها، المؤمنون وغير المؤمنين. هناك ألعب دور اللامبالي، هنا دور الشكّاك وهذا سهل بالنسبة إلي. منذ وفاة الكاردينال

(1) «هاجاداه» كلمة عبرية معناها «القص» أو «القول»، والتي تُروَى بها قصة خروج اليهود من مصر في الليلة الأولى من احتفالات عيد الفصح اليهودي.

(2) سبت النور في المسيحية اليوم الذي يلي «الجمعة العظيمة» أي يوم صلب السيد المسيح، ويسبق أحد الفصح.

لافيجيري الذي كان في وقته بمثابة حاكم الجزائر، والذي حلم بتحويل العرب إلى المسيحية مستغلاً المجاعة بكل قواه لتبني اليتامى، ليس هناك أي نزاعات دينية أخرى سوى الصراع التقليدي. بعد الخطاب الشهير للكاردينال، منذ عشر سنوات والذين ما زالوا يتحدثون عنه، التحق رجال الدين بالجمهورية. في فرنسا، وربما كرد فعلٍ على أبي أكثر مما عن قناعة، كنت ضد تعليق تماثيل المسيح مصلوباً في المدارس. هنا أيضاً وبشكل أكبر، ولكن كيف يمكن قول ذلك دون أن أتضرج خجلاً؟ سيكون ذلك بشكل من الأشكال معيباً هنا. في يناير احتفل العرب مع نهاية شهر الصوم بالعيد الكبير ويحيون ذكرى التضحية بإسحق. لا يمكننا ألا نعجب بقوة الإيمان لديهم. ففي أعياد المسلمين تتغير البلاد. كل العرب يرتدون ملابس بهيجة، ويسيّر الاولاد خرفاناً مزينة، نسمع في كل مكان أصوات الناي والطبل. مع اليهود لا نعرف شيئاً. بعد حين نعرف أنهم احتفلوا بعيد الغفران الكبير أو بعامهم الجديد. ولكن هل يجب أن نسكن مدينة لنعرف ذلك. في قرى مثل روفيغو أو سانت– إيمي– لا– جديوية ماذا سيبقى إن عشنا وحدنا ولم نذهب إلى الكنيسة؟

عند الغداء تناولنا عجة البيض والكوكا، هذه الفطيرة بالطماطم مع الفليفلة وسمك البلم التي أعشقها. وللتحلية مربى البرتقال. المونى لا تشوى لدى الفران إلا يوم السبت. غداء خفيف وإنما لذيذ. أما أكل اللحوم يوم الجمعة العظيمة فما كان ليخطر لي حتى لو كنت ماسونياً.

كان البحر هادئاً كما في اليوم السابق. ظهر الجنرال شانزي[1] على

(1) الجنرال أنطوان شانزي (Antoine Alfred Eugène Chanzi) عُيّن حاكماً عاماً على الجزائر في 1873، وقبل ذلك شغل منصب قنصل فرنسا ببلاد الشام حيث عاصر وعايش الفتنة الكبرى بين المسلمين والمسيحيين. أطلق يد المستوطنين في الجزائر وكان من =

حين غرة خلف مركز القيادة البحرية، يمشي ببطء بطريقة ملكية لاجتياز الممر ثم يختفي خلف حوض الماء الذهبي. لتنطلق بعدها مباشرة رشقة قنابل على طرف الجزيرة الصغيرة. لحظة هلعٍ صغيرة من الحشد الذي سرعان ما تحول إلى الضحك والتصفيق.

بدت الدرابزين سوداء لكثرة الحشود، وغصت الأرصفة. عند المسمكة أناس يصرخون، اضطررت لدفع من حولي بكوعي لكي نحتمي من الحشد. على حدة، وقف بعض باعة للحلوى والبسكويت في الساحة ولكنهم لم يكونوا من العرب. ليس هناك سوى أوروبيين جاؤوا من كل المدينة من مصطفى وبلكور وباب الواد. ويقال إنهم حطموا ظهراً محلات في شارع دي لا لير، أفرغوا كل شيء وكسروا كل شيء ونهبوا أيضاً كل شيء. لم تكن الساعة قد بلغت بعد الثالثة بعد الظهر.

«من يشتبه به على أنه يهودي لا يمكنه أن ينجو».

نظرت بازدراء إلى الرجل قربي الذي غمزني وقال هذه الجملة البربرية.

النحاس يلمع، الموسيقى تصدح، لا يمكننا سماع بعضنا بعض. ألكسندر قال إنها مثل سامبر – إي – ماز[1]. جرارات السفن التي ساعدت

= دعاة توسيع سياسة التنصير والنشاط التبشيري في الجزائر وقد قدم مساعدة كبيرة للكاردينال لافيجيري ولكنه في الوقت نفسه حاول مالقة الجزائريين بالتقرب إليهم ومحاولة استمالتهم من خلال مشاركتهم أفراحهم وأعيادهم الدينية وحضور الولائم، كما أنه سمح لهم بالحج إلى بيت الله الحرام. ومن جهة أخرى حاول بسط نفوذه على كل المؤسسات في كامل التراب الجزائري وذلك بإنشاء القرى الاستعمارية وتأسيس فروع للبلديات منها فرع قرية سان سبريان التي أسسها الكاردينال لافيجري وأيضاً سانت مونيك.

(1) Sambre-et-Meuse دائرة فرنسية قديمة.

الجنرال شانزي لكي يعاود الظهور من الخلف ولينتقل إلى حوض المرفأ أطلقت صفارات طويلة.

«إنه هو!».

أشار لنا إلى فرقة صغيرة تلوح بالأيدي عند مؤخر المركبة. أدار الكولونيل منظاره. تحرك الزورق ولامس الميناء، فمد جسر المشاة أمام صفين من حاملي سعف النخيل وباقات الورد. عزفت موسيقى لا مارسياز أنتيجويف[1] التي يحفظها الجميع.

غطى اللحن الشهير المدينة بسحابة ثقيلة، كان يمكن سماعه من كل الاتجاهات، يتناوبون عليه، فما إن ينتهي عند الميناء حتى يبدأ عند الجادات والجسور. بجوارنا أناس شديدو الصخب لم يحفظوا جيداً كلمات النشيد، ينطلقون هاتفين مع اللازمة والفقرات المعروفة وكأنهم يدقون الكلمات بالمطرقة:

منذ زمن بعيد ونحن غارقون في البؤ—ء— س...

كيف يمكنهم أن يكونوا فرحين إلى هذا الحدّ تحت هذه الشمس التي تجلد الرؤوس؟ وجدت نفسي فجأة أصفّر مدهوشاً. فالبؤس لا يتناسب مع هذه الموسيقى التي تكاد تكون فرحة في عرضٍ لأوبرا صغيرة للهوصار[2] تحت خيمة ملهى مع فتيات يرتدين التنانير الحمر فوق براميل النبيذ الخشبية. وفي النهاية، تتحقق الأمنية الكبرى، وينجز النصر الذي يتردد صداه إلى ما لا نهاية في الواجهات البحرية والمتنزهات، وينفجر

---

(1) La Marseillaise antijuive المارسييز: النشيد الوطني الشهير للفرنسيين، ومصطلح مارسييز أنتيجويف يقصد به النشيد المعادي لليهود، للإشارة إلى مدى انتشار النشيد وأيضاً مدى العداء لليهود في تلك الحقبة.

(2) Hussar أي جندي من الوحدات الأوروبية.

فوق الحشد:

النائب درومون وماكس رِجيه إلى الحر– ي– ة!...

ناولني الكولونيل منظاره، رأيناهما بدقة وكأننا هناك فعلاً عند رصيف الميناء، يتعانقان، ثم يتباعدان قليلاً لكي يتأملا واحدهما الآخر. بدا لي درومون مائلاً إلى القصر، مكرّشاً قليلاً، وله ذقن هرمية الشكل تبرز تحت قبعته المائلة.

من خلال وشاحه، تعرفت ماكس رِجيه، رجلٌ أشقر، هو أيضاً يكاد يكون قصيراً. يؤكدون أنه يدين بشبهه ببونابرت إلى جدته التي أثارت انتباه الإمبراطور، تلك الجميلة الميلانية[1]. لم يتوقف هو ودرومون عن تبادل التهاني.

وسط جلبة الآلات النحاسية والأناشيد والصرخات، شق الموكب طريقه إلى المدينة وسط ذهول الحشود، يرافقه فريق من الشرطة يتحرك خلف الموسيقيين، حلّوا وثاق الجياد فهجم الناس باتجاه العربة متدافعين، ترجّل درومون ملوحاً بقبعته.

قيل إن عربة قطار خاصة ستنقلهما إلى البليدة في نهاية النهار. غدا ذلك تقليداً خاصاً هنا للرجال المنتصرين: «لقد جررت عربة درومون» سيقولون متفاخرين. حتى لو كانت عربة شخص غير ذي قيمة وقد حلّت خيولها الأربعة. الخيول التي حلّت بقيت مباشرة خلف العربة، لم تكن تلك المرة الأولى التي تشهد أمراً كهذا، لقد اعتادت على ذلك، حصانان بائسان وفرس كميت وحصان مدنّر[2]، أحدهما كستنائي اللون

(1) ميلانية نسبة لمدينة ميلان الإيطالية.

(2) حصان مدنّر أي حصان في شعره نكت تخالف سائر لونه.

والآخر مرقّط، بهائم حقيقية لجر كل أنواع العربات، بالنسبة لها تحريرها يعتبر مكسباً في النهاية، فهو يعفيها على الأقل من ضربات السوط على جنباتها. الرجال يلعبون بالخيول، والخيول في الخلف، تبدو مستعدة للهو. فقطْ بدفع بسيط، لا ضرورة حتى للإمساك بالرسن، لن تذهب. إلى أين ستذهب؟ لا بل تبدو وكأنها تسخر من صديقاتها التي تثقلها الشرطة بأحمال التجهيزات والجراب. الاستعراض بالجياد مرتبط باحتفالات النصر الرومانية.

أعاد الكولونيل المنظار إلى علبته، تقدم الرجلان، فتباعد الحفل فاسحاً لهما الطريق، كما تفعل السفن عندما تشق مياه البحر، يجب تسلق الدرابزين لتفادي الانجرار مع الحشد.

في البداية فرقة الشرطة بالسيوف المسلولة من أغمادها، بالزيّ الأزرق والأسود، مع جعب الأسلحة بلون جلد الجاموس ورائحة العرق والجلد المحترق في الشمس واللباد السميك، كيف يمكنهم احتمال لبسه؟ هذا يذكرني بوصولي قبل سنتين في الزيّ المديني المضحك مع حقائبي التي كنت أجرّها بصعوبة. بحثت عمّن يمكن أن يشبه زوج ماتيلد. عابسون، وكأنهم صنعوا جميعاً من قالب واحد، يقفون على قواعد مرتفعة قليلاً حتى لا يتعثروا في هذه الضوضاء التي تصم الآذان، لم تكن فرقة موسيقى عسكرية، رأيت اسمها: فرقة مصطفى[1] بحروف مذهبة على راية أخوية دينية بنفسجية اللون مع طبل وأبواق وطبل كبير وصنوج، جميعها آلات صاخبة، ثم آلات الناي والمزمار والبستون وكمانات ضخمة وسكهرون وتوبة، أما الموسيقيون فجميعهم يعتمرون القبعات البيض ويتابعون

(1) مصطفى هو أحد أحياء مدينة الجزائر العاصمة.

النوتات في دفاتر صغيرة، وكأنهم بحاجة لذلك مع أنشودة رتيبة كهذه:

كم هو مقززٍ

اليهودي بنظارته[1]...

بالنسبة إلي، اليهودي بنظارته هو درومون فوق عربته، شخصية كاريكاتورية حقيقية يلقي التحية ملوحاً بقبعته بيده اليمنى متشبثاً قدر المستطاع بمقعده بيده اليسرى، لا ينقصه سوى قبعة عالية ليلعب دور رئيس الجمهورية، سيصاب بضربة شمس من دون قبعته. أتذكر بأن بعضهم في فرنسا، يتهمه بان اسم عائلته الحقيقي هو دريمون، اسم بافاري[2]يعني»الأقمار الثلاثة» ويقولون إنه لا يشيع كل هذا الغضب إلا لكي يخفي عيوبه... تمكنت جيداً من رؤية أنفه المعقوف، عينيه الماكرتين خلف نظارتيه المدورتين، شفتيه المكتنزتين، لحيته التي تملأ وجنتيه، وزرّ ينفسج عند العروة... خطر لي أنه قد يرغب في الانفجار بالضحك وهو يرى كل هؤلاء المعتوهين يندفعون ليقبلوا يديه وذيل معطفه، والنساء يحاولن تسلّق السلالم، بعضهن يتعثر فيرفعهن الرجال متلمسين إياهن، ثم يعدن مرة أخرى محاولات التقدم، بعد أن يلثمن الإبهام ويرسمن علامة الصليب كالإسبان.

«شكراً أصدقائي شكراً...».

رأى ألكسندر، فمد له ذراعه وكأنه يقدّم للحشد نموذجاً عن ضابط بالبزة العسكرية، وكاد يتهاوى ثم تماسك واعتدل.

يمكن تفهم لهفة النساء على ماكس رِجيه: فهو شاب، بوجه طفولي

(1) المقصود هنا النظارة من دون ماسكتين.

(2) نسبة لمنطقة بافاريا في المانيا.

وسيم وشاربين أشقرين. تأملت جبهته الواطئة العريضة قليلاً وشعره القصير وحاجبيه المستديرين وأنفه المستدق وحنكه، وكتفيه ورقبته، رقبة مقاتل بدوي، مسايف ومبارز حقيقي، وقد بدا مفتوناً بهذه الحماسة وهذه الصيحات وضربات الصنج والطبل الكبير:

دورمون دوبيه وماكس رِجيه إلى الحر- ي- ة...

يقال إن هناك جمعيات نسوية تتجمع لضرب من تشتري من دكاكين اليهود. ماذا سأفعل يا إلهي، إن رأيت ماتيلد؟ سأركض إليها وأصطحبها وسأبدأ حتى بالغناء والصراخ: «فليسقط اليهود...» وما أهمية ذلك، فلكي أكون بقربها، وأقول لها إنها حياتي... بأمل لقائها هنا، جئت بملء إرادتي لحضور هذا الكرنفال إلى جانب الجياد التي تنتظر أن تُقرن من جديد، ولكن الكولونيل ما زال في مكانه لا يتحرك. ألكسندر لم يهتز غير أنه يمكن الافتراض بأنه شعر بالإطراء عندما صرخوا: «يعيش الجيش» فنال حصته من التمجيد، وتلك هي أساساً أفكاره.

تخطتنا العربات الأخرى: أناس عاديون، شقيق رِجيه، هيئة الاستقبال، القيادة العامة لدرومون، صحافيون ومصوّرون قد تخلصوا من معداتهم. لا سيارات، لأنها غالباً تتعطل في هذه الحالات. تباعد الصخب وتسلق الحشد سلماً آخر في الاتجاه المعاكس، ووصل حتى الواجهة البحرية حيث كانت تنفجر المفرقعات.

نظر إليّ الكولونيل وأشار لي بحركة تنمّ عن اشمئزاز.

«وكأن الجراد لم يكن كافياً»، قال.

تظاهر ألكسندر بأنه لم يسمع.

«أعترف لك، بأنهم استفادوا نسبياً من الوضع. قُدمت لهم بطاقة

اقتراع، تصرفوا بها ككتلة واحدة، ومرروا القوائم التي يرونها مناسبة. فبسبب قمل النبات، ما عادت المصارف تريد مساعدة المستوطنين، فحلوا مكانها ومولوا القروض، أعادوا شراء كروم وأراضٍ، فهم يتمتعون بحاسة شم عالية وقدرة على المجازفة، يعرفون كيف يلعبونها، إنه فن كامل. لو كريدي فونسييه[1]، عندما تدين له بفوائد ورأس مال عليك تسديده ولا تعتقد أنه سيتهاون معك: فإن لم تتمكن من الدفع يلاحقك ويجبرك على بيع ممتلكاتك بالمزاد العلني وإن لم يكن لديك أيّ ممتلكات يزج بك في السجن. دقّق في أسماء هؤلاء الرجال ولن تجد سوى المسيحيين. فاليهود أكثر ليناً: يقدمون لك ورقة أخرى لتوقعها. بين هؤلاء الذين يزعقون فليسقط اليهود كم هناك من دائنين يحاولون التخلص من دائنيهم؟».

رد ألكسندر بأننا لم نحارب سبعين عاماً وتركنا عظام مئة ألف جندي على أرض الجزائر لنسمح لليهود بأن يدمروا متيجة بمضارباتهم.

وقفت في وجه ألكسندر.

«في روفيغو، سيد متيجة ليس هو بكري...».

أدار لي ألكسندر بشكل صريح ظهره وأخفض قليلاً قبعته العسكرية على وجهه.

بالطبع، لم أولد في البليدة مثله، وأشك مثل أبيه بتجريم درايفوس وأتجرأ على الاحتفال بشجاعة زولا. يستطيع الكولونيل السماح لنفسه بكل شيء: أربعون عاماً في الجزائر، الزواج من فتاة مستوطنة، مسيرة مهنية في قطع أشجار التين تمنحه حق الاستفادة من منزل يهودي. أما أنا فلا أملك

---

(1) Le Credit Foncier أي القرض العقاري الفرنسي وهو هيئة مالية فرنسية متخصصة بتمويل الملكية العقارية، أسست في العام 1850.

سوى وظيفتي كأستاذ مدرسةٍ رسميةٍ للصف الرابع، طاولة خشبية، سرير محفر، بعض الكراسي، أدوات طعام هزيلة، بعض القمصان الرثة، عصا وقبعة بلون الشمام. ولا ينقصني سوى اكتشاف بكري عندي... وأهتم أصلاً بفتى من أهل البلاد والذي يزيد عليّ تكاليف الاهتمام بالصف. بمناسبة أحد الأعياد الدينية، قدم لي والد بلقاسم والذي يعمل كبائع، دجاج وحلوى. فسرت الشائعة بأنه تم شرائي. فأن أهتم بعربي وأن أعلمه مبادئ الحضارة والإملاء والحساب والتاريخ والجغرافيا فهذا يستدعي النميمة. هؤلاء الصبيان يبدون أذكياء جداً في صغرهم، كما يقولون، ولكنهم بعد ذلك، في السنة الثالثة عشرة أي في سن البلوغ، تذوي عقولهم بسبب الانسداد المبكر جداً لدرز القحف[1]، فقد درسنا ذلك في مادة علوم المختبر، يعميهم الجنس، ويسيل في عروقهم دم يضخ العنف والسذاجة. فلا يبقى من كل ما تعلموه سوى الظلام والضباب والرماد. فترتد حينئذ هذه الكلاب المسعورة على من خدموها وتعضهم، فهمجية دينهم تجعلهم مجانين.

هذه التناقضات تولّد لديّ فوضى ما.

استدرت تجاه الكولونيل: «لماذا لا تعقد هنا زيجات بين...».

بحثت عن الكلمات، فإن قلت «بين الفرنسيين والسكان الأصليين» فمن الطبيعي أن يأتي الجواب: هناك الكثير من الإهانة في المصطلح.

«... بين المنتصرين والمهزومين؟».

فهذا على الأقل ينقذ ماء الوجه. تخيلت كولونيل يتزوج من ابنة زعيم عربي في عرسٍ مهيبٍ، فانتازيا وضيافة.

(1) درز القحف أي إلحام الدماغ.

– يا صديقي، الأمر بسيط جداً: فهم يخبئون فتياتهم عنا. الإسلام يرفع الجدران بيننا وبينهم. دون هذه الحواجز، أعترف... لا تخاطر بذلك فأنا أعرف بعض الأشياء... ولكنك محق. فقد حصل ذلك مع بعضهم: ذلك الجريء إسماعيل اربان، مستشار نابوليون الثالث، أنتيّاس، وبعض آخرين وحتى المشرف العام السابق على المكاتب العربية فقد كانت له زوجة محترمة جداً. بالنسبة إلى الشخصيات، فإن كان ضرورياً... أما بالنسبة للعامة، لا يمكن كسر أحكام مسبقة بهذه القوة. فتاة من السكان الأصليين، تخيل: إنهن قبيحات قليلاً.

– وفي المقابل؟ ماذا عن بنات المستوطنين...

– لسن باهرات. لدى العرب ريبة تجاه ذكرى الغزاة. فعند مرورهم نثروا بذورهم في كل مكان. فلو جاؤوا إلى شامباني، لوجدت بعض قطرات من دمهم في عروقك. ماذا يقرب إليك الألمان أو القوطيون الغربيون؟.

ما كان لون عينيه، أزرق أم أخضر؟ إذ أبهر الضوء نظري. لاحظت أن لحيته تميل إلى اليسار بزوبعة تترك الشعرات على جهةٍ وتنفشها على الجهة الأخرى.

القوطيون الغربيون، لم يتكلم أحدٌ عنهم في عائلتي. فقد تعرضت بار–سور– أوب إلى الكثير من الغزوات... في القرن الخامس، دحرت أتيلا الرومان وأحرقت المدينة.

«أو أيضاً الروس؟ قد تكون متحدراً مثلاً من قوقازي...».

وبطريقة عفوية:

«يا صديقي، من نكون، نحن أبناء من؟ ألكسندر يعرف ذلك وهنا مكمن قوته. أنا ابن كاتب عدلٍ. ولكن قبل كاتب العدل، من أين يأتي اليونانيون الذين أتحدر منهم؟».

تذكرت هنا بكري عندما رأيت القطار الصغير يقترب، لن يتوقف قبل حدائق باب أيسلي، ولكن سيخفف سيره أمام الساحة.

انتصبت وثبّت جيداً قبعتي على رأسي، وتقدمت إلى حافة الرصيف.

«أستأذنكم، سأعود إلى روفيغو، شكرا، إلى اللقاء...».

قفزت إلى الحافلة التي كانت تسير.

رأيت الكولونيل يشير لي بيده. أما ألكسندر فلا. فقد يكون ارتاح مني كما ارتحت أنا منه.

في القطار شبه الفارغ، تنفست الصعداء. كنت سعيداً لأنني تحينت جيداً فرصة الانعزال. استقررت في إحدى المقصورات وأقفلت النوافذ.

المدوّنة الثانية

محادثة مع بكري مساء سبت النور. المدرّس يتناول العشاء في فندق أوترمال[1] وهناك تخبره مالكته الضخمة الآنسة فروادور، أن ماتيلد تنزل في الفندق.

يتباهى آل ديماتون بتحدّرهم من الألمان، عرق قاسٍ وثقيل وعدوانيّ وباروكي كما يقال. شغف أبي بالأعياد، من أين يأتي؟ هذا الرجل مفرط الجدية والفظاظة والازدراء، يبدو فجأة مرحاً عندما يستقبل أصدقاءه. يفتح برميل نبيذ ويوزعه بوفرة على الضيوف. أنا أيضاً أحب ذلك. كنت وأخواتي نختلس النظر من شق باب غرفة الطعام، مشدوهين، هذه الوفرة من الطعام التي تحملها لنا أمنا إلى المطبخ، والسعادة تملأ عينيها. ومسرحيات أبي الهزلية، ذلك المرح عندما يصعد إلى غرفته، تماماً فوقنا، عندما يسود الصمت مع رائحة الدخان وفجأة نسمع... نكاد نختنق من الضحك. فمن الرغبة التي تشتعل على وجوه الجميع، نعرف أنها ذروة الحفلة، اللحظة الأهم، المعجزة الكبرى: يجثم أبي على كرسي، ويبولّ، رمزياً، من الأعلى على رأس كل ضيوفه وعلى العالم كله.

عندما يثمل أبي، وعندما كان ما يزال يحتفظ بصوته نقياً كما مقرئ التراتيل، لأن المدرسين في زمنه كانوا يرتلون في القداديس، يبدأ بإنشاد الأغاني بلحن كنسي يؤلف هو كلماتها برطانة لاتينية مع الكثير من أوس وأوروم، وفي النهاية يكسر كأسه على الطاولة. بعد التهريج والضحك،

(1) Hotel des Eaux Thermales.

يأتي المزاح التيتوني[1] الثقيل، ألا يكشف هنا عن هذيانٍ سلافي، بعض جنون من الدرجة العالية، حيث يهب الهواء من عرقٍ آخر من الغزاة والحالمين؟ ألا أكون بذلك كما ألمح الكولونيل ثمرة دبٍ روسي؟

لم أر القطار يمر بالداي حسين ولا الخروب ولا بتقاطع ميزان– كاريه ولم ألحظ توقفه عند محطة الكينا. في لاربعاء تذكرت بكري، السائق يطلق الصفارة باستمرار، والقطار ينفث الدخان بقوة، والمقصورات تتقافز، وعلى الطريق مررنا بسائق دراجة يلهث تعباً. هبط الليل، أخرجت ساعتي من جيبي، لقد قاربت السابعة، رأيت أشياء مريعة، جمهرة في ساحة الكنيسة، أناس يبصقون على أحدهم، وخيل لي: «أتقولون إنكم عثرتهم عليه في بيت المدرّس؟» يتساءلون عن تاريخ ذهابي، بعضهم يقول يوم الجمعة، أما الغالبية فيقسمون، فهم يقسمون هنا كثيراً في الجزائر باسم أمهاتهم وأولادهم وأيضاً الموتى، بأنه كان يوم الخميس. كلمة الفصح اليهودي صدمتني.

عندما توقف القطار، فوجئت بمدى الهدوء. رمى الليل معطفه الداكن على جبال القرية، رائحة المونى الساخنة تفوح من المخبز، مصابيح مضاءة في البيوت وفي أوتيل أوترمال حيث يجب، إن كان بكري هنا، أن أذهب للعشاء. أرغب بطبق من الحساء العربي، الشوربة، واللوبية في المطعم الجزائري القريب من بقالة أمازيغية، ولكن لا ينبغي على مدرسٍ أن يتردد إلى أماكن تحسب غير لائقةٍ به. سيكلفني الغذاء نحو ثلاثة فرنكات. وبما أنني لم أتكلّف سوى ثمن التذكرة إلى الجزائر، يمكنني الاستمتاع بهذه الوجبة. أو إن كان بكري قد ذهب، فيمكنني أن أرضى بالفتات.

(1) Teutonne تسمية شعبية تحقيرية للألمان.

بعد ضوضاء الجزائر وزحمتها، كنت سعيداً بالعودة إلى منزلي. متيجة، حيث لم يكن هناك سوى الندى الكثيف كل صباحٍ الذي يذكر فرنسا، أشعر أنها موطني إلى حد ما، ولا ينقصها حتى تكتمل سوى أن تنضم إليها ماتيلد. بقدر ما كنت أحلم بأن يتحول السهل كله إلى حقل ورود...

المفتاح ما زال في مكانه، تحت المصاريع. فتحت الباب بهدوء ودخلت وأقفلته خلفي. لم أكن أحمل أعواد ثقاب. تقدمت في العتمة باتجاه المكتب. وبصوتٍ خفيض سألت: «هل أنت هنا».

لم يجب فوراً. فأعدت طرح السؤال قلقاً.

«كنتُ نائماً»، قال أخيراً.

فشعرت بالراحة، لا بل بنوعٍ من السعادة.

«أشعل شيئاً ما».

سمعت طقطقة مفرش السرير. نهض، نور ما يضيء وجهه. كل شيء كان مرتباً، منظماً ونظيفاً. فجأة انتابني الخوف.

«هل جاءت الجزائرية؟».

لوى قليلاً رأسه من اليمين وإلى الشمال مع هذه الطرطقة الخفيفة في اللسان التي تستعمل إشارة إلى النفي. أعدت طرح السؤال مرة أخرى.

– البيت منظف.

– من سواي سيفعل ذلك؟ إنه لأمر طبيعي.

– وهل تعمل في يوم عيد الفصح عندكم؟

نظر إليّ بشيء من الارتباك.

«اليوم هو السبت، لم أتحرك من سريري. هل جاء درومون؟».

رويت له تفاصيل وصوله، والموكب في المدينة وأخبرته بكل ما

حصل.

– أجل، ولكن..

– في البليدة لم يحصل أي شيء أيضاً.

– حسناً، حسناً. هل تغذيت؟

لم أكن أريد الكعك ولا البيض، فقط لو لم يكن هنا... لكنت خرجت وأثبت أنني وحيد.

لم اشأ أن أقلقه، لم أخبره برحلة القطار الاستثنائية إلى البليدة.

ربما لستَ من المؤمنين؟ سألته.

تغضن وجهه، استطال أنفه أكثر، وكاد جفناه أن يقفلا.

«أنت تشعرني بالخزيّ سيد ديماتون. الفصح بعيداً عن دياري، يا للتعاسة! فما يهم في النهاية هو عشية عيد الفصح، وقد احتفلت به بين العائلة، أجل أنا مؤمن».

وأصرّ: «سأعرفك على أصدقائي من آل بني سعيد، سيد ديماتون، رجال شقرٌ، طوال القامة، أقوياء، كان لديهم الكثير من الأراضي عند وصول الفرنسيين. لستُ بطلاً. ولكن هؤلاء الرجال، بلى. للأب سلطة هائلة. فمع أولاده، تمكنوا من مقارعة الأوغاد، يسكن في حيّ عبدالله في البليدة، والذي نسميه «حيّ اليهود». العام الماضي، أطلق ماكس رِجيه محرضين. كان هناك عدد هائل منهم، كثيرون جداً لحد أنه كان يقع بينهم جريح كل أسبوع، رعب حقيقي، جبابرة. كل الناس أقفلوا متاجرهم. نزل الأب بني سعيد وتقدم. أمسك الرجل من رقبته ورفعه ثم رماه أرضاً. اشتكى الرجل بدعوى أنه ضرب وأصيب. ألا تتذكر ذلك؟ وحصلت محاكمة. ألم تكن هناك؟ كل الناس جاؤوا ليشهدوا حتى إرسالية ريتشي

الدينية وهي كاثوليكية. قدموا شهادات زور لصالحنا، وبرئ بني سعيد.

– إذن ليس لديك ما تخشاه.

– أنت لا تفهم. أنا أتحدر من عائلة يهودية إفرنجية[1] من علماء الآثار. صاهرت دانينوس باشا من عائلة أبوكايا... وبالطبع، ينتهي بنا الأمر بأن نتزوج من يهوديات من أصل جزائري...

رفع يديه محدّقاً بعيني لكي يقنعني.

«أنا مسا–ل–م، قال مقطعاً الحروف مشدداً على آخرها. صديقي بني سعيد يشكو دائماً من أن أولاده يتعلمون ويتحضرون ليصبحوا محامين أو كتّاباً بالعدل. يقول إنهم غير قادرين على حمل كيس طحين على أكتافهم. أنا أكثر هشاشةً منهم، سيد ديماتون، ويغمى عليّ عند مشاهدة الدم. حضرت لي زوجتي مؤنة وقالت لي: نحن النساء، لا خوف علينا. درومون هنا وأنت من يمكن أن يلاحقوه. اذهب. ألا تريد أن تقرمش بعض الحلوى؟ ألا تحب هذا؟».

نظرت إلى ساعتي. «أريد أن أذهب للعشاء، أطفئ النور ونم».

ينامون باكراً هنا، قلت له. في الفندق، في مطعم أجيورني المضاء بغاز الأستيلين، ترددت في اختيار طاولة. فندق أوترمال، كلمة كبيرة بالنسبة لما هو في الحقيقة: مقهى شعبي مع خمس أو ست غرفٍ في الطابق الأول. وهو فندق مزدهر الأعمال، فمنذ أن وصل القطار الجزائر بروفيغو، تحول الفندق إلى محطةً للنزلاء. بسبب حمام ملوان[2]، على بعد بضعة كيلومترات

(1) الكلمة المستعملة في النص الفرنسي هي franc وهم مجموعة من القبائل الجرمانية والتي انتقلت في القرن الثالث عشر إلى منطقة غول (جزء من فرنسا وبلجيكا وايطاليا) وأسست فيها مملكة.

(2) حمام ملوان هي إحدى بلديات ولاية البليدة في الجزائر.

عند أسفل الجبل، تقريباً عند أول الحرّاش. لم أزر بعد الينابيع. يقولون إن حرارتها تصل إلى خمس وعشرين درجة، كبريتية، حمراء، تقضي على الروماتيزم والحمى والالتهابات الجلدية، هناك بعض أشجار الزيتون، ومربط يذبح الجزائريون فيه الدجاج كتضحية من أجل إنجاب الذكور. ويحكون عن معجزات بهذا الشأن.

جاءت صاحبة الفندق قائلةً:

– لم نرك منذ زمن طويل سيد ديماتون، تفضل. لا، لا، لا نقول الوقت متأخر لك أبداً. عمّار!.

إنها امرأة مسنة من كوريز، بالقرب من تول، الآنسة فروادير التي بلغت الستين، كعكة صغيرة بيضاء تتوج رأسها وعينان سوداوان شديدتا الحيوية وصوتٌ نحيل.

سارع الصبي الجزائري إلى تهيئة طاولة لي، وأحضر لي حساء اللحم والخضر بالشعيرية.

– بعد ذلك، سيكون هناك لحم العجل مارينغو مقلي ومعجنات. هل يعجبك ذلك؟ وللتحلية مونة[1] ساخنة. لكن لم يحن بعد وقتها، ربما كنت تلتزم بالعادات، ألا تريد منها؟

– التقاليد الجزائرية، كما تعلمين آنستي...

– مثلي. عندما لا نكون من تلك البلاد... أتعجل لخلع هذه المريلة والعودة إلى كوريز. لقد رأيت كثراً منهم، أضافت وهي تتابع بنظرها الخادم الذي كان يبتعد. انتظر عشر سنوات وستعرف فضائلهم.

هذه بالطبع أوهام بلقاسم.

---

(1) هو نوع من الكعك الذي يعد خصيصاً لأيام «الاثنين» في عيد الفصح،

«فقط، لو أمكننا الاستغناء عن هؤلاء الصبيان. أنت تدرّس ولست بحاجة لهم. أو ربما من أجل تنظيف المنزل. ولكن هل تتخيلنني أنا أو المستوطنين، من دونهم؟».

كانت ودودة معي، إنها امرأة مؤثرة الآنسة فروادير. الناس في روفيغو يهتمون لأمرها وأفكارها وازنة عندهم، فإن كانت إلى صفك فهذا يعني أنك ستربح. والوسيلة الأفضل لتعزيز صداقتها هو استئجار غرفة عندها. مع مرتب مثل مرتبي؟ ثم أنه وعلى الرغم من أني أفترض أنه في سنها نسقط أي دافع غرامي للتودد، كنت أخشى رغم ذلك مواجهة كيلواتها المئة. هذا المساء أسرفت في اعترافاتها.

وكيف يعقل أن يكون اسمها فروادير[1] في حين أنها مشحونة بكل هذا اللحم! نتساءل ماذا كانت تشبه في صغرها، عندما كانت بلا ثديين ولا قامة. ما عدنا نعرف أين يبدأ هذا وأين ينتهي، حتى إنها بلا عنق، كاحلاها منتفخان ولكنهما ما زالا يتحركان فوق قدمين سمينتين، فهي في كل مكان في الوقت ذاته، تراقب المحاسبة والمطعم والخارج، ولا تتردد سوى في صعود الدرج. فكل ما يأتي من الجزائر أو البليدة أو من لاربعاء يمر من أمامها، على الطريق العام. لا يحجبها عن البيوت الأولى في الساحة سوى المدارس. فضولية، متحمسة، لها عين قادرة على رؤية كل شيء، فهي سجل أحداث القرية. ولمعرفة ما يجري يكفي فقط سؤالها.

لا تبدو خبيثة. فأعلى وجهها المكتنز يبدو رقيقاً جداً بيد أن نظرتها تشبه نظرة خنزير ماكر. أهو مرض أم نقص عاطفي جعلها على ما هي عليه؟ تجر خلفها كلبة صغيرة بيضاء مع بقعة سوداء على الظهر، نظيفة مرتبة،

(1) الاسم كما يأتي في الرواية هو Froidure ويعني بالفرنسية سفح الجليد أو الصقيع.

تتغذى جيداً، كقطعة نقانق مشعرة، نشيطة كصاحبتها التي تلازمها دوماً، تعرج قليلاً بعد أن تلقت ركلة من حصان، إلا أن ذلك لا يمنعها من أن تجر نفسها، لا بل جعلها أكثر غنجاً لأنه ما عاد بالإمكان معرفة أي من القوائم هي المصابة، مرة ترفع هذه ومرة تلك. ابنة غير شرعية لترير ثعالب وكلب قبلي، كُليبة تنبح بصوت عدواني مرتفع أطلقت عليها الآنسة فروادير اسماً مسيحياً: صوفي.

أردت تغيير الحديث.

– لديك الكثير من الزبائن...

– بالطبع، إنه موسم الأعياد. ولو أنه لن يخطر ببالي أن أذهب إلى حمام ملوان لآكل الموني. عندما سيبنون فندقاً هناكِ وهذا ما يفكرون فيه منذ زمن، سيخف الإقبال على روفيغو. ولن أبقى حينئذ هنا. وفي انتظار ذلك، وابتداء من السابعة من صباح غدٍ سنبدأ بجرهم. الآن يريدون أن يناموا. الحمام، إنه لذريعة جيدة. هذا شأنهم. أنا لا أطلب من الزبائن شهادة زواجهم. عمار، هيا الطبق التالي...

ابتعدت. وهرول الخادم ليبدل طبقي. ثم عادت مع قنينة نبيذ أحمر من سطاوالي[1].

«اسمح لي بأن أقدم لك هذا، فأنا أحتفظ بها لك. لو علمت بأنك آتٍ لكنت دللتك». كان لها صيت بأنها طباخة ماهرة. فهي تشتهر بعجة البيض بالكمأة التي تعدها. لكن سنها أبعدها عن الأفران.

– أنا أكيدة من أنك لا تحب ما يؤكل في البلاد[2].

(1) سطاوالي هي مدينة جزائرية تابعة لولاية الجزائر.

(2) البلاد يقصد بها هنا الجزائر، هكذا كان يسميها الفرنسيون في تلك الفترة.

– حسب.

– لا تقل لي... فأنا أعد الكسكس مرةً في الأسبوع، إنها أكلة المتوحشين. إنها جيدة بالنسبة لأناس ليس لديهم سوى الغنم والشعير والكوسا. أنا على أية حال...

لم أملك الوقت للإجابة عليها، فقد ذهبت، تتعقبها صوفي، لتتفقد عمار والمطبخ والدرج والساحة. ليس من قاسم مشترك بين نبيذ سطاوالي والنبيذ هنا، فهذا الأخير لاذع، له عبق النبيذ، ورائحة الشمس والكينا. عندما عادت، ولكي أطري عليها، طرطقت في لساني متلذذاً.

– هل أعجبك؟ يقال إنه مثالي رائع. فأنا أصبحت شيئاً فشيئاً محرومة من كل شيء. ما عدت آكل سوى الخضار والجبنة ولا أشرب سوى الماء. هجرني كل شيء. ما عدت أرغب سوى في رؤية نهر كروز يجري بين الصخور، والربيع، الربيع الحقيقي. قالوا كثيراً إن الطقس جميل هنا... أي مزحة هذه! ما زلنا في أبريل وبدأنا نختنق من الحر وبدأت تهبّ الريح الشرقية الجافة. ربما يبرد الطقس الأسبوع المقبل. يكفي، ها، صوفي؟ أنت لا تعرف فرنسا. كان عليك أن ترى استياء الفرنسيين من السكان الأصليين، ما عاد بإمكانهم تحملهم. يقال إنه بات لفرنسا رائحة ما. أتريد المزيد من المعكرونة؟

– لا شكراً.

كنت آخر الزبائن، لكنني لم أشعر بأنها مستعجلة للذهاب للنوم. أحضر لي عمار التحلية: لوز أخضر. عندما أدارت ظهرها وضعت حفنة في جيبي. «سيكون هناك الكثير من الناس في القداس يوم غدٍ. وسيحقق الكاهن نجاحاً كبيراً، فإن لم يكن هناك أبناء أبرشية مثلي ومثلك لن يكسب

معيشته. جاءت عائلة السيد فيرتو من سيدي موسى. أنت تعرف الأب؟ فقد ناهز الخامسة والسبعين. ثم إنه لدى السيد باري...».

ترددت.

– هذا ليس مؤكداً بعد ولكن يمكنني أن أخبرك: واحدة من بنات باري، الكبيرة بينهم، ماتيلد، هنا. زوجها شرطي سابق. هل فهمت عمّن أتكلم؟

– نعم.

لم أكذب مع أني لم ألتقِ أبداً الشرطي.

«لدي الكثير من المعلومات عنهم. فهي تطبخ بشكل ممتاز كما تبدو أيضاً شجاعة. سأتخلى ربما لهم عن الفندق. ما رأيكِ؟».

شعرت بالختناق، ولكي أستعيد رباطة جأشي كان عليّ أن أسكب القليل من النبيذ وأتظاهر بالتفكير.

– سنأسف عليك، آنسة فروادير.

– أنت ربما أما الآخرون...

وعادت تتكلم مرة أخرى عن كلبتها، لم أكن أسمعها. ماتيلد هنا، أكاد أرتجف. لهذا إذن قفزت غريزياً إلى القطار، كان ذلك من أجلها وليس من أجل بكري.

طلبت الحساب.

«اتركه الآن، ادفع آخر الشهر».

نهضت واستللت غليوني وحشوته. وقفت بصعوبة على قدمي لا بل كدت أتعثر بصوفي. انحنت الآنسة فروادير وحملت بحركة سريعة الكلبة بين يديها.

– أتعرف لماذا أحبها؟ قد يبدو لك ذلك ساذجاً. فلأنها تعتقد بأني أبدية وهي أيضاً. فهي لا تعرف، لا روح لديها.

– أأنت متأكدة من ذلك؟

قلت ذلك بالصدفة، فبدت لها كلمة عميقة.

«ربما كنت محقاً».

توقفت عند عتبة الباب. وكأنها تريد أن تسترسل بالتفكير في سؤالي وبفكرة أن لصوفي روحاً. في الجهة الأخرى من الشارع، تنبهت أنني لا أعرف إن كانت ماتيلد جاءت وحدها مع شقيقها أو أن الشرطي يرافقهما. لم يكن بإمكاني العودة وسؤال الآنسة فروادير. كان عليّ أن أبدي عدم اكتراث بماتيلد، وأن أدعوها للتفكير وألا تقرر بهذه السرعة. اجتزت الساحة ونزلت، كما في ليلة العاصفة، باتجاه أشجار الكينا.

إنها هنا، إنها هنا! قلبي يدق بسرعة. كل شيء تغير. تعطّر الليل، واكتمل القمر، قمر هائل «فروادير» السماء، عالياً فوق بلاد القبائل، قمر ليلة عيد الفصح، مونة بديعة مع صفار البيض يضيء السقوف ومنحدرات الجبل، نرى بوضوح وكأننا في منتصف النهار وكأن الأرض تغلي. في المقابل، في البعيد، قرع نداءات مثل نغمات وترية، نوع من الذبذبات المشوشة التي لا يمكن أن نتنبه لها في النهار، وصرخات العصافير التي تتخذ من الظلام مملكة لها، بنات آوى تعوي بحدةٍ أقل من العادة. ستذهب صوفي للاحتماء بسيدتها دافنة خطمها في كتلة اللحم حتى لا تسمع عويل الكلاب العربية في الدوار التي ربما تتساءل قليلاً مثلي عما جرى.

بالنسبة إليهم، إنه القمر وسره اللذان يثيران القرية، بالنسبة إلي إنها صورة ماتيلد ووجودها في الجوار. عندما ظهرت إجيني في أركونفيل،

سلبت عقلي، وهذا يشبه، هذا ما بت أعرفه الآن تماماً، الصلصة اللاذعة التي نخلطها بالكسكس: ملعقة واحدة تلهب فمك وتشعل النار في جسمك كله. ماتيلد، في الروح. في الليالي التي كنت أقضيها منتظراً إجيني في لاجيبري، كانت السماء تنشق، وأشعر بأن السقف سينهار كلما دقت ساعة الحائط. ولكن ذكرى ماتيلد تجعلني أسبح في بحر من الرقة. لا أشعر بأي خوف، بالعكس، هذا الفانوس وضوضاء بنات آوى والضفادع وصرارات الليل والبوم الكبير والكلاب، وكأنها تحتفل بماتيلد التي ربما تكون قد نامت، قريباً جداً من هنا.

ضربت موقد الغليون براحة يدي لأفرغه من الرماد. ماذا يمكنني أن أفعل بهذا الكم من الذكريات؟ دائماً هذا الغليون بلون زبد البحر الذي أهدتني إياه إجيني، ليلة عيد الميلاد الرهيبة التي قضيناها معاً. كل مرة أقول إن عليّ التخلص منه، ثم لا أملك الشجاعة لذلك. احتفظت به، فهو تماماً بقياس يدي وللتبغ فيه طعم جيد.

الدخان، هذا كل ما تبقى لي من إجيني.

المدوّنة الثالثة

لقاء الناطور الحذر والفضولي، الذي يطارد دائماً المتسكعين العرب والذي يكتشف بكري.

تعيش إيمي باري في طرف القرية لجهة اليمين. ما كنت أتجرأ للذهاب من هناك. ماذا سأقول إن فاجأوني بالصدفة؟ ماذا سيخيل لهم لو رأوني أتردد أمام المنزل؟ لابدّ من أن ماتيلد ذهبت إلى المزرعة لاستشارة والدتها، ورأت هناك روبير. ألم تأتِ إلى روفيغو بقصد الالتحاق بي؟ يفترض أن الشرطي لم يرافقها. نوع من الصلاة الوثنية تدفقت في داخلي: «أيها الليل الكبير القوي الذي يحول الأرض إلى حجرٍ لبني، قل لي أين هي محبوبتي، أرشدني إليها، لأرتوي من ثغرها مثل جدي ظمئ، لأذوب فيها... فانا أدرّس الأولاد الواجبات الوطنية وحدود الدول وأسماء الأنهر وسرّ البركان ومنسوب استهلاك الصنابير للمياه وألوان ريش العصافير وقصص الحروب وتورايخ موت الرجال وأعمار الأحجار وطريقة الاستفادة من النباتات. محبوبتي تعلمني لماذا أنا موجود في هذه الحياة. في هذه البلاد هناك دائماً نجمٌ مذنب يأتي ليخبرنا بشيء ما: إنه هي. راقبت في السماء ظهور شهبه وذيله...».

كنت حصاناً برياً أعدو بين الوديان وأتسلق القمم، صاعداً باتجاه القمر. ودون أن أعي ذلك، وجدت نفسي أتكلم بصوتٍ عالٍ، وإذا بظل أسود ينبت أمامي. توقفت.

«أهذا أنت السيد ديماتون؟ كدت تخيفني».

إنه الصوت البليد لحارسنا البلدي الضخم.

«كنت أتساءل من ذا الذي يمشي هكذا على الطريق، بهذه الخطوات كراك، كراك، واحد، اثنان... هل تتنزه؟ أنت تعرف، كن حذراً...».

حزام البندقية الذي يخفي صدره يتدلى من طرفه مسدسٌ، وضع على كتفه بندقية الصيد التي كانت فوهتها المزدوجة تلتمع. حافة قبعته تظلل عينيه، الكثير من القش يغطي وجنتيه، وكأن شاربيه الكبيرين كسيا بالجليد.

– ما كنت ستطلق عليّ الرصاص أليس كذلك؟

– لا بالطبع لا. جذوع التين[1] لا تمشي مثلك، فهي تجرّ نفسها جراً ولا نسمعها، لقد اعتقدت...

تنبهت حينها أني تخطيت أشجار الكينا، ووصلت إلى غابة الزيتون الصغيرة على بعد خمسمئة مترٍ من القرية، على طريق شبلي[2] وذهبت باتجاه حقول إبرة الراعي، فرائحتها تفوح هنا كأنما على بحيرة ساكنة، لقد شممتها.

– ... اعتقدتك جندياً، أضاف. هل خدمت مع الزواويين؟

– أبداً سيد لوفلوش. لم أخدم العسكرية أساساً؟

هو رقيب سابق، ما زال يخال نفسه في الخدمة العسكرية، يسيطر بحزمٍ على القرية، يشرف صباحاً على انطلاق الأغنام والماعز إلى المراعي

---

(1) جذع التين كانت من الكلمات التي تستعمل لتحقير الجزائريين على اعتبار أن الجذع شيء ثابت لا يتحرك او لأنهم كانوا يمضون اوقاتهم مستلقين تحت اشجار التين، والإشارة هنا إلى بلادة الجزائريين في مقابل نشاط المستوطنين الذين زرعوا الأراضي التي سيطروا عليها.

(2) مدينة في ولاية البليدة في الجزائر.

عندما يرن الراعي جرس الانطلاق...

– أنت تعرف، أكملت، عندما يكون المرء وحده، وليس لديه من ينتظره...

– أعترف لك، أنه ولكي تمشي ليلاً هكذا...

هل ينطوي كلامه على سخرية؟ القمر مكتملاً، يبدو وكأنه يغطي بالهلام الأبيض جنبات الجبال المزينة بالأضواء التي تنطفئ ثم تشتعل. إشارات؟ يبدو أن الضفادع تعبت ولكن الصراصير انطلقت من جديد، وكأنها ترافق حديثنا بضحكات متقطعة. كانت تفوح من لوفلوش رائحة التبغ، مشيت بإيقاعٍ أسرع منه ثم خففت سرعتي. خلال النهار، قد أتركه وأمشي لأننا لا نملك ما نتحدّث به، أما هنا؟ فالقرية ميتة من دون أي ضوء. كانت خطواتي ترنّ في حين لم يكن يصدر أي صوت بحذائه الرياضي ذاك، بالكاد ضربات خفيفة. يتلفّت طوال الوقت حوله. وتحت أشجار الكينا حيث العشب قصير جداً، تمتم:

«عادة، يكونون هنا، مستلقين، نتساءل ماذا يفعلون، يثرثرون، ينامون. ولكن هذا المساء ليس هناك أحد. أو أنهم رأوني فهربوا».

والآن في القرية، وصلنا أمام مدرسة البنات ثم أمام مدرستي التي تخطيتها. لم يشأ أن يتركني. وعندما وضعت يدي في جيبي تحسست حبّات اللوز الأخضر.

«إنهم في كل الأمكنة التي لا يجب أن يكونوا فيها. فأنا أكشفهم. وأحياناً، كما هذه الليلة أعود فارغ اليدين. في فرنسا، تترك العصافير في بعض المواسم أرضها. الشحرور مثلاً. في الصيف تظنها رحلت، لا يبقى أي منها. وفي يومٍ جميل في نهاية الخريف، تسمع هدير أجنحتها: لقد

عادت. العرب هم هؤلاء الشحارير».

توقف فجأةً.

«تقول لي إنك وحدك؟».

عادت خطواته، فتبعته قلقاً. وقف أمام المصاريع.

«اسمع».

في البداية لم أسمع سوى نباح بنات آوى ونعيقاً بعيداً. وإذا بصوت شخيرٍ يأتي من المطبخ، متباعد ولكن منتظم. ما زال يشخر، هذا الثور، لقد فضح أمري.

«إنه ليس في أيّ شكل صديق الآنسة روسي، فهي ليست هنا. ثم إنه، من بعيد جداً... هناك أحد ما في بيتك».

أنا أيضاً كمن ضبط بالفضيحة، لعبت دور البريء وابتسمت.

لا يمكنني أن أقول لك. لا يجب أن يعرف أحد أنه هنا.

هل الأمر متعلق بالنساء؟

كان هناك مزيج من السخرية والحذر في صوته. عمّن يتحدث؟ للحظة فكرت بإقحام ماتيلد في الأمر. ولكن لا، خاصة هي لا.

«أريد أن أعترف لك، إنه يهودي من البلدية. صديق الكولونيل غربيه، عم عائلة باري بالمصاهرة. أتعرفه؟».

ترددت لكني في النهاية قررت:

«هذا المساء، درومون في البليدة، يلاحق اليهود. لو كنت في مكاني هل كنت لترسله؟ انا استبقيته به. هل لديك شيء ما ضدهم؟».

لم يجب. أخذ يتأملني وقد ارتسم على شفتيه شيء من السخرية سخرية. أخذت المفتاح عن إفريز الشباك.

– أتريد رؤيته؟

– أنت حر في استقبال من تشاء. ولكن يهودي في هذا الوقت بالذات أمر حساس.

– أنا أعرف سيد لو فلوش. الأخلاق المدنية هي هاجسي.

تحدثت بصوتٍ خافت ولكن شيئاً فشيئاً جعلته مهدداً:

«بماذا تدينهم؟ سنعلق إعلان حقوق الإنسان في كل المدارس: فمجلس النواب صوّت لهذا القرار. إذن؟ هذا الرجل سيذهب غداً. لست مضطراً إلى أن تكون على علم بمروره من هنا».

مد لي يده النحيلة.

«لا أرغب سوى في حمايتك، سيد ديماتون».

ذهب. يدي ترتجف، لم أعرف كيف أدخل المفتاح في القفل. هذه المرة كنت أحمل أعواد ثقاب، لكن لا حاجة لها، فشعاع القمر كان يتسلل قوياً جداً من المصاريع وكان بالإمكان رؤية كل شيء، ورغم ذلك أشعلت المصباح وذهبت لأهز بكري الذي كان نائماً على ظهره بكامل ثيابه. أفاق مجفلاً.

– ماذا هناك؟

– أنت تحدث ضجة هائلة. فقد سمعك الناطور تشخّر.

أراد أن ينهض فمنعته.

«ألا يمكنك أن تنام مثل كل الناس؟».

قام بحركة تعبّر عن الظلم ثم جلس على سريره وأمسك زوج حذائه وانتعله.

«سأذهب».

شعرت بالغضب ينهشني.

«سيد بكري، لم يسئ أحد معاملتك، قدمت لك ما تريد، ليس بالشيء الكثير، ولكن هذا كل ما لدي».

أخرجت حبات اللوز من جيبي ووضعتها على اللحاف.

«لقد جلبت لك هذه. ليس ذنبي إن اكتشف أمرك. عد للنوم».

ارتخت كتفاه بأسى.

«لن أعود للنوم».

أشعلت غليوني، ونفثت باتجاهه بضع نفخات مغثة. فأنا نفسي بحاجة إلى التأكد من كتمان لو فلوش. ليس لديه أي حجة لاعتباري عدواً، بالعكس. فإن بحثت قليلاً في أغراضه لعلمت ربما بأنه يقبل الرشى.

فكرة استشارة النجار سيطرت عليّ للحظات. في النهاية، مع التفكير بإيمي باري، أخذت قراري، سأذهب إليه وأطلب منه التدخل:

«انتظرني».

أقفلت عليه المطبخ والشبابيك، ووضعت مفتاح الباب في جيبي.

في الخارج، قلت لنفسي إني اقترفت حماقة. على أية حال، فليس من أجل بكري، كنت أجري في منتصف الليل بالقرية.

أتذكر باباً حديدياً كبيراً، ولكن هنا كل البيوت تتلاحم. منزل إيمي باري أهو إلى اليمين أم اليسار؟ نبح الكلب في الساحة، سيستفيق جميع الناس، يجب أن أقرع على النافذة. أي منها؟ قررت أن أفعل ذلك اعتباطاً. بضع ضرباتٍ خفيفة، وإن لم يستفق أحد، أنتقل إلى النافذة التالية، ثم أتراجع

وأقف في الضوء لكي يتمكنوا من رؤيتي جيداً.

توقف الكلب عن النباح فتنفست الصعداء وساد صمت كامل. يبدو أن الجميع يغطّ في نومٍ عميق وسأكون مجبراً على العودة ومعالجة الأمر صباح الغد في ضوء يوم الفصح. رابطة دفاع روفيغو ضد اليهود لا يفترض أن تكون مرعبة، تذكرت اسم رئيسها؛ كان ابنه تلميذي في المدرسة.

في زاوية الضوء الذي كان يخترق عتمة الواجهة، رأيت الباب يُفتح. اقتربت، كان الظل ما يزال مبهماً بالكامل، تحيط به هالة الضوء، لم أتميزها إلا في ومضة الضوء أو ربما لأنها تبرق في داخلي مثل كوكب، وتظهر متلألئة، ساكنة، جوهرة في عمق السماء، كوكب استوائي يتوسط مربعه من النجوم مؤطراً الحزام الذهبي بين كل الكواكب المحتفلة. مستقيمة جميلة نقية. كان يكفيني أن أبقى هنا أتأملها، فالفجر سيطلع على وجهها.

كان بإمكانها أن تقول لي: «لقد انتظرتك...» وضعت يداً على مقبض الباب والأخرى مرخية على طول جسمها. ارتميت على ركبتي، أتذكر ودون أن أقصد ذلك، رميت قبعتي لتتدحرج في الغبار، رفعت يداي باتجاهها فانحنت علي، فوقفت. لا أعرف كيف حصل ذلك ولا لماذا أتخيل فجأة هذه اللحظة التي كان كل شيء فيها ينشد، ونعتقد أننا في الأبدية، حيث تتفجر الروح لأن الهواء يهب على الكروم وحقول إبرة الراعي ويصعد باتجاه الجبال ويخلط الروائح التي علقها الليل ويقذفها باتجاه الجهة الأخرى من الصحراء التي أتحرق للضياع فيها: وكأن مجاري الأنهار الجوفية عرفت طريقها من خلال أثار الصدف والحصى، وعندما ينفجر الإعصار يحمل الماء كل شيء. خلف الكروم حدائق مشعة وغابات

وهضاب خضراء وبحر تضربه شمس مائلة.

لم تتلفظ بأي كلمة. أهو البحر من يتكلم؟ أم أن علينا أن ننصت له، أن نفهمه. والكروم، عندما تتقدم المكبرَتة بين صفوف الدوالي بغيمتها الصغيرة الزرقاء؟ والريح؟ قلت لها:

«هذه أنتِ، ليل نجومي وقمري وصباحي وفرحي، جئت أبحث عنكِ...».

وضعت يدها على فمها وأحنت جبهتها على جبهتي ونظرت إليّ بعينين مغلقتين. برموشٍ طويلة كأجنحة طير، بدا أنها تتعذب. مضيت أحدثها ملتصقاً بكتفها.

«ذهبت إلى كل مكان، ناديتك، وصرخت وعدت إلى منزلي أين أنت زهرة آلامي؟»».

وفجأة شعرت بعاصفةٍ تغرقني تخترقني فتوقفت. كنت أختنق. الناطور، العرب، على زوجها الشرطي أن يذكر اسم الكولونيل ويؤكد أنه حمى بكري فلن يعلنوا حينئذ الحرب على كولونيل...

شعرت بأني كنت مضحكاً. سلفي هو الآخر لم يكن يتمتع بصيت جيد، يحكون عنه بالسر، يخافون منه. ألا يسقط هنا كل المدرّسين مع أثقال أفكارهم وكلماتهم التي لا يمكنها أن تصمد أمام غضب النهار؟ في تلك الليلة التي ركضت فيها بحثاً عن إجيني في سهل بريين الأجرد، محاصراً بالظلال والثلج، عندما اعتقدت بأنها عادت لأني تركت، أي هوسٍ هذا، تركت مصباحاً مضاء، وعندما صعدت إلى الغرفة مهرولاً على الدرجات منادياً «هل أنت هنا، إجيني؟...». دق البندول ساعة الآلام. كم كانت، منتصف الليل أم الحادية عشرة؟ شيء من هذا القبيل.

كان لماتيلد رائحة الكولونيا، رائحة مطمئنة مسالمة، دليل سعادة هادئة. كانت ترتدي صداراً بطرفين حريرين وشريطة عند منحنى الكتف، حلقتي أذن أشبه بمصباحي عربة صغيرة.

«اذهب الآن...».

كان علي أن أعبر عن الفرح العظيم الذي تفجّر كالبرق. ارتميت مرة أخرى أمامها وقبلت فستانها، كدت أنسى قبعتي وعدت لأجلبها وانطلقت ممتلئاً بالحيوية، قليلاً مثل القديس بطرس وهو يسير فوق الماء، طائر النّوء ممسكاً بالسمكة في منقاره. ربما كان الناطور يراقبني، أدخلت المفتاح في الثقب وفتحت الباب. كان بكري ينتظرني، جالساً أمام طاولة المطبخ، كان يبدو مربكاً.

«وكأنك... تشبه عريساً جديداً. أمن أخبار جيدة؟».

لم أجب.

«أرأيت من تريد رؤيته؟».

كان يفكر بمصلحته بالطبع. لا يمكنني أن أحدثه عن ماتيلد.

«تبدو سعيداً».

ربتّ على كتفه مثل تلميذ شاطر.

«نم جيداً».

أخذت المصباح ووضعته على طاولة مكتبي، وأقفلت الباب الذي يفصلني عن المطبخ متحضراً للكتابة. كل مرة كنت أستسلم لطقسٍ ما. أرتب أوراقي وأمسح الطاولة حتى آخر ذرة غبار عليها، أبلل ريشتي وأحياناً أبدلها وأذهب لأفتش في أسفل الخزانة عن قارورة الحبر البنفسجي الذي حملته من فرنسا، مخبأة وموثقة في رقاقةٍ حامية إذ قيل لي

بأن الحبر المستعمل في الجزائر ليس جيداً. فقد خدمتني القارورة لعامين وتبقى منها نحو الثلث لأني لم استعملها سوى لكتابة الرسائل. ولتصليح مسابقات طلبتي، لدي قارورة أخرى من الحبر الأحمر من صنف لا جيبري الأصلية، من اللون القرمزي، لون الدم الطازج تكاد تنفد. فمنذ أن استأنفت الكتابة، بدأ الحبر البنفسجي ينقص. في كل مرة أسكب قليلاً في محبرتي نصف الكروية بقاعدتها العريضة. وما إن يبدأ الحر حتى يتبخر الحبر. بهذا الإيقاع، بالكاد لدي ما يكفيني لشهرٍ واحد، ولكن بتنا نجد في الجزائر اليوم حبراً فرنسياً.

أكتب وأكتب، قلبي مسكون بلحنٍ غريب رائع، ليس أبداً ذلك الذي أسمعه للطلبة بتثبيت آذانهم على العواميد التلغرافية الممتدة على طول الطريق، هذه الأنشودة الرتيبة مع بعض تنويعات خفيفة في الصوت، وصلة الأرغن المؤلفة من بعض نوتات يعزفها الهواء عندما يحرك الشرائط. ألم يحن الوقت لأكتب عن عودتي؟ ففي داخلي كورس يغني مع ضربات أوتار غليظة عميقة لرعدٍ وبرق وضرب على النحاس لاستدعاء العاصفة، الأوتار تحرث روحي، ترفعني وتحملني عبر الكواكب.

الليل بحر أسبح فيه، في حين أن القرية تغرق في النوم. أنا وماتيلد قد نكون الوحيدين المستيقظين. هذا الخريف سأزرع الزهور على أطراف ملعب المدرسة، وأتعلم طرق رعايتها وتشذيبها. سأراقب الورود وهي تزهر وأعلم الطلبة كيف يحبونها ويتنشقونها. ماتيلد زهرة: بلمس يديها ووجنتيها، أشعر أنني أتحسس مخمل التويجات بتضاريسها التي تجعلها تشبه نحت الجبال، وانسياب المياه والدموع... ثم سأطلب من رئيس البلدية بأن يقدم للمدرسة قطعة أرضٍ نحولها أنا والطلبة إلى

حديقة هيسبيريديس[1]، ونزرع فيها شتولاً غريبة، التين البنغالي، أشجار البن، سرنجات[2]، بابايا، عندم هندي[3]، أشجار شاي، وتخليداً لذكرى أورتينس باري التي يتكلمون عنها بسحر، بذور زهرة الآلام التي حملها روبير من المزرعة والتي احتفظ بها منذ عامين، كما لو كانت قادرة على أن تنبت في قلبي. ماتيلد، ماتيلد! زهرة الآلام أنت. ونجومك تلمع في داخلي وتحملني...

(1) هسبيريديس وتعني حدائق التفاح الذهبي، وهي مدينة إغريقية قديمة أُنشئت على الساحل الشرقي من ليبيا في إقليم سيرين في الفترة من 525 ق.م إلى 515 ق.م وهي مدينة بنغازي الحالية. وحسب الأسطورة فقد أهدتها الأرض إلى الآلهة هيرا بمناسبة زواجها من كبير الآلهة زيوس. إضافة لذلك فاسم هيسبيريدس في الميثولوجيا اليونانية يخص الحوريات اللاتي لجأن إلى حديقة غناء في العالم المحظوظ في ليبيا القديمة.

(2) السرنجة هي جنس نباتات برية تزيينية.

(3) عندم هندي هو جنس شجر أحمر الزهر.

المدوّنة الرابعة

يزور المدرّس النجار أرتور فيرتو في أحد الفصح، ويعلمه بوجود بكري. لوحة عائلةٍ سعيدة.

كان علي أن ارتاح لساعتين أو ثلاث. أجراس الكنيسة تقرع بكل قوة. وضع السيد بكري ركوة القهوة والفناجين على الكرسي بالقرب مني.

«كان علي ربما أن أتركك نائماً؟» سألني، «لقد كنت تعمل طوال الليل. رأيت ضوءاً من تحت باب غرفتك».

للحظة حسبتني أحلم. كان عليّ أن أتذكر الآنسة فروادير وترددي أمام شبابيك إيمي باري. وفجأة أرعبتني جرأتي ليلة أمس. ماذا كنت لأقول لو أنه بدلاً من ماتيلد ظهر شقيقها أو الشرطي والبندقية في أيديهما؟

«ربما ستذهب إلى القداس؟»، قال لي بكري.

قد تكون فرصة لرؤية ماتيلد مجدداً، فهي ستشارك على الأرجح في القداس. ولكن لا يمكنني على أية حال، أنا المدرّس، أن أتلقى بركة الكاهن!

كان في مشغله الذي تفوح منه رائحة الخشب والنشارة والشمع، مرتدياً القميص والبنطال من الكتان الأزرق وقد شك القلم وشريط القياس في جيوبه، يجرب منشاراً جديداً بشريط دائري سمعت صوته من المدرسة. وكان يتفاخر به أمام أبيه الذي سمعت أنه كان واحداً من ثوريي

العام 1848؛علماني حقيقي. ومن هنا يأتي حبي لآل فيرتو.

ما إن رآني تقدم النجار فاتحاً ذراعيه.

«لقد تحدثت بالكثير من السوء عنك لوالدي حتى يحكم بنفسه على مدرّسنا، لكنه في النهاية لم يشتكِ سوى من ابنه».

أخذ النجار أرتور فيرتو عن والده الأنف المستقيم والوجه الطويل والنظرة الحادة تحت الحاجبين الغليظين، ولكنه حلق شاربيه في حين أن للشيخ شاربين مجدولين... له صوت رقراق، يضحك باستمرار، إنه رجل سعيد بالرغم من أن لديه ثلاث فتيات دون صبي واحد.

«ثم نترك المستوطنين يهرولون باتجاه حمام ملوان ويأكلون المونى وسط الذباب. شيء مقرف. ستتغدى معنا».

قلت له إنه لا يمكنني ذلك وإن لدي زائراً.

– أراهن أنها امرأة، قال.

– تخيل... هذا ما دعاني لإزعاجك. إنه يهودي.

ورويت له كيف اكتشف الناطور وجوده.

«هذا الرجل»، قال أرتور، «لدي ما يمكن إسكاته».

وعندما علم بأن اليهودي هو مردوخاي بكري تنفس الصعداء، فهو يعرفه.

في قاعة الطعام باقة ورود اصطناعية على الطاولة والشبابيك تطل على الطريق. أخرج أرتور قنينة الأفسنتين من منضدة الطعام ونادى زوجته: «بولين!».

جاءت وهي تجفف يديها بالمريلة. بنية صلبة، ليست جميلة جداً ولكنها جذابة، أطول من زوجها بقليل، نشيطة جداً تحمل معها رائحة مطبخ

شهية وبناتها: الكبيرة بطول أمها، نبتة هليون، كلير الثانية لا بريق فيها ولكنها طلقة وحيوية، هما تلميذتا الآنسة روسّي، والصغرى الوحيدة التي ما زال لها وجه مدوّر. جميعهن شقراوات مثل أمهن.

وزعت الكبرى الأقداح على الطاولة، الملاعق الصغيرة المسطحة والمقعرة، إبريق الفخار والسكرية. جلسنا. كانت الشمس تضرب الحائط المقابل وأصوات أولادٍ مخلوطة بثغاء حيوانات تصعد باتجاه السماء الزرقاء الفاقعة. سكب أرتور الأفسنتين، وترك الماء ينسكب بورعٍ فوق السكر ويفقد المزيج شفافيته وتمتلئ الأقداح بالسائل الذهبي الباهت. بدأت الأجراس تقرع. هنا الأفسنتين كانت القداس الوحيد الذي نحتفل به.

«أعرف جيداً آل باري»، قال الشيخ «الأم ماري، وأخيراً نسميها اليوم الأم، قبلها كنت أعرف ماري الأخرى، التي أتت من فرانش-كونتي مع زوجها جان كلود، أتوا جميعاً إلى المقبرة. ماري من آل بويشو، وعائلة بويشو تذهب جميعها إلى الكنيسة، على الأقل النساء منهم. الجد الأعلى مات في مزرعته في حريق افتعله العرب في 1871، فإن رأيته... لم يكن يحب رجال الشرطة. في البداية استمات جان بيار باري ليتزوج بمارغريت ولكن هكتور سدد له ضربة قاصمة، فانتقم جان بيار باري من خلال ماري، شقيقة مارغريت. وذلك من حسن حظه، إذ ما كانت تصلح مارغريت لتكون زوجة مستوطن. أبدو وكأني خلطت الأشياء ببعضها. أتتخيلون، فما أرويه يعود لأربعين عاماً مضت، ما عاد أحد يتذكر ذلك. أرتور ولد بالضبط في العام الذي سبق موجة الجراد، فمنذ ذلك الحين ونحن نعاني منها، ولكنها لم تكن كما الآن. كنا نمشي فوق طبقة زلقة، كنا نجدها حتى في الأسرة، فتخيل إذن كيف كان الأمر في الحقول. الآن تأتي

بأعداد أقل ونكافحها بشكل أفضل، لا أعرف».

أخرجت غليوني الجميل وحشوته ثم أشعلته لأستعيد توازني. هم لم يكونوا يدخنون.

– بكري من البليدة، فهو عرفه من خلال صهره، كيف وصل عندك هذا القوطي الشرقي؟

– كان خائفاً.

– بالطبع، قال أرتور، إن لم يكن لديه سوى فتيات مثلي للدفاع عنه..

– لا تشتكي، قالت بولين. هنا النساء يحملن البنادق تماماً كالرجال. ثم أنهن عبيدكم، كما عند العرب. دعني أحضر الطاولة.

تباعدنا، وبما أن الأجراس ما زالت تقرع: «من دوني، لا شك، لكانت تذهب مع بناتها إلى القداس. إنها بورجوازية. أهلها، آل سوتران كانوا أسياد طرق الحديد في لاربعاء. طباخة ومسؤولة عن غرف النوم وخادمات. أمها سيدة كبيرة. كانوا يتحايلون ليتفرجوا على صالونها باللون الأخضر الفاتح الموشّى بالذهب. عشية استقبالها قاضي الصلح والطبيب والكاتب بالعدل – شاي وبورتو[1] وبيتي فور – تهرع إلى الجزائر إلى مصفف الشعر في شارع شراس. يغسلون لها رأسها ويضعون لها عصابات مثل ملكة. خزاناتها كانت مزدحمة بالثياب والجوخ، كانت تملك أكواماً من البدلات الخاصة بيضاء للخدمة وزرقاء للعمل. أنظر بما ضحت بولين كي تتزوجني: لم أكن أملك سوى منزلٍ بأربع غرفٍ؛ بؤس. فأنا أعمل جاهداً لتأمين مهر بناتي. ولكن في مشغلي سيكون لدي أول محرك يعمل بالاحتراق الداخلي في المنطقة».

(1) Porto هو نوع من النبيذ الخمري المشبع الأحمر أو الأبيض.

أيّ نجار في أركونفيل أو بيتي– منسيل سيكون أكثر سعادة منه؟ على الرغم من تذمّره الظاهر، لكنه يعيش في مكان فسيح ويأكل جيداً ولديه جياد وعربات. ويدفع ثمن ذلك حشرات وحمى. لو عرضوا عليه العيش في فرنسا بلا حشرات ولا حمى وبلا شمسٍ أيضاً، هذا الإله، الذي دون أن يعلموا، يحبونه جميعاً... أرتور يدعي بأنه بلا الحشرات والعرب لكانوا أكثر حظاً. العرب يخدمونهم. وفي المقابل، يحمل لهم الأوروبيون الحضارة. أسمع أرتور يقول دائماً لعماله العرب: «هنا، روفيغو، ماذا كان هناك من قبل؟ أجمات، مملكة بنات آوى؟ لا يمكنكم أن تدعوا بأننا أخذنا بيوتكم أو حولنا جوامعكم إلى كنائس. القرية لم تكن موجودة».

يتحدث أرتور غالباً عن الطرقات، وكان ذلك يضحكني. يجب تصديقها لأنها جدية، فهذه الخطوط الجميلة المستقيمة المرسومة بالحبال عبر السهول أو شرطان الزينة هذه التي تتسلق المنحدرات تخدم العرب أكثر مما تخدمنا. ربما. وإن كانوا ما زالوا يتنقلون بشكل أساسي على ظهور الحمير أو مشياً على الأقدام، فالعرب أيضاً يركبون القطار وبدأوا يمتلكون العربات، ونرى بعضهم يغامر بقيادة الدراجة، وهذا يفترض بأنهم قادرون على التأقلم مع آلاتنا. ولكن عندما أكد أرتور بأننا نبني الطرقات بأموالنا... أولاً، فقد أسهم العرب في هذه الطرقات من خلال الإقراض العيني. ثم إني قرأت تداولات للمجلس الأعلى؛ يدفع أهل البلاد من الضرائب أكثر من الفرنسيين: 2,9٪ من رأسمالهم مقابل 0,51٪ للأوروبيين. فهم يفرضون الضرائب على كل غبي منهم وعلى كل محراث ورأس ماشية لديهم. ليس هناك كلب لدى القبائل لا يدفع ضريبة عنه. وإن

لم يدفعوا يلقى القبض عليهم. قد لا تكون ضريبة كبيرة، بعض فرنكات على كل ساكن وعربة وكلب. لكن هذه المبالغ الصغيرة عندما تضرب بالعدد تصبح هائلة. فإن كنت هنا، هل كان بإمكاني أن أكون مجرداً؟ والد أرتور جاء لأنه نفي. وآل باري لأنهم لم يتمكنوا من العيش في فرانش-كونتي، الكولونيل وغوريو للحصول على ترقيات أسرع، الآنسة فروادير على أمل ماذا؟ الخباز غاليارو من أجل تجارة أكثر ازدهاراً، رئيس بلدية سيدي موسى لكي يجرش شيئاً آخر غير الحصى في باليارس. الجميع لكي يدفعوا ضرائب أقل. فالعدالة التي يطالبون بها مع أهالي العاصمة تتوقف هنا: التساوي في الحقوق المدنية ولكن ليس في الواجبات. من جهتي، فبسبب هذه الامتيازات يمكنني أن أدفع لفتاة سارّوت مصروفها. اسمع، فمنذ أن التقيت ماتيلد ذاك المساء وأنا أسمّي إجيني «فتاة سارّوت» وليس إجيني.

سألني أرتور وأبوه عن رأيي في الحكومة. تملصت من الإجابة. وُلدِك-روسو رئيس الوزراء، وميلارون وزير التجارة والصناعة هما رجلان يساريان. فالأب فيرتو لا يسامحهما بإعطاء وزارة الحرب للجنرال غاليفيه، جلاد لجنة الثورة الفرنسية.

«أليس من أجل ضرب العمال؟»، قال الأب.

في فرنسا، لا يتكلمون سوى عن الإضرابات والصراعات الاجتماعية، فالعرض كان حاجباً عن مشاكلنا الداخلية وطعماً للساذجين. ألكسندر كان محقاً: لقد دعونا كل ملوك الأرض ليستجموا في باريس على نفقتنا.

«أليس وُلدِك – روسو هو الذي دافع عن رئيس بلدية سيدي موسى الذي كان متهماً بقتل العرب؟»، أجبته.

فقد خيل لي أنني سمعتهم يقولون ذلك، ما عادوا يتذكرون. بالنسبة إليهم، ليست قضية درايفوس هي التي أثرت فيهم، كما الحال مع ألكسندر، وإنما موت فليكس فور[1].

تحدثت الصحف عن جلطة دماغية. فاليوم عرفنا لماذا لم يتمكن رئيس الجمهورية من مقاومة يهودية...

أرتور، بناتك يستمعن إليك، قالت بولين.

غمزني بعين سليطة وصمت.

أكلت بشراهةٍ. تكونت المقبلات من سوبرسادا وزبدة وزيتون وسلطة بيضٍ مسلوق وطماطم، ثم فخذ الخروف مع البطاطا وأخيراً المونى المشوية الذهبية. فتح أرتور قنينة خمرٍ فوار وأخرجت بولين الأطباق، فصفقت الفتيات لحظة انسكابها على المفرش، فتذكرت حينئذ وبلا سبب، كلمة غريبة لبكري عندما ذهبت لرؤية أرتور. إذ استوقفني للحظة واضعاً يده على ذراعي: «سيد ديماتون، سترى بأنني أقحم نفسي بما لا يعنيني. لو كنت في مكانك، كمدرّس مثلك، لكنت ذهبت رغم ذلك إلى القداس. فهذا فصحك أنت أيضاً. أنظر اين أصبحت أنا دون عون الرب، فالكلاب تتمشى في الساحة وأنا أختبئ...».

رفعنا النخب. قدم أرتور كأسه للفتاة الصغرى لترتشف جرعة صغيرة.

---

(1) Félix Faure هو رئيس جمهوري في فرنسا بين 1895 حتى وفاته عام 1899 عن عمر 58 عاماً فقط. ولكنه اشتهر في موته أكثر من حياته، إذ أنه توفي بجلطة دماغية، خلال لقاء غرامي بعشيقته اليهودية مارغريت ستانهيل، زوجة الرسام أدولف ستانهيل، فعندما هرول الخدم تلبية لجرس الإنذار وجدوا العشيقة ما زالت مشغولة بارتداء ملابسها، وهي القصة التي شغلت المجتمع الفرنسي طويلاً.

استأذنت وتركتهم عائداً إلى منزلي، ورويت وقائع الغداء لبكري، ثم بدأت بالكتابة بسرعة.

«لقد عملت كثيراً»، قال لي بكري.

أفهمته بأن لديّ الكثير من العمل المتأخر. كان يريد أن يحدثني، ولكني لا أعرف ما الذي كان يدفعني لأسجل كل شيء. كنت متحرقاً لكتابة تفاصيل زيارتي للنجار. لم أبدُ مستمتعاً بحديثه. وأمام صمتي، لم يصرّ. وقال لي ببساطة: «بالأمس، كان يوم السبت، أضأت شمعةً ثم أطفأتها. فلكي أسايرك، أهملت واجبي الديني...».

المدوّنة الخامسة

في غروب أحد الفصح، يتجمهر الناس أمام المدرسة، ويكشف الناطور عن وجود بكري.

كنت بالكاد قد أنهيت الكتابة، عندما سمعت طرق أرتور على النافذة. فتحت ودعوته للدخول.

«لا. يجب أن أكلمك».

كان القلق بادياً على وجهه، لم أشأ أن أسأله. تناولت عصاي وقبعتي بسرعة وذهبت لطمأنة بكري. في المطبخ حيث كانت الفوضى عارمة، جلس على كرسيٍ في الظلام، مديراً ظهره للنافذة، متكئاً بكوعه على الطاولة، غارقاً في تأملات قطعتها عليه. وقف فجأة متوتراً. لم يكن طويلاً، بالكاد يصل حتى كتفي، فقد سبق وقلت ذلك، ولكنه يبدو لي الآن مضغوطاً. أشرت له بحركة عاطفية ولكني فكرت بأنه قد يفهمها على أنها شفقة، فنحن لدينا ميل دائم على إظهار تفوقنا، إذ أننا أقوياء وليس لدينا ما نخشاه.

قلت بعدم اهتمام لا بل بإهمال: «سأعود».

لم يكن مغفلاً، فقد بدا عليه القلق والشعور بالهزيمة.

«سيد ديماتون، أنا أسبب لك الكثير من المتاعب، وكم أشعر بالذنب. سأرحل عما قريب وأريحك مني».

هممت وكأنني أوبخه. لكن وعده بالرحيل الوشيك أراحني. أيّ فكرة ساذجة هذه! ماتيلد لن تأتِ أبداً إلى هنا. فهي تعرف أنه في

القرية هناك دائماً من يتربص وراء كل نافذة. لم يكن هذا نابعاً من خبث. فالفضيحة مسلية، مبهجة، يسيل لها لعابنا. أتذكر أركونفيل، ومناوراتي للاقتراب من فتاة ساروت. الآن، أنا حر ولكن على يهودي صغير أن يقف عائقاً أمامي. انتبهت إلى أنني بدأت أحمله مسؤولية وحدتي.

كان أرتور ينتظرني بمزاج نكد.

- ماذا إذن، ماذا هناك؟ سألته بشيء من الانزعاج.

- التقيت مسافراً من البليدة. أخبرني بأن ليلة أمس كانت رهيبة، فقد أحرقوا حياً بأكمله. وكان على الجيش التدخل.

توقفت بشكل مباغت.

«هل سقط قتلى؟».

قام بإشارة تعني أنه لا يعرف.

«لقد اشتعلت هناك. يبدو أنه كان بالإمكان مشاهدة اللهيب من البعيد. ألم تخرج؟».

في هذه الليلة كان تفكيري منصرفاً إلى شيء آخر. ثم إن البليدة مخبأة خلف نتوء جبلي عند أسفل الصومعة[1]. لو فلوش نفسه لم يلاحظ شيئاً بالرغم من مثابرته على المراقبة.

إذن بكري لا يبالغ في المخاطر التي تتهدده. ماذا سنفعل؟ فمنذ أن اكتشفه الناطور، ما عاد بإمكانه البقاء عندي. لا مجال لأن يختبئ لدى أرتور. أما إيمي باري فلا يحبّ اليهود.

- ماذا لو طلبنا من الكاهن...

(1) الصومعة هي إحدى بلديات ولاية البليدة في الجزائر، تحدها من الشمال بلدية بوفاريك ومن الجنوب بلدية الشريعة ومن الغرب بلدتا قرواو وبلدية أولاد يعيش وأما من الشرق فبلدية بوعنان.

- هل تمزح؟

- إذن أين؟

تبين لي أنه لم يعد هناك أي حل سوى نقله إلى مزرعة آل باري. بما أنه كان صديق الأب، فالأم ستستقبله. هناك البنات وفيكتور وروبير ابن الشرطي والخادمات العربيات، وهذا يعني الكثير من الناس. فبانتظار أن تنتشر الأخبار، ستكون الأحداث قد أصبحت من الماضي في البليدة وعندها يمكن لبكري أن يعود.

وصلنا إلى مخرج القرية، عند تقاطع على خط مائل مع طريق لاربعاء وسيدي موسى، واتفقنا، سأنتظر في بيتي وأتحضر، وسيتحين أرتور اللحظة المناسبة ثم نُخرج بكري، يصل بالعربة الواطئة، ويدندن أغنية أمام المدرسة.

- ماذا مثلاً؟

- زمن الكرز، قلت.

- جيد. أدور مع الحصان وأعود. فتقفزان أنت وبكري إلى العربة. سأحضر العربة ذات الدولابين وأثبت عليها الغطاء.

أسعدتني فكرة العودة إلى المزرعة. سنتكلم حكماً عن ماتيلد، وسأستعلم أكثر عن مشروع الفندق وسأرى روبير. ولكن فكرة الشرطي برّدت حماستي. سأسأل بحذر أرتور، أريد أن أعرف على الأقل أين هو.

- ليس هناك من نخشاه، قال. بالنسبة للشرطي السابق، فإنه رجل شجاع، كما أنه لا يفعل شيئاً دون استشارة زوجته، فهو يخشى كثيراً أن يغضبها. بالنسبة إليها لا أعرف. ولكن هناك، ومنذ موت

الأب، كل شيء تحت إمرة الأم.

- وماتيلد؟

- المرأة الجميلة، ها؟ كبرياء آل بويشو مضاف إلى كبرياء آل باري. الشرطي، أنت تعرف لا يزن كثيراً. فهي هنا، ألا تعرف؟

ادعيت أنني متفاجئ.

«هيا، سيد ديماتون، ألم تخبرك الآنسة فروادير؟».

كذبت، وشعرت بأن وجهي يتضرج حمرة.

مع وصولنا إلى الساحة، رأيت حشداً من نحو عشرة أشخاص أمام المدرسة. أحياناً يلعبون الكرة هناك، ولكن لا، لم يكن الأمر كذلك الآن. كانوا يتناقشون ويقرعون بابي وينظرون إلى الباحة؛ وأحدهم تسلق حافة الحائط وتعلق بالحاجز الحديدي. تقدمت وأسرعت فجأة في السير قابضاً بيدي على العصا.

العشرة أيام التي تلت ذلك لن أنساها بسهولة. فقدت القدرة على النوم وغرقت في الظلمات.

بعد التحقيق الذي أجريته عرفت ما جرى. ذلك الناطور الحقير لم يملك شجاعة الصمت. فطوال الصباح، وعند موعد القداس، أخذ يطوف في الساحة أمام الكنيسة والفندق. في النهاية، وقبل الغداء، دعاه أبناء غريغوار من مزرعة جرجورة عند حدود الحرّاش، لشرب كأس أفسنتين، لم يتمكن من إمساك نفسه فبدأ سريعاً بالكلام. «كيف اكتشفت ذلك ولم تقل شيئاً؟»، فأجابهم أنه ذلك بسبب أنني أنا من يحمي اليهودي. فأجابوه بأن مدرسي فرنسا لا يعرفون شيئاً، وبأن عليهم ومن أجل مصلحتهم الخاصة

أن يعلموهم العادات هنا، وبأن قصة مثل هذه يمكنها أن تدفّع المدرّس ثمن وظيفته، وبأنه مع أحداث البليدة يمكن للعرب أيضاً أن ينتفضوا. «أين هو رجلك اليهودي؟»، زجروا بعض الزبائن العابرين. سمعتهم الآنسة فروادير من بعيد دون أن تشارك في النقاش. فقد أخرجوا كل الحمقى وكل النمامين التقليديين، ثم حرضوا بعض قطاع الطرق وعندما رأوني أخرج، جاؤوا إليّ.

«أين هو هذا الخائن؟»، صرخوا، «نريد أن نبرحه ضرباً».

هذه أيضاً واحدة من تعابيرهم. تقدمت باتجاه أكبر أبناء غريغوار الذي يبدو أنه القائد بينهم:

– ماذا تفعلون هنا؟

– سيد ديماتون، قال بلهجةٍ متعجرفة، لقد جئنا لحمايتك.

اسمي على لسانهم له وقع آخر، وكأنه اسم شخص غريب. صمتوا ليسمعوا جوابي. أبعدتهم بعصاي.

«لست بحاجة إليكم، ثم تذكروا، أنا أستاذ المدرسة. وأنا من يأمر هنا».

وتملكني غضب كبير: «المدرسة يا رفيقي، هي كنيسة علمانية مفتوحة لكل الأديان».

أخذوا يضحكون هازئين، دفعت بالناطور الذي كان يحمي بابي، والذي كان يلبس قبعة العيد.

فحصل عراك وكدت أقع أرضاً، ولم أتمكن من التقاط قبعتي التي تدحرجت على الرصيف المغبر. ركلها أحد الأوغاد برجله، آخر حملها لي متظاهراً بأنه ينظفها بساعده، فقد لعبوا بها جيداً كالكرة من أجل

إذلالي. وقبل أن يعيدها إلي، أخذ يدقّق باسم علامتها التجارية.

«آه أيها الأصدقاء، رومولي، إنها قبعة يهودية».

مدها لي بأطراف أصابعه. بالطبع وبعد وقت، فقد دفعت في النهاية ثمن هذه القبعة من باب عزون.

– لن نسبب له الأذى.

– رئيس البلدية! أمرت الناطور.

– ليس هنا، ولا مساعده.

رفعت صوتي: «إذن سيد فيرتو، أنت المستشار، قرر!».

لم يكن قادراً على فعل شيء، إذ كانوا أساساً قد تسلقوا حاجز القضبان الحديدي وقفزوا إلى الباحة.

كان مضطجعاً في الرواق، وجهه على البلاط ورأسه مثل رأس فروج منزوع الريش. ركضت إليه، وأخذته تحت إبطي. لم يعد يزن أكثر من دمية غارقاً في دمه. من قبضتيه، اللتين شقهما بالموس، سال جدول من الدم، شعرت بأنه سيغرق كل شيء.

تركت الجسد الذي ارتمى على جانبه. قفزت إلى الصف فتحت باب الباحة وصرخت: «عصابة حقراء، عصابة حقراء!».

ساد صمت مفاجئ، تسمروا قبالتي، متفرسين بي.

«ما زال يتنفس»، قال أرتور، «لو فلوش ناد الطبيب في لاربعاء، اتصل به».

أنا الذي كنت أعتقد أن مشهد الدم لا يحركني، شعرت برغبة في التقيؤ. وبعد شهقات رهيبة جعلت أتقيأ.

«ساعدوني»، قال أرتور.

جررناه إلى الضوء، بحثت عن فوط في الخزانة، مزقناها لنربط راحة يديه، لكن الدم تدفق بسرعة وما عدنا نعرف ما بإمكاننا فعله، ربما كان بإمكاننا إنقاذه، كان يكفي وجود ممرضة لتوقف النزيف.

– زوجتك، قلت لأرتور.

– سيغمى عليها.

– إذن أي أحد، ماتيلد.

كنت وحيداً بالقرب من بكري، ولكن الساحة امتلأت بالناس. أحضرت فوطاً أخرى. تبللت كلها، ثم توقف ذلك. عندما وصلت ماتيلد، كان قد توقف عن التنفس، أقفلت له رموشه، بدا فارغاً شاحباً، وبدت ذقنه فجأة طويلة. جلست ماتيلد على ركبتيها أمامه ثم نظرت لي.

«أعتقد أنه توفي».

مسحت شفتيه بمنديل إذ سال لعابه قليلاً. وعلى النحو الأكثر قسوة، ارتسمت على وجهه سمات الرحيل والاستكانة الحزينة. هو الذي أعلن أنه جبان، فقد وضع حداً لجبنه. تذكرت ما قاله لي عن الحمل الذي أمر موسى اليهود بالتضحية به عشية الهجرة. غريبة، فكرة أنه كان هذا الحمل. في عمره، ومع رأسٍ كهذا! حمل يهودي مسكين، ضحي به في الرواق.

انتظرنا عشرين دقيقة الطبيب الذي وصل في عربته. لم يكن قادراً على فعل شيء، تحقق من وفاته. لم يعد الناطور يتجرأ على الاقتراب. جاءت الشرطة أيضاً. دوّنوا الملاحظات ورسموا علامات بالطبشور. انا وأرتور حملنا الجثة فوق نقالة إلى مركز البلدية ورافقتنا ماتيلد. سألتها إن كانت تعرف تقاليد الدفن اليهودية، فأجابت بالنفي.

– سأسهر عليه قليلاً.

– ألا تخافين؟

– مم، قالت محدقةً بي.

في البلدية، كان هناك مصباح مضاء في غرفة اجتماع المستشارين، حيث وضع بكري. ما زالت ماتيلد هنا، جالسة باستقامة كاملة على الكرسي ويداها الطويلتان على ركبتيها. عدت إلى المنزل لأحضر شمعداناً. لجهلي بالتقاليد، أردت أن أضيء له شمعةً بالقرب منه. فهذه الرمزية للروح في اللهب من المفترض أن تكون مشتركة لدى كل الأديان.

اختلطت عليّ مشاعر الظلم والسعادة الغامرة. حاولت أن أفهم ما الذي يحصل لي. خيل لي أن شفتي ماتيلد تحركتا. أكانت تصلي؟ وفجأة شعرت بالحاجة إلى الرب، سواء أكان ربي أم رب بكري، إنه نفسه بذلك الفارق بين أن بكري ما زال ينتظر عودة المسيح، وبالنسبة إلي أنا المسيحي فقد جاء المسيح، وتعذب على يد بيلاطس البنطي وصلب وقام من بين الأموت. فأنا اتساءل لماذا إذن خاض أسلافي الحرب الصليبية، أمن أجل أن يصلوا إلى ضريح فارغ؟

«كان أبي يحبه كثيراً ويعتبره رجلاً مستقيماً».

لم أكن راغباً في الذهاب. يمكن الاعتقاد أنها مثلي تشعر بالسعادة. والآن، ومع عودة الهدوء، ما عدت أفكر بما يعنيه وجودها. فالحقيقة أنها لم تكن من روفيغو، ولم تكن سوى برفقة شقيقها، وهي المرأة الوحيدة التي ركضت لنجدتي على مسؤوليتها أمام جثة يهودي. رغبت في أن أنهض وأقف خلفها وأضع يدي على كتفيها في حركة فروسية رمزية لحمايتها. ممّ؟ من دناءة البشر؟ ليلة أمس، ارتميت عند ركبتيها وكدت أقبل قدميها مثلما يفعل العرب للناس الذين يجلونهم. هذه المرة، يخيل لي أنني

فهمت ماذا تعني حركة اليدين على الكتفين: «هذا ما اخترته، هذه هي روح روحي...». وإن رأوني سيبتسمون ويلمسون جباههم. وهل كانت ماتيلد نفسها لتفهم؟

تخيلت عربات تمر من هنا وأناس يدخلون الفندق. من بين فتحات المصاريع رأيت شعاع الفوانيس، ووصلتني ضوضاء أحاديث باردة بلا روح. فقد عاد الطبيب وفتح مرة أخرى صندوق عدّته وتأكد من صمت بكري، اقتربت بالشمعدان كي أوضح له الرؤيا فوجدت أن فلقتي الجرح قد اسودتا. فك لبكري ربطات الفوط التي تراكمت وقذفها بقدميه إلى زاوية الغرفة.

خرجت معه ماتيلد.

وصل أخيراً رئيس البلدية بصحبة أرتور وآخرين بقوا في الردهة. إنه مستوطن خمسيني ضخم تربطني به علاقة طيبة. خلع لبرهةٍ قبعته، بدا وكأنه يفكر ثم أعادها. جعلني أعيد كل شهادتي للشرطة، هز رأسه:

– لقد تهورت.

– قمت بواجبي سيدي رئيس البلدية. عندما يأتي أحدهم طالباً اللجوء باسم الحرية...

– حسناً، حسناً... كان عليك أن تخبرني.

خرج متنهداً دون أن يصافحني. طلبت من أرتور أن يذهب ويشتري لي علبة شموع من عند سعيد.

«بسبب الذباب»، قلت له.

أشعل أرتور قنديلاً بالزيت ثم شمعتين أخريين وألصقهما ببعض نقاط من الشمع على طرف خزانة الأرشيف. أخرج وحدة قياسٍ من جيبه

وسجل مقاسات الحمّالة.

«سأتركك، ها؟ اطمئن، سأهتم بكل شيء. لست مداناً بشيء. الأكثر ذنباً في كل ذلك هو هذا الناطور المغفل». قال لي «لم أكن أعرف...».

لم أجب.

لم أكن جائعاً. لم يكن وارداً عندي أن أعد شيئاً لآكله، ولا حتى أن أذهب بدافع الحشرية للغداء في الفندق، عندما وصل عربي مع حزمة مغلفة بفوطة بعناية، وآنية زجاجية وقدح وملعقة سكر صغيرة. قال لي: «إنها من السيدة باري». ألقى نظرة سريعة قلقة على الجثمان ورحل. في البداية تساءلت ثم أدركت بأنه يعني ماتيلد. شطيرة كبيرة مع شرحتي فخذ خروف باردتين. في النهاية، بدافع التحدي ولكي أواجه الموت، التهمت كل شيء بشهية وأنا أنظر إلى صديقي بكري محاذراً ان أوقع فُتاتاً فوق البلاط، أكلت بطريقة لائقة وكأنه هو من يأكل.

تذكرت ذلك اليوم كلمة بكري التي خضتني: «انظر اين أصبحت دون عون الرب، فالكلاب تتمشى في الساحة وأنا أختبئ...» هو الذي كان يأسف كثيراً لما يسببه لي من متاعب ولا يفكر سوى بإراحتي منها، لم يحسب جيداً عواقب فعلته. لحظة جنون سيطرت عليه. من حظي أنه لم يقتل في الصف، وإلا كيف كان بإمكاني مواصلة التعليم؟ من كان سيرسل أولاده إليّ؟

إنها جياد الشرطة التي أيقظتني فجر الاثنين. فالقنديل انطفأ للتو وارتفع منه الدخان، وكل الشموع نفدت. على زاوية طاولة، كانت قبعتي التي تحمل أثار الغبار جراء اللكم بالأرجل.

بمساعدة الناطور، أحضر أرتور في عربة صغيرة تجر يدوياً، نعشاً صغيراً متواضعاً هو الأبخس ثمناً. أقمنا مراسيم نقل الجثمان إلى النعش. قبل إقفال النعش، نظر إليّ أرتور. ماذا علينا فعله؟ قمت بإشارة تنم عن الجهل والعجز. احتفظت الشرطة بسترة بكري ومحفظته وأغراضه وموس حلاقته. حاولت أن أبحث، فلو وجدت وردة لكنت وضعتها على صدره. شعرت بقلبي جافاً فارغاً. لم يكن أحد قادراً على الصلاة. رائحة مونى طازجة تضوع من المخبز. القطار الأول متوقفٌ في الساحة، وحفنة من العرب في المقطورة الأخيرة.

وضعنا النعش في عربة لم أتنبه لوصولها، لفّه الناطور بالكتان ثم حمله أفراد الشرطة على صهوة حصان.

«ألا تريد مرافقته؟»، سألني أرتور.

في حالتي هذه؟ فقد استخرج رجال الشرطة عنوانه من محفظته، إنه ليس من الحي الذي تعرض للحرق. عاد إلى البليدة مع طلوع الصباح محاطاً بقوى الأمن، وليس تماماً مثل كلب. فكرت بأن هناك كلاباً قبلية بيد أنه ليس هناك كلاب يهودية، حتى إني لم أر قط يهودياً يجرّ كلباً؟ فهل هذا محرم في دينهم؟ وعندهم ماذا سيفعلون؟ عندنا، لا يدفنون من ينتحر في الأرض المقدسة، بل يرمونه في زاوية المقبرة، ولا يصلي عليه الكهنة ولا يفتحون له الكنيسة ولا يقرأون حتى أبسط الصلوات على قبره. ولكن عندهم، هل سيحق له بما يسمى لديهم بالرحمة؟ هل سيميزه أخوانه في الدين على أنه شهيد همجيتنا؟

«أي عيد فصحٍ هزيلٍ على أية حال»، قال أرتور.

كانت مصاريع نوافذ الآنسة فروادير مفتوحة. خيل لي أنها تراقب

جانبياً. ابتعد الموكب الجنائزي ببطء على طريق الصومعة.

وبعد أن ابتعدوا، عاد شرطي وهو يلوح بيده، لقد انطلقت الجياد مسرعةً.

المدوّنة السادسة

في فيلا البارونة في حي الطاحونتين[1]، على شاطىء البحر، نخبة من الجزائريين يوم اثنين الفصح. عجوز غريبة الأطوار، أرملة جنرال ماركيز ثم أرملة بارون.

ما زال زمن الأعياد. كانت الجزائر فارغة، متروكة للعرب التائهين، الممددين ببرانسهم على درجات سلالم الميناء. نزلت، غير آبهٍ بالاحتمالات، عند محطة أشجار النخيل على الطريق البحرية، حيث كانت تجول قطط شبه جرداء. لم تكن عائلة غريبه في المنزل ولكني كنت متأكداً من أني سأجدهم في المكان الذي أقصده.

وأكملت راجلاً باتجاه الساحة صوب محطة باب عزون حيث انتظرت الترامواي. بعد سانت– إيجين كان الشاطئ مليئاً بأناس جاؤوا يتنزهون، بعضهم كان يصطاد في قوارب في المياه الضحلة. يومٌ صافٍ دون أي هبة هواء، فقط بعض كتل غيوم خفيفة انسحبت باتجاه الشمال. بمواجهة البحر، ارتفعت تلة بوزريعة، حيث قديماً استقبل بكري الآخر، كوهين الثري، الجنرال دي بورمون وقيادته العامة في القصر الجزائري.

لا يمر الترامواي بمحطة ريتور– دي– لا– بيش[2]. ولكي نكمل السير إليها، ينبغي استئجار حافلة مع جياد. ولكن منطقة الطاحونتين ليست بعيدة، ليس أكثر من خمسمئة متر. استعلمت: منزل البارونة يقع في

(1) منطقة الطاحونتين أو كما أسماها الفرنسيون Deux- Moulins هي منطقة ساحلية جميلة في مدينة الجزائر العاصمة.

(2) Retour- de- la- pêche وهي محطة وتعني بالعربية «العودة من الصيد».

طابقين مع شرفة مسقوفة، نوع من الكوخ يطل على الشاطئ بسقف مروسٍ من القرميد الأحمر. بعده فهمت بأن العلم المرفرف فوقه كان يتغير حسب جنسية الزائر أو رتبته. بين أقسام المنزل مصطبة مزروعة بأشجار النخيل النحيلة. البحر هنا قريبٌ جداً، نصل إليه عبر الصخور. لابدّ من أن الهواء هنا قويٌ وقت العواصف.

زوار كثر. ولحسن الحظ لمحت الكولونيل بينهم، أشرت له فجاء إليّ وعندما علم بما جرى أخرج ساعته.

– لقد تأخر الوقت كثيراً للذهاب إلى البليدة، سترافقني إليها غداً؟

– لا أعلم.

– أتصدق، لقد توقعت كل شيء سوى هذا. يعتقدون أنها مسألة جبن أكثر مما هي انتحار. ما كنت لأمتلك يوماً هذه الجرأة. أعتقد أنني لن أنجح أبداً بأن أكون محبطاً إلى هذه الدرجة. في الجيش تلقينا بعض الدروس عن أولئك الذين ينهون حياتهم عندما يخطؤون أو لأنهم لا يريدون الوقوع بين يدي الأعداء. وأعتقد أنها تلك كانت حالة بكري. لقد افترض أننا قد نخونه.

أريته ثلاثة جمالٍ مقرونة عند مدخل القصر كانت تجتر بأسنان كالحة.

«إنه موكب الجالية الإنكليزية عندما تأتي في زيارة. فالإنغليش[1] لم يسامحوا أنفسهم على ترك الجزائر لنا. ويتعزون بادعاء اللون المحلي».

اصطحبني لكي أتناول الطعام وأستعيد قواي، أحضر لي صحوناً من الأجبان والفواكهة وشيئاً لأشربه.

(1) هنا استعمل الكاتب كلمة Angliche بدلاً من Anglais وهو تعبير كان يستعمل لتحقير الإنكليز.

«كل أولاً ثم سأقوم بالتعريف عنك».

كنت جائعاً، نادى مارغريت التي جاءت وعانقتني.

«لقد تلقيت صدمة بالتأكيد»، قالت.

كادت عيناها تدمعان.

- وأنا أكيدة من أنه لم يقدم لك أحد المساعدة.

- بلى، ماتيلد.

من نبرة صوتي، فهمت بأني ما عدت وحيداً. نظرت إليّ بفرح وقلق فأجبتها بابتسامة.

اثنين الفصح هذا، كل ما له قيمة في الجزائر موجود هنا. فتيان عرب يمرون مع أطباق كسكس مليئة بشرائح البرتقال المغمسة بالكراميل والصلصة، مقرمشة دافئة. تلتصق بقوة باليد ولا يمكن التخلص منها سوى بلحس الأصابع بتهذيب. محتالون؟ بعض الضيوف يسبحون، والبارونة تتصدر المدعوين في كنبة واسعة من أغصان الصفصاف والتي نحت ظهرها على شكل الطاووس مشكلةً هالةً خلف رأسها. وألكسندر في مكانٍ أبعد يخطب.

لكز الكولونيل ذراعي.

«تعال لا تخجل فأنت تساويهم جميعاً، وتأمّل بارونتنا الرائعة تتوسط بلاطها».

سمعت كثيراً عنها لأعرف أنها من النوع المادح لنفسه، والمحتفل بذائقته ونزقه وتبدلها المفاجئ ما بين اللطف والجلافة وكلماتها الشرسة. يؤكدون أنها «بديعة». لقد تطور فن تقبيل الأيادي. فأنا لا أعرف سوى الانحناء بطريقة مربكة ثم لا أعرف بعدها ماذا علي أن أفعل بجسمي

وكيف أتصرف وماذا أقول. لقد أنقذتني هذه الضوضاء.

عرفني الكولونيل إلى الأميرة رانافالو الممتلئة، بوجهها المدوّر المصبوغ بمسحة من السمرة والغارق في حزنه، وقد جلست بصمت إلى جانب الأمير أنّام المنفي هو الآخر، القصير القامة وقد غطى جبهته لفاح حريري أسود، والذي بدا وكأنه يرتجف بسترته الطويلة وبنطاله الساتان. تعلقها بعائلة تونّير[1] بدأ بحركة من البارون، الذي في يوم وصولها إلى الجزائر، رمى على كتفها شملته الخاصة. لم يكن ينقص هنا سوى الحاكم. ويقال إن أسلاف السيد جونار[2] متعصبون جداً للبارونة.

«عزيزي، عزيزي، لندرّب أنفسنا على التسامح»، قال الكولونيل، «أنا الذي يعرف جيداً البارونة، لم أرها يوماً سعيدة كما اليوم. الجنرال المتوفي كان أخلاقياً لم يتمكن من الوصول إليها. وبكل أبهته كماركيز لم يتمكن من إنجاب أطفال. البارون كان أقل خجلاً. فهي التي كانت أطول قامة من الجنرال، بالكاد تصل إلى فم البارون. لم تكن سوى لقمة سائغة أمامه، إلا إذا كان هو لقمتها؟ عندما يكون من عائلة تونّير... وله ثلاثة أبناء ثم يرحل. ومن ثم هناك قديسة في العائلة، إميلي، الخالة الكبرى».

أخبرني بأن البارونة كادت تدخل حياة الرهبنة. فهل أثار فيها نموذج الخالة إميلي الغيرة؟ فقد قضت على رجلين في حياتها. وبالرغم من ذلك قال لي الكولونيل إنه لم يرها يوماً بهذه السعادة. فهل لأنها تسيطر وحدها أخيراً.

---

(1) Tonnerre هو هنا اسم عائلة فرنسية معروفة، ويعني بالفرنسية العاصفة أو الرعد.

(2) Charles Jonnart سياسي فرنسي (1857–1927) يتحدر من عائلة بورجوازية وعرف بشغفه بالجزائر. شغل منصب الحاكم العام في الجزائر في 1881 ثم مرة أخرى في 1900 ليستقيل في 1901 لأسباب صحية.

«إنه سؤال أطرحه أنا أيضاً على نفسي، فلقد وضعت كثيراً أوشحة الحداد. ومنذ وقت طويل لم تلبس سوى السواد. اليوم تغيرنا: نتدثر بالحرير الشفاف والموسلين بالتعريق البنفسجي أو الملون المتموج. وفي المناسبات الكبيرة الأبيض الفاتح قليلاً بلون قشرة البيض، والشعر المصبوغ باللون البنفسجي. أبدو ساخراً. بارونتنا امرأة باهرة وأنا أعشقها ومارغريت تتهمني كثيراً بها. فأنا أتذكر ليلة...».

تردد ثم قرر.

«باش آغا. كانت لتصبح أميرة عربية وكنت لأخضع لها بالكامل. كان يلزم لحمل هذه الحورية على حصانه، رجل من المقراني. إذن يا صديقي، كنا لنرى ربما كونتيسة مقرانية على رأس قبيلة ضد فرنسا. لم يكن ذلك سيحصل دون آلام. خاصة بالنسبة إلي. فنساء العرب لا يتمتعن بحياة اجتماعية باهرة، ثم إن الباش آغا كانت تنقصه الفطرة. وليس البارون. طوال زواجها من الجنرال كانت أسيرة العتمة. البارون أخرجها إلى الضوء. لا تعتبرها ماكرة أو متلهفة للتملك. فآل تونّير يرمون المال من النافذة، ويحتقرون الاستغلال، فقد ارتضوا بقصر أمير روسي في ضواحي الجزائر، في حين يعيشون عزة الملوك والحكام وأحلامهم وعلاقاتهم. أتعرف مَ تتكون هذه الشطائر التي تتذوقها؟».

حمل لي طبقاً جديداً من اللحم الذي نثرت فوقه قطع من المخللات المتبلة. لم أمانع تناوله. لقد وجدته شهياً.

«خنزير بري من جبال البليدة. فبعد زيارة درومون، تلزمك بعض الأجواء الخفيفة. سيبقى لبضعة أيام أخرى هذا الخنزير، وستأكله الكلاب تحت الكنبات. بعضها سيصاب بعسر الهضم. وسيستدعون الطبيب

البيطري الذي لا يقترف البتة فظاظة الإشارة إلى أتعابه، حتى طبيب لا يتصرف بهذه الطريقة أو إن كان فظاً فهو لن يحلم بأن تتم استضافته في الطاحونتين ورؤية علم بلاده مرفرفاً أو الحرف الأول من اسمه. ليس هناك سوى الوسطاء التجاريين في سوق شارتر الذين يتجرأون على طلب المال وليس تجار القطع القديمة في شارع ميشيليه. في إحدى المرات تطلب مني الأمر أن أتسلق جبلاً من رفاصات الأسرة المنحلة للوصول إلى غرفة الاستقبال. يا لبؤس، هذه الأسرّة التي ارتمى فوقها ما لا يعلمه إلا الرب من الأجساد المنهكة! فقد اشترتها البارونة كلها مساعدة للفقراء الذين عرضوها للبيع. وتريدنا ألا نحبها؟ تعال لإلقاء التحية عليها».

نهضت محركةً أوشحتها وكأنها أجنحة طير ونادت:

«أيها الخدم، حضّروا لي حمامي..».

عرب قصيرون وأقزام نشطون يخرجون من المكتب وينادون آخرين ويلتحقون بذلك الذي يحمل المظلة الكبيرة وكأنها مخصصة للقربان المقدس في زياح.

حسبتها ستأخذ الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الخليج الصغير حيث يلحس البحر الصخور، غير أنها دخلت إلى المنزل وحين رأتني ابتسمت. ذهبت إليها وانحنيت أمامها فمدت لي يدها الطويلة النحيفة، بأظافرها اللؤلؤية بأطرافها سوداء، أكانت متسخة[1]؟ لا أدري ماذا دهاني، أنا الذي لم يحصل معي شيء كهذا من قبل، لم أعرف كيف أتصرف، ضغطت بقوة على أصابعها الأميرية الهشة، كانت قبالة عيني، لامعةً ناعمة بملمس الحرير أو جلد النساء اللواتي نحبهن، ولثمتها.

(1) ويقصد هنا على الأرجح الحنة على الأظافر.

«ما أخبروني به إنه لمريع. كنت لأدعو السيد مردوخاي بكري إلى هنا وأقدم له أحسن الغرف، ولكنت أجلسته على يميني إلى المائدة ودافعت عنه بمواجهة أولئك السذّج، الأقل ايذاءً مما نعتقد. ولكنني ما كنت لأسامحه على... عدني بألا تنتحر أبداً واسمح لي بأن أناديك هنري. فأنت تغني كما يبدو».

وابتعدت باتجاه الدرج. كنت في غاية الانبهار، وفهمت حينئذ ماذا يعني أن يكون المرء جنرالاً ويضع تاج الماركيزة عند قدميها وحرق ثروة من أجلها. وصوتها خاصة، على الرغم من أنها لم تعد شابة؛ صوت ذهبي مخملي حرك في داخلي مساحات مجهولة، ففكرت بكل من يعيشون في ليل الصحراء التي أحلم بها والتي تبدأ بعد الجبال، وبالهواء الذي يعصف فوق الأحجار المستوحشة، وأفكر بالشهب. أي سحرٍ، لم أكن سوى حبة رملٍ ابتعلتني زوبعة في أعالي السماء وراحت تدور بي.

«اتبعها يا صديقي»، قال الكولونيل، «جرأتك ستكون إطراء لها. فهي تحب أن نشاهدها وهي تفيق في غرفتها المليئة بالسرخس ونراها تدخل حمامها. جميعنا استمتع يوماً ما بهذا المشهد. وقد كسرنا في المغطس لوحين أو ثلاثة من الثلج. نتساءل إن كانت تفعل ذلك كوصفة تجميلية أو لتطفئ حرارتها الملتهبة...».

هذه السخرية سحقتني حتى وجدتني عاجزاً عن التحرك.

اختلطنا بالمدعوين على الشرفة.

الأمير أنّام، النحيل كعود القصب، يتحدث عن الرسم وعن مشغله في قصر الأبيار. امتلات السماء بالغيوم الآتية من الغرب، وشاح كبير مثل أوشحة البارون تشكل فوق بوزريعة. وللحظات عصفات هواء خفيفة

لفحت البحر الساكن. تقدم المدرّس باتجاه مجموعة من الرجال المثقفين دون شك.

«تفضلوا يا سادة، أقدم لكم واحد من مدرسي متيجة. اسألوه ماذا يعرف عن إسماعيل أوربان[1] وستعلمون حينئذ ما تبقى علينا فعله».

أتذكر أن الكولونيل حدّثني مرة عن أوربان هذا، ولكن اسمه لم يعنِ لي الشيء الكثير. علمت أنه موظف كبير سابق أوحى لنابوليون الثالث بالفكرة الشهيرة والتي لم تطبق يوماً عن المملكة العربية والاتحاد مع الجزائريين. بالنسبة إلي، فرنسا أخذت الخيار الخطأ، فأمن البلاد وازدهارها يتوقفان على احتلال المسلمين أخلاقياً، إذ أن فرنسيي الجزائر يمارسون حقوق سيادتهم دون أن يقدموا شيئاً في المقابل للشعب الذي يستوطنوه ولا حتى التعليم.

«المسكين إسماعيل، لقد جاء ليموت هنا في الجزائر محبطاً بعد عمله الطويل كمراسل متخف لصحيفة جورنال دي ديبا[2]. عليكم أن تقرأوا

(1) Ismaÿl Urbain الذي ولد Thomas Urbain (1812– 1884) وهو صحافي ومترجم وباحث فرنسي تحول إلى الإسلام وبدل اسمه إلى إسماعيل وقد توفي في الجزائر. تعلم العربية في مصر وعمل مترجماً للقوات الفرنسية في الجزائر ثم للجنرالات في الجزائر، وتزوج من جزائرية مسلمة، وأنجب منها فتاة في العام 1843. معرفته بالعربية أتاحت له أن يتبوأ مراكز رفيعة في الجزائر. عمل مستشاراً خاصاً لدى نابوليون الثالث وأثر بقوة باتجاه السياسة المراعية والمتقربة من العرب التي انتهجها الإمبراطور. وقد عانت ابنته من اضطهاد محيط المستوطنين والأوروبيين. توفي إسماعيل أوربان في الجزائر تاركاً الكثير من الأبحاث والدراسات والمقالات. وهو الشهير بإدخال مصطلح Kabylie إلى القاموس الفرنسي. وهو الشهير بدراساته حول التعليم في الجزائر حيث قال في إحداها إن عدد الأميين بين الجيش الفرنسي الذي غزا الجزائر فاق عدد الأميين لدى الشعب الجزائري الذي كانت نسبة التعلم بينه مرتفعة لحظة الغزو.

(2) Journal des debats أي صحيفة الحوار وهي صحيفة فرنسية أنشئت في العام 1789 واستمرت في الصدور حتى العام 1944.

هذين الإصدارين له، أولاً نشرة الجزائر للجزائريين - فهو، وعلى الرغم من استنكار الجميع، لا يطلق اسم الجزائريين على المحتلين وإنما على أهل البلاد المسلمين - وكتابه «الجزائر الفرنسية»، والتي يطالب فيه بالعدالة بين الجميع، وأن تسلم الزراعة للفلاحين والمعامل للأوروبيين...».

لسوء حظه، فقد ولد إسماعيل أوربان في كايين[1] ثمرة غرام بين رجلٍ من مرسيليا وامرأةٍ خلاسية. خلاسي وأضف على ذلك ابن زنا! في الجزائر حيث بدأ كمترجم مع بوجو، تزوج من امرأة عربية وتحول إلى الإسلام. في لوحة احتلال الزمالة[2] التي رسمها أوراس فرني، كان واقفاً إلى يسار الدوق أومال ووحده من أبقى سيفه في غمده. كان يكتب تقارير الجنرالات ولعب دور صلة الوصل مع مجتمع الملسمين وأصبح مستشاراً حكومياً. لم يتجرأ أحد على مهاجمته، هو مدير شؤون الجزائر.

«في مدينة الجزائر، كانوا يسمونه العبد. لم يكن عبداً أكثر مني ومنكم. فهو يشبهكم، في عمر أصغر، رأس مدور تقريباً مع لحيةٍ قصيرة والكثير من عزة النفس. فكراهية أوساط المتثاقفين لم توهن عزيمته يوماً. وكان المارشال بيليسييه يسميه الثعلب المقطوع الذيل، إنها العقلية الجزائرية. كان يردد: سأقتل هذا المختون.... عندما توفيت زوجته لم يشارك في جنازتها سوى مسلمين. في أوهام استعادة الحظوة، تزوج في الكنيسة مرة أخرى من ابنة صيدلي عسكري وعمّد ابنته. بعد حرب العام 1870، أحيل إلى التقاعد. في زمن الجمهورية، أراد أخيراً جول غرفي[3] الاستماع إليه، لكنهم نجحوا قي تثبيط عزيمته. فأن يحاول عقل حر أن يرى بشكل واضح

(1) Cayenne هي بلدة فرنسية.

(2) الزمالة وهي تابعة لدائرة وبلدية برج الغدير في الجزائر والتي احتلها دوق أومال.

(3) Jules Grévy هو الرئيس الرابع للجمهورية الفرنسية من 1879 إلى 1887.

ويعامل السكان الأصليين بصداقة، فإنه محكوم ليفشل. لذا اتعظوا. هنا، الجمهوري الحقيقي لا يتبنى الدفاع عن العرب».

فجأة فهمت التسامح الذي أبديته باستقبالي بلقاسم في مدرستي.

«بمَ يحلم المستوطنون يا صديقي؟ ليس أنا من يقول ذلك، بل الجنرال هانوتو، رجل إسلامي: كلمة الديمقراطية دائما على شفاههم ولا يعملون سوى في مؤسسات تعمل بنظام إقطاعي بورجوازي ويلعبون تحت حماية السلاح دور الأسياد حاصرين الجزائريين بدور العبيد...» أليس هذا رأيك، كولونيل؟ فنحن سندفع عاجلاً أم آجلاً ثمن الأخطاء التي نقترفها ومن سيأتون بعدنا حتماً...».

شعرت بالهزيمة، فما كنت أشعر به بشكل غامض بان لي واضحاً جلياً. المدرّس كان اسمه ماسكيراي، إميل ماسكيراي. فهو يدرّس في ما سيصبح جامعة الجزائر. أليس من أمل؟ مريد لهذا النبي الذي ما زلت أجهل كل شيء عنه حتى الآن، ولديه في الوقت نفسه مريدون له. إنه رجل ثقيل وازن ذو سلطة قوية، مرح إلى حدٍ ما ويحب الحياة، وليس أبداً فأر كتب.

– ولكن ماذا يمكن فعله؟

– لا شيء إضافياً، ابق هنا إن كان ذلك ممكناً. اعمل، فمن الجميل جداً العمل في بلادٍ كهذه! عندما نذوق طعم هذه السماء كيف يمكننا أن نغادرها؟ سر الأشياء كلها هو الحب. انظروا إلى أصدقائكم. أيبدون تعساء؟ والبارونة؟ هل ستذهب لتدفن نفسها في فرساي أم بوردو أو فونتينبلو؟ وأنا هل سأوفق بأن أعمق الحقائق في رؤوس طلبتي كما أفعل هنا؟ لابد من أن نخرج بنتيجة ما».

عدنا إلى الجزائر مع بداية الظلام في عربة الكونتيسة سافورنيان دي برازا. ليست جميلة وتبدو مجنونة بعض الشيء ولأولادها سواعد مثل بشر الغاب ولكن يقولون إن ابنتها التي لم تكن موجودة اليوم، فائقة الجمال. فهذه المرأة الدؤوبة رافقت زوجها في كل حملاته، تقول: «لقد أنجبت ثلاثة أطفالٍ على صهوة حصان..». كانت الطريق مزدحمة بالعربات التي يمضي الكثير منها بلا مشاعل، وقد انبعث منها العزف على المندولين، وكأنهم ثملون من البحر والشمس والنبيذ الوردي.

كنا بالأحرى نشعر بالحزن، لا أعرف لماذا كانت مارغريت صامتة. أخذ الكولونيل يتحدث عن صناعة السينما، فقد حضر عرضاً في شارع باب عزون، وأكد بأنها خدعة الحياة نفسها، وبأنها ستحدث انقلاباً في الفنون. تخطانا بعض الدراجين شبه المخمورين. فهذه الموضة أوجدت مجانين في كل مكان يبحثون عن تحقيق رقم قياسي، ذاهبون للمشاركة في تجمع ميدان الدراجات في الجزائر. في أوروبا هناك مباريات في فيينا وباريس، ومسابقة موسكو– سانت– بطرسبورغ. ينصح في هذه الرياضة بشرب النبيذ المكوّن من كينكينا وكولا وكاكاو واليود والفوسفات. الكولونيل الذي جربه يقول إنه أمدّه بالنشاط.

بقي ألكسندر في الطاحونتين. ربما ليتحاشاني؟ فالمتصلفون هناك كانوا من عمره ومن مقامه. وهو يشعر بالراحة وسط أولئك المحميين، يغازل بعض الفتيات الجميلات، يا لخسارة ألا يقع في غرام فتاةٍ يهودية... كما فوجئت بأن هذا المتوحش من مناهضي درايفوس لم يتأثر بالحادثة. هل أنه افتقر إلى الجرأة أم خشي أن يبدو مضحكاً؟ أنهت البارونة حمامها ونزلت تسبح في غيمة من الموسلين البنفسجي والزهري. هتف الجمع

مبدياً إعجابه وصفق لها. وشبّهها أحدهم بالراقصة الشهيرة لوي فوللِر التي حققت شهرة في باريس عندما رقصت بثيابٍ شفافة حولتها الأنوار الكشافة إلى تفجر ألوان بين الأرجواني واللازوردي والزمردي وبياض الثلج. البارونة كانت تلعب دور فولي برجير[1]! غرابة الأطوار هذه كانت لتبدو مضحكة عند أي امرأة أخرى. نتسامح معها، لا بل يبدو ذلك كله طبيعياً. بدأت فجأة بالتخلي عن هذا المشهد والاستسلام لفكرة أنها عجوز محترمة، لم نلتقها ثانية، وما عدنا نبتسم أيضاً لذكرى الشيخ العاشق فاحش الثراء الذي وبعد الحاكم، ساعدها وأقام حفلات على شرفها في منزله في مصطفى. هذا المجتمع الذي وجدت نفسي فيه بالصدفة فتنني قليلاً، ولكن مع الوقت شعرت فيه بالاغتراب وسئمت منه. لم أستطع الذوبان فيه. مباريات كرة مع الكولونيل، نقاش مع مدرّس ماسكيراي، كأس بانش، شعرت أنني أخون مكاني. وانتابني خاصة شعور التخلي عن بكري وأني لم أقم بواجبي كمضيف وشككت قليلاً بما قالته البارونة من أنها كانت لتجلسه إلى يمينها. ففي الطاحونتين يؤيد الناس قضية درايفوس ولكن ليس هناك التقى ابن تونيّر فتاة أبوالخير[2]. وتركت نعش بكري يذهب على عربة مع رجال الشرطة... أيكون السبب نقصاً في الشجاعة أم لأتحاشى بهجة مرضية ما؟

بانتحاره، فقد حرم نفسه من هذه المراسم، وتُرك برعاية أولئك الوثنيين، فإن تُليت صلوات بالقرب منه كانت على شفتي ماتيلد،

---

(1) Folies Bergere هو ملهى ليلي على شكل قاعة كبيرة كانت حفلاته وحياته الليلية رمزاً للحياة الباريسية في الفترة الذهبية أي بين 1896 حتى عشية الحرب العالمية الأولى في 1914، وما زال إلى يومنا هذا يقدم حفلات راقصة ومتنوعة.

(2) Aboulker (أبو الخير) هي عائلة جزائرية يهودية.

صلوات مسيحية، أما أنا فلم يكن لدي سوى اضطرابي لأقدمه له ولم أذهب إلى البليدة. فألكسندر وعد والده بالمشاركة وهذا أفضل بكثير من كل ما يمكنني القيام به. تذكرت كلاماً لطالما سمعته في طفولتي المسيحية: «اتركوا الموتى، ادفنوا الموتى...».

اشتقت لروفيغو، فهي ليست مدرستي فحسب، بل كنيستي حتى وهي فارغة، فيها أدرس تعليمي المسيحي الخاص.

المدوّنة السابعة

عند مرور ساعي البريد في اليوم التالي، إشعار باسترداد البيانو، ورسالة من إجيني تتحدث فيها عن طفل.

في اليوم التالي، الثلاثاء، وفي الوقت الذي كنا نستعد فيه لمغادرة المنزل مرّ ساعي البريد. كان يحمل لي إشعاراً من ترانسات[1] بوصول طرد يخصني، وأيضاً مغلفاً يحمل طابع تروا[2] وخط إجيني الذي ميزته من طريقته شبه الطفولية الذي يشبه خطّ الأمين. «مسيو دماتون هنري، مدرّس حكومي، منزل الكولونيل غريبه، جادة بالمييه، الجزائر». بعد أن تأكدت من أن الرسالة منها، خبأتها في جيبي. بالنسبة إلى إشعار ترانسات، فإن وزن الطرد 132 كيلوغراماً هو ما أوضح لي طبيعة الطرد.

ألقى الكولونيل نظرة سريعة على الإشعار الذي عرضته عليه.

«أهو البيانو؟».

كنت قد نسيته تماماً، إنه هنا. فمعاكسات الحظ لا تأتي إلا مجتمعة.

تحسّست رسالة إجيني مع أني كنت أعرف مضمونها.

«أستمحيكم العذر!»

ما قرأته غير لون وجهي.

عند انطلاقي من الجزائر كنت أعرف أن إجيني حامل. عندما أقفلت بوجهها باب المنزل، أخبرتني بذلك عبر ورقة مررتها من تحت الباب. لشدة غضبي حينها مزقت الورقة. أعادت ذلك أمام القاضي على سبيل الدفع

(1) Transat شركة شحن.

(2) Troyes هي عاصمة مقاطعة أوب، شمال شرق فرنسا.

باتجاه المصالحة. فأجبت «حامل ممّن؟»، متأكداً حينها من أنها خانتني. أعمتني الكراهية التي استبدّت بي وغرقت في الغضب والحزن. اعتقدت أنها مناورة منها لتحصل حقوقاً مني. وعندما تأكد طلاقنا وتخصيصي لها إعالة شهرية وقراري بالسفر إلى المستعمرة، كان علي أن أعترف بأنها يمكن أن تكون حاملاً مني لا بل كان عليّ أن أستغرب أن ذلك لم يحصل بعد. عندما أحببنا واحدنا الآخر لم تخطر في بالي الفكرة البديهية لإنجاب طفل، وكأنها كانت بشرى سيئة. وبسبب روبير الذي بات بالغاً والذي كان من الصعب أن أقدم له نصف أختٍ أو نصف أخٍ في حين أن والدته ما زالت حية، أو ربما لأني كنت متعلقاً بإجيني كعشيقة أكثر مما كزوجة؟

في رسالتها الأخيرة، أخبرتني بأنه كان عليها أن تضع الطفل في رعاية مربية لكي تتمكن من العمل وأرسلت لي العنوان: شارع لومبار في ترويس في حال رغبت في معرفة المزيد.

ماذا يدور في رأسها؟ لا يمكنها أن تعتقد بأنني سأطلب منها العودة لي. أتذكر كل ما عشته في ذلك الوقت، حين هددتني بأنها سترمي نفسها في بحيرات لا جيبري، وغضبي والجلبة التي أحدثها انفصالنا. يمكنني احتمال أيّ شيء سوى التهكم. في تلك الفترة من علاقتي بإجيني انتابتني مشاعر عميقة بالمهانة. أي مثال كنت أقدم في التعليم العام! بمَ تنفع امرأة مثلها؟ أيّ مكانة بقيت لي؟ فقد كسبت احتراماً كبيراً من خلال مهنتي والتي أدين فيها لأبي، فأنا آسف، أعترف بذلك، لأن إجيني لم تقدم على الانتحار. بكل وقاحة، كم كان ليكون مريحاً، يا إلهي! كم كان ليحلّ كل شيء، مستقبل هذا الطفل ومصير الأم وبؤسي. لماذا ندفن رؤوسنا في الرمال أو نوهم أنفسنا بمشاعر ليست لنا؟ فالكذب وتحوير الحقائق فن لا

أمتلكه.

استعادت السماء كامل صفائها، والضوء الباهر يجعل صفحة البحر تتلألأ. لابدّ من أن الكولونيل افترض أن وصول البيانو هو ما أزعجني.

لم أكن مهتماً البتة لأمر البيانو. كنت أفكر بماتيلد وماذا سيكون تأثير هذا الطفل الجديد عليها. في تخيلاتي، فقد نجحت ولم يكن سهلاً إقناعها هي أيضاً في أن تطلق لكي تتزوجني، صمتت فعرفت أنها مترددة، كان يكفي القليل لفصلها عن الشرطي، وأتذكر الكلمة التي قالتها لي عندما طلبت منها أمام الجثمان البائس لبكري إن كانت خائفة «مم؟...» بمَ ينفع إذن أن أخفي عنها؟ سينتهي الأمر بأن تعرف بولادة رينيه هذا. أتخيل نفسي أقول لها: «أي أهمية لذلك، ولد بالزائد أو بالناقص؟» إنه لأمر غريب هذا الدليل على مرور إجيني في حياتي، فهذه العاقبة الفظيعة جعلتني أؤسس ذرية، وذلك لأتوج كل الأخطاء السابقة بخطأ جديد أكثر ضخامة أيضاً؟ ولأبدأ أخيراً بان أحبّ وبأن أبني حياة مع امرأة حقيقية؟ علي في البداية أن أواجه صعوبات الموقف: موت بكري تحت سقف بيتي ربما سيحقق تحولي.

في البداية عليّ أن أعود. يمكنني أن أستقل قطار الظهيرة. سأعتذر وأعدهم بمراسلتهم وأنطلق. عادة، بالقرب من المرفأ أستنشق متلذذاً رائحة فراخ السمك في المقصف، وأشتهي أكل السلطان ابراهيم أو أيضاً القريدس الزهري الكبير والذي يسمونه لنغوستين والذي يقدم مع المايونيز. أبسبب هذه الروائح أحبّ الجزائر؟ إن كان عليّ اختيار الحيّ المفضل لديّ في هذه المدينة، فسيقع خياري بين ساحة بروسون المطلة على

البحر، وبين ميناء الصيادين عند تقاطع ساحة الحكومة وساحة ماهون من حيث تنطلق العربات إلى السهل. بين فندق جنيف عند مستهل طريق مارين، فندق ريجينس وفندق أبولّون أبعد بقليل، باعة ورود وأكشاك صحف في الظل الخفيف لأشجار النخيل. عرب يتنزهون ببرانسهم. الجزائر تتمدد في الشمس كالسحلية، تتناقش وتشرب الأفسنتين وتدخن. من وقتٍ لآخر يمر تراموای يتهيأ للتوقف أمام الجامع. نظرت إلى أشجار الجميز التي ما زالت صغيرة والمزروعة بين شارع باب الواد وشارع باب عزون، أشجار فقدت وريقاتها. الجميز شجر من الشمال لا يتلون في الخريف بألوان السحر وخشب الزان وخشب البتولا وشجر القيقب أو فقط بالجزة الصهباء لشجر السنديان. إنها شجرة سخيفة إلى حدٍ ما، تتعرى مدبوغة بلون أسمر لأنها هذه هي العادة، هكذا بلا ماضٍ. متى سأرى ثانية غابات فرنسا التي يكسوها أكتوبر باللون الذهبي مع العناقيد الحمر لشجر الكرز البري؟

باعة يرقّصون أكاليل الياسمين كالمباخر. وصل القطار مكتظاً. وجدت بصعوبة مقعداً في مقصورة يشغلها أوروبيون عائدون إلى منازلهم بعد انتهاء طقوس الموتى. يقولون إنه خلال أيام الأعياد يجب حظر تجول هؤلاء الهمج. فقد عانى الجزائريون بما فيه الكفاية للحصول على الحق في التنقل من نقطة إلى أخرى ويجب أن يحملوا معهم تصاريحهم إذ قد يسألهم عنها المراقب أحياناً.

فكرت بالبيانو. فالرغبة في الحصول عليه بقصد الاستفزاز بدأت تتملكني شيئاً فشيئاً. ففي حين أن كل الأشياء التي أمتلكها ضرورية، ليس هناك أيّ فائدة ترتجى منه. وسبب إضافي هو أنه قد يبهر ماتيلد. فدون أن

تدري قد تساهم إجيني بالوصول إلى ماتيلد. نعم، ولكن ماذا بعد أن تعلم ماتيلد بمصدر البيانو؟ وما الذي يمنعني من تعلم العزف عليه؟ ففي روفيغو يحتقرون كثيراً الفنانين ولا يهتمون سوى بمن يجمع المال، فهذه المادية تضمر اعترافاً بالدونية. وظيفتي كأستاذ تمنحني سطوة عليهم، إذ يتخيلون أنني أعرف الكثير من الأمور التي يجهلونها. لذا يحترمونني.

عند محطة الكينا، استولت عليّ تدريجياً فكرة التوقف في لاربعاء. فأنا لم أرَ غوريو منذ أكثر من أسبوع وسأروي له قصة بكري. كيف ستكون نظرته لي؟ عيناه الزرقاوان الباهتتان يجعلان الخوف يدبّ في أوصالي. عادته تلك، كما لو كان مزكوماً، في التشخير ممرراً يده على ذقنه التي لا تكون دائماً حليقة بشكل جيد، تزعجني. يفكر ويهزّ رأسه، مطلقاً أحكامه. لابدّ من أن تزعجه هذه القضية. ولو أنني استقبلت مسلماً في منزلي لكان اعتراضه أكبر بالطبع. أحسن فعلاً بعدم الاهتمام بموضوع اليهود فهو يعترف بأنهم أكثر قرباً منا. قلت لنفسي إنني سأمضي معه ثلاث ساعات أعود بعدها إلى روفيغو في القطار الأخير.

في المقصورة المجاورة، بدأ ولد بالنحيب. فتذكرت ذلك الطفل رينيه الذي من المفترض أنه بلغ السنتين. وفي موجة ضغينة مباغتة سريعة تشككت للحظة بكونه ابني. فكرت بهدوء. تاريخ الميلاد الذي ذكرته لي إجيني لا يترك أي شك: إنه ابني بلا شك. أخرجت الرسالة من جيبي وأعدت قراءتها. فقد هزني سطر تقول فيه: «إنه ولد وسيم فطن كأبيه».

هذه الكلمة حركت مشاعري. هل تغيرت إجيني؟ فقط لو لم تكن طائشة إلى هذا الحد... ولكن هل كان ذلك طيشاً؟ وعلى الرغم من استهتارها الشديد وقلة مناسبتها لتكن زوجة مدرّس... فإن الستة أشهر

التي قضيناها معاً تركت عندها، على ما يبدو، رقة حزينة، أما أنا فقد جعل لقائي ماتيلد مشاعري أكثر رقة. إن كانت قد خانتني فمن المفترض أن ذلك قد حصل لاحقاً للانتقام من الرجل الذي طردها. فهذا الطفل لم يطلب أن يولد، وها هو الآن هنا، أقل سعادةً من الطفل الذي كنته أنا؛ فالأب حتى لو كان قاسياً يبقى أباً، يكون مثل شجرة. فكرة أن يعيش معي أغرتني للحظة ولكن كيف سأربيه؟ فأحمالي ثقيلة جداً وروبير سيغار منه، وستتردد ماتيلد حينئذ بالارتباط بي.

ماذا يمكنني أن أفعل بطفل؟ فابني الحقيقي، صنيعة دمي ولحمي وعقلي، ثرائي الوحيد وعذابي وأملي الذي يمدني بقوة الحياة وبالمقاومة والمجابهة هو واجب تثقيف هذه البلاد، وأن أقول حقيقة لا يجرؤ الآخرين على التعبير عنها. هو أيضاً ما أكتبه الآن وهذه المدوّنة التي أضيف إليها كل يوم، حتى ثقل وزنها. قد يحصل أيضاً أن أحرقها يوماً ما، فهي لا تهمّ سواي. الناس يتخلصون حتى من العكازات التي ساعدتهم عندما شلّ أحد أطرافهم. إلا إذا...

ماتيلد هنا، أراها، وجهها بين يدي مضاء دائماً بالقمر، مثل الليلة التي ذهبت فيها لطلب مساعدة المسكين بكري. فإن لم تغادر قلبي منذ أن التقيتها منذ سنتين، إن كانت هي من دلتني على زهرة الآلام في ذكرى أورتينس، فلست أقترف أيّ غباء حين أفكر أننا الاثنان ما زلنا شابين. وما زلت حراً. هي زوجة الرجل الذي لا أعرفه، الشرطي الذي ما عادت تحبه والمتعلقة به ربما أكثر مما أعتقد والتي قد لا ترغب ربما في تركه... فهنا الطلاق لا يحصل إلا بين أبناء الطبقة الراقية مثل عائلات الطاحونتين، لا عائلات باري أو فيرتو. إذن ماذا سيحصل لي؟ فهل أكون تحملت كل

هذه الآلام والآمال من أجل لا شيء؟ أرفض أن تكون ماتيلد خدعة. هنا في وقت الحصاد، تجر الجياد آلات ضخمة لجز الحقول. يكدسون حزماً تعمل آلات أخرى على تذرير الحبوب منها، ولقطاف العنب، تأتي حشود من القبائل تتغلغل في الكروم وتقطع العناقيد وتسكب السلال في الأحواض الخشبية. والرائحة التي تنتشر تذكرني ببلدة لفينيي[1]: خلف العربات العائدة من التلة الكلسية، على طول قمة التلة التي تربط القرية بطريق بار- سور- أوب وتشرف على السهل كمنحدر كلسي. كان أبي يملك بعض الكروم من جهة فرينغال وتومب وكوت- أ- فور. أي حملة هي، حصاد العنب! كل العائلة تشارك فيها مع شباب مويْفير، فمن دونهم يستحيل حمل العنب؟ فهم من يملكون العربات والدواب. وذاك كان الوقت الوحيد في السنة، الذي وبسبب حاجته إليهم، يبدي لهم أبي شيئاً من الاحترام، مما يرسم بعض البهجة على محيا أمي، فلديها الحق بلقاء أهلها ومساعدتهم على قطف عنبهم ثم ذات يوم أحد يأتي الجميع بدورهم لمساعدتنا على قطف كرومنا. يلتحق بنا أبي بعد القداس الذي أغيب عنه في هذا اليوم. الرائحة المدوخة للعنب عند عصره بالأقدام، أيدينا ووجوهنا الملطخة بالحمرة والمدبقة بالسكر؛ إنها أجمل صور طفولتي. أيعود الفضل في ذلك إلى ضوء الخريف وعذوبة الأيام الجميلة الأخيرة أم إلى ابتسامات أمي؟

لو حظيت ثانية بمثل هذه الأيام، فماتيلد هي من سأصطحبها على عربة حصاد العنب، محدّثاً نفسي بأنها هي من ستكون نبيذي. ولكن أيّنا هو العنب وأيّنا المكبس؟ سيد الأرض أوليس هو الشرطي؟ فهل سيتركني

---

(1) Lévigny هي بلدة في مقاطعة أوب الفرنسية.

لمرة فقط أحصد العنب المنسي؟ تذكرت، تذكرت، الناطور كان محقاً، إنه الزمن الذي تعود فيه الشحارير. نحسبها في الصيف هجرت الهضاب الشديدة الجفاف. وفجأة نسمعها من جديد تهدر خلال تحليقها من الأجمات أو أشجار الدراق التي لمّا تنضج ثمارها بعد، لا تطلق صرخاتها المعتادة بل صرخات حادة، نداءات فظة تلعلع قليلاً، شبه ضحكة ساخرة تطلقها طيور التّوءمع إحساسها بقرب الشتاء. في لفينيي ينبغي الحذر، فبعد صيف كئيب أو خريف ماطر، ونحن ننتظر الأسبوع الأخير من أكتوبر لقطاف العنب، يحدث أن يسقط البرد ويجرفه. أي نطل[1] هذا العام! فالنبيذ الذي نصنعه عندنا لم يكن يوماً بتلك الكمية الوفيرة، لا يحق لنا سوى في الوديان إطلاق تسمية الشمبانيا، ومنذ أن قضى منّ[2] النبات على كل شيء، تخلى الناس عن العمل. في الجزائر ظنوا أنهم نجوا من الكارثة ودفعوا المستوطنات إلى زرع الكروم. كم انتحبوا عندما فاض البحر وقضى على كل شيء، يا لحجم الدمار!

إنني أخلط الأمور ببعضها بعض: حصاد العنب وماتيلد والشحارير وطيور النّوء، أقارن نفسي في البداية بفيل في طريقه إلى الشمال، فعندما تؤوب الفيلة كطيور النّوء إلى أماكن ولادتها، أتفعل ذلك بهدف التزاوج أم الموت؟ إنني أكتب بنوع من الغضب المقدس، أهذا كما أظن من أجل أن أتحرر، وأشرح نفسي لنفسي، وأخترع أسباباً لما يدور في داخلي وصولاً إلى التعفف الذي أبعدني عن كل النساء منذ إنفصالي عن إجيني أم ببساطة لأن هناك ملاكاً يزورني كل يوم وأنا أكتب؟

(1) النطل هي عصارة العنب عندما يسكب فوقها الماء.

(2) المنّ هو قمل النبات.

المدوّنة الثامنة

في لاربعاء، يبحث المدرّس عن السيد بلعباس، والد تلميذه بلقاسم. الشاي الممزوج بالنعناع بين روائح أكياس الفاصولياء والحمص.

في ساحة لاربعاء حيث سيكون هناك سوق في اليوم التالي، تجار يكنسون مداخل محلاتهم ويبسطون بضائعهم. المدرسة التي شيّدت ناحية الشمال، تخفيها الكنيسة التي تذكر بمئذنتيها الباقيتين، بكاتدرائية الجزائر، والتي حاولوا كثيراً نسيان دمامتها المهينة. فغوريو يتقصد دائماً أن يدير ظهره لها.

كنت قد أصبحت على بعد مئة متر من منزله وتخيلته وهو يشذب شجيرات الورد في حديقته المسورة بحائط وسياج حديدي حيث يحاول أن يزرع أشجاراً لتخفيه عن الأنظار، وتخيلته يقول لي: «آه، ها أنت ديماتون»، عندما توقفت بشكل مباغت وعدت أدراجي ثم سألت بقالاً جزائرياً عن دكان بلعباس. خرج ودلني على الطريق.

خلف مركز الشرطة، في طريق مستقيمة يبرز الدكان: صغير ونظيف ومرتب مع أكياس من الفاصولياء والسميد والتمر المضغوط عند العتبة، رفوف منظمة جيداً، تراب منكوش سقي للتو. عند دخولي قفز السيد بلعباس من وراء مكتبه. إنه رجل قوي البنية وما زال شاباً يعتمر عمامة واسعة وحيك[1] ويرتدي سترة رمادية تغطي سرواله وصداره. وجهه يبدو

(1) حيك هو ثوب أبيض خارجي يرتديه أهالي شمال أفريقيا.

رقيقاً؛ شاربان سمراوان قصيران وعينان تحت حاجبين غليظين شديدي التقوس. مد لي يديه هاتفاً تقريباً باسمي.

«لم أرك قط ولكني عرفتك مباشرة. زيارتك تشرفنا كثيراً. لو سمحت...».

سحب إستكملة وأجبرني على الجلوس.

كانت تفوح رائحة الشمع والعسل وتبغ شبلاي والتين المجفف والخضار. وجدت في الأب والابن الحيوية نفسها. يتكلم بشكل واضح وبشيء من الرسمية مع لكنة تسحق الكلمات قليلاً وتبدل نغمتها. غاب للحظة وعاد؟

«لقد ناديت بلقاسم، فهو يلعب في الجوار».

استولى على حقيبتي. «ستتغدى معنا اليوم. أجل، أجل، أنا مصّر».

تحدث مع زبونين لم يبدوا على عجلة من أمرهما، راقب الميزان موحياً بأنه وبفرح ضبط جيداً وزن الخضار والتوابل والخبز المحلى والمعكرونة الفلت.

«بلقاسم سيسعد كثيراً وأنا...».

بحث عن الكلمات...

– ... حظيت أخيراً بالفرصة لكي أشكرك.

– على ماذا؟

حمل صبي من المقهى المجاور أقداحاً رفيعة. شرب كل منا مستنشقاً بقوة الشاي الحار جداً والمحلى كثيراً والمعطر بأوراق النعنع. لم أذق مثله من قبل وقد أعجبني. كنت فعلاً أرغب في البقاء على الغداء ولكن كيف سأعود إلى روفيغو؟ قال لي السيد بلعباس إنه سيوصلني بالعربة فقبلت.

ظهر بلقاسم وارتمى بين يدي. فوجئت قليلاً، فهذه هي المرة الأولى التي يقابلني فيها أحد طلبتي بمثل هذه الحماسة.

«لست غيوراً. فبمعنى ما أنت أبوه أكثر مني. هل أنت عائد من الجزائر؟ هل قضيت هناك عطلة عيد جميلة؟».

لمعت في رأسي ذكرى بكري والطاحونتين والبيانو ورسالة إجيني، ابتسمت.

«الأعياد، أنت تعرف...».

قال لي اسم قريته، في البداية لم اسمع جيداً الاسم الذي يلفظه بالطبع كما يقولونه هم ولكن هذا ذكرني باسم ذكره الكولونيل مرة وله السجع اللفظي نفسه.

- إفرحونن؟ سألته.

- نعم هذه هي. فبلاد القبائل فقيرة جداً ومحافظة جداً. هنا أكسب معيشتي جيداً، وبلقاسم يحظى بفرصة للتعلم.

ثم بدأ يتكلم بالعربية وبطريقة سريعة جداً مع زبائنه. اقترب آخرون بدافع الحشرية وامتلأ الدكان.

«قلت لهم إنه لولاك، لما وجد ابني مكاناً في المدرسة. هناك من يقول: ليس بالضرورة، لماذا نقدم لأولادنا تعليماً أجنبياً؟ القرآن يكفي. سنرى لاحقاً، قد أكون مخطئاً. ولكن لو كنت على صواب فالفضل يعود إليك. فأنت تفعل الصواب».

قال فيريتي[1] لتصبح الكلمة مضحكة، سيسخر مني الأب فيرتو. وماذا

(1) ويقصد كيف أن الأب لفظ Viriti بدلاً من الكلمة الصحيحة في الفرنسية Vérité أي الحقيقة.

سيفكر غوريو، السيد جويل غوريو عندما سيعلم إنني دخلت منطقة نفوذه دون أن أمرّ لزيارته؟ فبعد حادثة بكري، بات عليّ أن أكون حذراً، هذه الكلمة التي لا تفارق شفتي غوريو، أحرص على ألا أعرض نفسي للنميمة. وإذن، فليبقَ هنا كل في شأنه، وها أنا وبعد اليهود أزور العرب، وكأني أسعى وراء كلّ ما ينبغي عليّ تفاديه.

وبلا شك، ولكي يجلس معي على انفراد، ويحجبني عن المتطفلين، قال لي السيد بلعباس إنه سيصطحبني إلى منزله.

يسكن في ضواحي البلدة، في منزل صغير له سقف من القرميد، بجوار دوار بلدي مكتظٍ بالسكان. كان هناك أطفال في كل مكان، مع أسيجة من القصب والدجاج في الأزقة، وذلك ما يشعرنا قليلاً بأننا في القرية. لابدّ من أن الأوروبيين لا يترددون كثيراً على المكان، إذ أخذوا يحملقون بي، ويمشون ورائي، وكأنني حدث فريد من نوعه. استقبلتني زوجة بلعباس وابنتاها. كن يلبسن فساتين سود طرزت بالورود، فساتين قبلية بالطبع، ولا يتكلمن الفرنسية. أخذ بلقاسم حقيبتي ووضعها على الكرسي الوحيد هناك. رفعها السيد بلعباس واقترح عليّ الجلوس على الكرسي لكنني كنت سعيداً بالقعود على السجاد والوسائد، وألا ألعب دور المتعلّم الذي يصحح مسابقات الطلبة في الصف. أشار السيد بلعباس إلى دفاتر وكتب ومحفظة بلقاسم المرتبة في الزاوية.

انشغلت الأم في إعداد الطعام تساعدها جارتها. اختفت الابنتان ثم ظهرتا وبقيتا على مسافة كبيرة منا. وجلس بلقاسم القرفصاء بصمت في إحدى الزوايا. كانت لديه ملامح أمه ووجهها البيضاوي المائل إلى السمرة، وكانت عيناه السوداوان تلمعان بالكبرياء. علمت أن لديه

شقيقان أكبر منه يعملان لدى حداد لاربعاء.

قلت له إنه لو أكمل دراسته يمكنه أن يصبح مدرّساً. ماذا يمكن تخيل أكثر من ذلك؟

«يمكنه أن يدرّس في بلاد القبائل. فهم يشيدون حالياً الكثير من المدارس هناك».

أردت أن أعرف كيف ينظرون لليهود.

«أبسبب ما حصل في روفيغو؟».

أخرجت الفتاتان أقداح الشاي. فمن خلال هذه المنضدة، من طراز هنري الثاني التي تتوسط الغرفة، تحاول عائلة بلعباس التشبه بالأوروبيين. كانت هناك أيضاً صناديق بربرية وصوانٍ نحاسية، وحُصر ورسم متخيّل للبراق، ولكن الخزانة بالمرايا المزدوجة وأرففها المصنوعة من الخشب المشغول حيث توضع الأقداح بالمقلوب، كانت علامة على الوفرة المادية والفخامة.

«لطالما كنا على وئام مع اليهود. وقد قدموا لنا الخدمات. وقدمنا نحن لهم الملجأ عندما اضطهدوا. مثلنا هم يحتفلون بهزيمة شارل الخامس: يوم صيام ويوم شكر للرب على رمي الإسبان في البحر. أنت يا سيد ديماتون، تستقبل اليهود وتدخل ابني إلى مدرستك، فأنت تفعل الصواب».

هذه الكلمة التي ظلّ يرددها أثرت بي.

تناولنا الكسكس الذي سكبته لنا النسوة. لم يجلس بلقاسم بالقرب منا، فهو ليس الابن الأكبر، بل أكل على حدة. لدى العرب تقاليد لا يتجاوزونها. ووصف لي بلعباس متندراً الحداد الضخم الذي يعمل لديه ابناه والذي لا يتنازل ويتكلم مع العرب ولا يتواصل مع شغيلته سوى

بالإشارات وبالصفير وكأنهم كلاب. إنه لأمر مخز.

أعرب عن رغبته في أن أبيت الليلة عندهم، لكنني رفضت. كنت متشوقاً للشعور بصفي على مقربة مني، وأن أواجه الآن ذكرى بكري وألتقي ماتيلد. ما بقي عليّ أن أفعله هذا المساء؛ أن أغوص أعمق في داخلي.

هبط الليل عندما حملتنا عربة يجرها حصان هرم مرقط يجرجر نفسه بصعوبة.

السبعة كيلومترات التي تفصل لاربعاء عن روفيغو كان يمكن اجتيازها بسرعة في القطار. جالسون على المقعد المخلع كان لدينا الوقت للمشاهدة. لم نلتقِ أوروبيين. فقط سكان أصليون يعودون مشياً على الأقدام إلى دوارهم. جلست في المقدمة بين بلقاسم والأب الذي تولى القيادة. وفي الخلف وعلى صندوق جلس الجار الذي ربما تعود إليه العربة.

الجبل الذي كنا نمضي إلى الشمال منه بدأ يظلم تدريجياً وتشتعل الأضواء على قممه. بعيداً جداً باتجاه تيبازة[1] سماء المغيب الحمراء أما نحن فكانت النجوم تلمع فوق رؤوسنا. ألقى العرب الذين مررنا بهم التحية علينا، موقفين العربة بحجج مختلفة ليتأكدوا مما يرونه. وعلى امتداد السهل تبدّدت كتل الغيوم كالدخان.

لم نتبادل الكثير من الكلام، كان السيد بلعباس يقود العربة مطقطقاً بلسانه للحصان. شاهدت الليل ينبثق من مملكته، فالقمر لن يشرق إلا في

(1) تيبازة مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في تيبازة وتبعد عن مدينة الجزائر بـ 75 كم غرباً.

وقت متأخر جداً والطريق التي تركت فيها العجلات الحديد للعربات أثارها، تحولت تدريجياً إلى البياض. وفي الأسفل ظهرت بقعة سوداء تشير إلى روفيغو.

استنشقت الليل، وخيل لي أني شممت رائحة إبرة الراعي فسألت السيد بلعباس: «هل تشمّ؟»، فقد يكون بالنسبة لي سراباً. استنشق، نظر إليّ وهزّ برأسه، لا شيء. أو أنها رائحة العنب ممزوجة بالكينا وصوف الغنم التي عاد بها الرعاة للتو، وعبق دخان غابات غامض أو ربما رائحة التبغ في مقهى مغربي. حينئذ تذكرت البيانو.

باقترابي من روفيغو، أقترب من ماتيلد ومدرستي ومهنتي وحبي وتنقشع من حولي الظلمات وتصبح الجبال أكبر، حاجبةً نصف السماء، ويخيل لي أني لو مددت يسراي لأمكنني لمس قمتها التي أنعشها الليل. على يميني كنت أشعر بالدفء: إنه بلقاسم. لو رآني غوريو لخالفني الرأي. ثم ماذا؟ أهي أخوّة غوريو التي يمكنها أن تدفئني؟ أتذكر رقة الآنسة فروادير مع قطتها صوفي وأبتسم. لو كان لدي كلب حتى لو كان هجيناً لشعرت بالعزاء، فلماذا لا أذهب إلى الجزائر سوى للقاء أصدقائي الوحيدين من عائلة غريبه، ولماذا يزور الكولونيل كثيراً الطاحونتين على الرغم من أنها تغصّ بالمجانين؟ فإن تسامح إلى هذا الحد مع غرابة أطوار البارونة والأفكار المجنونة قليلاً لهؤلاء الرجال الليبراليين، وإن كانت لديه ميول للتسامح كثيراً مع العرب وإن شك في تجريم النقيب درايفوس، وإن زار قبر بكري في البلدية، أليس لأن لديه مثلي حاجة للشعور بالتواصل مع شيء ما مهم؟ فهو يخبئ تحت مظهره البسيط شخصاً أكثر صرامةً مني.

عندما أكتب فلكي أغوص على أعماقي، أكثر مما من رغبتي في وصف

زيارتي إلى منزل السيد بلعباس. إني أبالغ. ثمة ميل طبيعي مؤسف، كما يقول غوريو، يدفعني إلى التحدي والسير عكس السير. لا أتحمل أي مسؤولية. أحب آل فيرتو وأعبر عن ذلك وأدافع عنهم لو لزم ذلك ولكني لا أشاركهم أفكارهم عن العرب. ففي البداية عندما وصل الأب فيرتو حليق الرأس شأن كل مبعدي ثورة 48، فقد وجد نفسه بالطبع قريباً جداً منهم. تغير دون أن يعي ذلك، فهو يعترف بأن المجتمع جعل منه إقطاعياً. جالساً على مقعد عربة كثيبة، عائداً إلى منزلي في الليل بمحاذاة الجبل. في أقصى الأفق، ولجهة الغرب ضوء أحمر صغير بالكاد يُرى، شيء ما يشع، وخلفنا وفوق رؤوسنا يتمدد الحزن تخترقه النجوم.

أشار بلقاسم إلى المشهد أمامنا: «إنه جميل مِسْيو».

فهو لا يقول مْسْيو كما طلبتي الشياطين في روفيغو. ربما لأنه من القبائل يطبق قواعد اللفظ جيداً مع نوع من التكلف الذي أحبه. فطلبتي يقاومون لمعارضتي فحسب، ويتظاهرون بالتحدث وكأنهم في بيوتهم أو بلكنة الفرنكاوي الفظة كما يسمونها ليظهروا لي أنني أجبرهم ولكنهم لا يطيعون. تخليت عن فكرتي عن التدريس بوصفه استغلال كل فرصة للتثقيف.

«أنتم تعرفون بأنها ليست الشمس التي هبطت ولكن الأرض دارت حول نفسها، وأننا الآن موجودون في الظلام وسنخرج منه بعد نصف دورة لكوكبنا وحينئذ يكون الصباح ونقول: لقد أشرقت الشمس. ولكن في الواقع نحن من نظهر من جديد إلى الضوء. أجل، هذا جميل. ولكن ليس بقدر جمال غابات فرنسا في الخريف».

ألأنني ولدت في هذا الفصل يفجر فيّ الخريف هذا الحنين؟ فمن كل

ما تركته هناك، فإن غابة أكتوبر هي أكثر ما اشتقت إليه. وهنا مهما قلت فللربيع سحره، إنه أقل رقة من عندنا ولكنه موجود، قوته تؤثر حتى في أقل الناس عاطفة. ومهما كان المطر خفيفاً، يكون الزرع غزيراً لحد أننا نشعر بالدوار. فخلال أيام تتغطى كروم العنب بالبراعم والوريقات اليانعة وبأسراب الطيور الآتية من الشمال مروراً بالجبال، وتطغى رائحة إبرة الراعي على كل ما عداها، ويقال أيضاً إنه عندما يجمع الراعي قطعانه على صوت مزماره فإنه يصطحبها في رحلة إلى الجنة نشتهي أن نشاركها فيها. في المقابل، ليس للربيع سوى إشارات صغيرة: خمول ما في الجو ولون أكثر قتامة لكروم العنب، جبال أتعبها الهواء الذي جففها وانقضاض الماعز عليها. كل شيء يصبح يابساً في السهل حيث غبار القش المجزوز والذي تعاود الأغنام جزه مرة أخرى، تستنشقه زوابع وأعمدة ملتوية تلتف حول السيف الخفي للحرارة. وتنتظر المحاريث العواصف قبل أن تبدأ بالفلاحة، وفي الأسواق يباع المسكات[1] الدبق والعنب بحبوبه الكبيرة الزهرية، ويبدأ شجر الجميز بالتجفف من الحرارة وأوراق التين بالتجعد ويسقط الزيتون، ويصبح صوت الناي في الدوار كصوت البشر.

من كل الآلام التي تركتها لي إجيني ذاك الشتاء، بقي لي منها تلك الموجة التي تلت كل كذلك: الحب، فقد اعتقدت أن الحب يتدثر بالأرجواني وباللهب مثل هذا الفصل، نتقدم وسط مشهد ملكي وسجادة ذهبية للاحتفال بعيد أجسادنا. والغابات حول جيبري، رغبت في أن أدخلها مع إجيني لأريها صورة قلبي. لكن الطرقات كانت جافة إذ لم تمطر منذ شهرين، كما أن الجبال لم تكن تعني لها الكثير فهي تفضل المدينة وتحب

(1) المسكات هو عنب طيب الشذا.

أن تقرفص قرب المدفأة. وليس فقط الغابات بل كل الأسيجة تحولت هذا العام إلى مجموعة من الكاتدرائيات والشمعدانات، هذه الزخارف وهذه المصابيح الجدارية وهذه الزينة الزهرية والأكاليل المضاءة كما في الاحتفالات الكبيرة.

«أفهم ما يقوله السيد ديماتون»، أجاب السيد بلعباس، «في بلاد القبائل أيضاً، في شهر نوفمبر تصفر أشجار الحور وتفقد وريقاتها وتصبح بلون مسحوق الزعفران. هذا هو الجبل، هذه هي بلاد القبائل».

لديهم شجر الدردار وغابات من بلوط الفلين الذي لا يفقد أوراقه المسننة، لن أستدعي على أية حال شجر البتولا وشجر الكرز البري أيضاً. والكروم... هنا يميل بعضها إلى التحول للأحمر. لا شيء مما لدينا.

أضاف السيد بلعباس أن لديه أشجار جوزٍ، إنها آخر شجرة يمكن التحدث عنها، فخلال بضعة أيام سيسودّ لونها وتفقد وريقاتها ويسقط جوزها.

صمت بلقاسم. تساءلت في سري ما إذا كان يعرف كم هو محظوظ. في مدارس مثلث سيدي موسى- لاربعاء- روفيغو، لم يصل حالياً عدد الطلبة العرب إلى العشرة. الآخرون يرعون القطعان ويلهون في التراب بقطع من الخشب أو صفائح المعلبات الفارغة أو أنهم قد ينشغلون بمساعدة أهلهم، الفتيات في الكنس أو غسيل الثياب والصبية في العمل في الأرض. والأكثر حظاً هم أولئك الذين يتعلمون إحدى المهن على يد حرفيّ. في غضون سنتين سأحضّره لشهادة الابتدائية وإن نجح بعد ثلاث سنوات في الامتحانات، يذهب إلى المدرسة الابتدائية العليا[1] ومنها إلى دار المعلمين،

(1) المدارس الابتدائية العليا هي شكل من التدريس عرفه النظام التعلمي بالفرنسية بين =

وإلا سيتولى مع أخوته مسؤولية الدكان بعد أبيه.

التفت نحوي. «أستاذ؟».

تفاجأت لعدم رؤية التماعة عينيه إذ يقولون إن عيون العرب تلمع في الليل كما عيون الحيوانات. فلولا ضجيج حوافر الحصان الذي كان يترنح أحياناً وصوت صرير الدواليب لكنا سمعنا بلا شك حفل بنات آوى المعتاد.

– نعم؟

– هل تعتقد أنني سأتمكن يوماً من الذهاب إلى فرنسا؟

– هذا ليس مستحيلاً. وأعتقد أنك لو اجتهدت يمكنك، من يدري، أن تتعلم في باريس. ولكن أنا مثلاً... لم أزر يوماً باريس. فباريس قاصرة، باستثناء المولودين فيها، على نخبة النخبة. يلزمك الكثير من المال للعيش فيها. لكن إن تمكنت من تحصيل منحة، فلمَ لا؟

عربي في جامعة الآداب أو العلوم أو الحقوق؟ قد يحصل ذلك لاحقاً. ففي العام 1901 لم يكن ممكناً تخيل ذلك سوى لأبناء العائلات الغنية والباش آغاوات.

– هل ترغب بزيارة فرنسا؟

– أجل أستاذ، من أجل غاباتها.

ولكي أشكره ربت على يده الصغيرة جداً على ركبتي. سحبها ثم وضعها على يدي. كانت صلبة وناعمة ورطبة كالحجر. لو رأى والده هذه الحميمية لصدم، لحسن الحظ كانت الدنيا مظلمة ولا أعرف لماذا أثر

= العامي 1833 و1941، وهو مرحلة من التعليم تأتي بعد الإبتدائية ولكنها ليست تكميلية، فهي شكل من اشكال الدروس الخصوصية لنيل شهادة الابتدائية.

بي ذلك.

هكذا عدت إلى روفيغو عبر الليل الشاسع الذي تحول في ناظريّ إلى غابات من النور، شمعدانات لعرس ملكي! فندق أوترمال كان ما يزال يلمع بضوء أبيض. على الآنسة فروادير أن تشرف على عمّار وهو يرتب الطاولات والكراسي في صالة المطعم. في الطابق الأول، سكون تام. فقد نام الجميع. انتظرت أن تكمل العربة دورتها في الساحة كي تعود عبر طريق لاربعاء، خيل لي أن الحصان يعرج قليلاً.

وجدت مفتاحي في المكان نفسه، أشعلت عود ثقاب. يبدو أن الفتاة الجزائرية جاءت ونظفت ورتبت كل شيء، ركوة القهوة والفناجين أعيدت إلى الخزانة في المطبخ. فمن مرور بكري، لم يبقَ على الطاولة سوى خمس أو ست فطائر ملفوفة في منديل كبير. فتحت الدرج حيث أضع مدوّناتي، إنها جميعاً هنا. ولكن لا رغبة لي هذا المساء بالكتابة فالعودةَ إلى منزلي كفيلة بإشعاري بالسعادة. أفرغت حقيبتي ووضعت أدوات نظافتي الشخصية في مكانها. بدأ الذباب بتشغيل محركاته، وبنات آوى بعويلهن الذي يجرح الأبدية.

تعجلت في خلع ثيابي، دفنت رأسي تحت اللحاف ونمت.

الجزء الثالث

درس التربية المدنية

الحقيقة هي أن القوميين ومناهضي السامية كانوا يكرهون العرب ويحتقرونهم ككرههم اليهود واحتقارهم لهم.

جان جوري[1]، من مقال في بيتيت روبليك[2]، أبريل 1901

المدوّنة الأولى

السؤال الأول الذي طرحه المدرّس صبيحة العودة إلى الدراسة على طلبة روفيغو. ما هو قنفذ البحر اليهودي؟

«من هو اليهودي، أسبوزيتو؟».

لقد فكرت جيداً بالسؤال الأول الذي أنوي طرحه وعلى من سأطرحه. أردت إخضاعهم من لحظة عودتهم وبضربة واحدة. وتخيلت جميع إجاباتهم المحتملة. إن ضعفت أو ترددت أو أبديت خوفاً لاحترقت. كانوا خمسة وعشرين، إنهم حشد كامل. وإن شاركوا جميعاً بالنقاش فستكون جلبة هائلة. لم أعلّم يوماً مثل هذا الصف. إنهم أبناء آبائهم الذين ليسوا بذيئي اللسان ولكن لهم ذاك الدم الشهير لأعراق السيد لويس

(1) Jean Jaures.

(2) Republique Petite صحيفة فرنسية.

برتران[1]، خليط، جمع، لمامة، كل ما نريده، مزيج، هجين من المغامرة والجرأة والعنف.

صبيحة العودة إلى المدرسة فاتتني رؤيتهم يدخلون. صباحاً، شربت قهوتي وأفطرت بيضتين مقليتين. ولابدّ من أن الآنسة روسي عادت ليلاً إذ كانت نوافذها مضاءة. ثم انتظرتهم دون أن أتزحزح معيداً النظام إلى الصف: الصفوف الأربعة من الطاولات المتلاصقة جيداً، اللوح الأسود منظف، الطباشير البيض والملونة في علبها المتتابعة، مرايا الخزانة ملمّعة، الخرائط في زلاقاتها، ما عدا خريطة الجزائر معلقة، طاولتي منظفة، دفتر الحضور، مسطرتي والعصا كل شيء في مكانه، المحابر ممتلئة، الخارطة التي تمثّل نصف الكرة الأرضية مع حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا على مستوى نظر الطلاب. من جانبي المدخل مماسح للأحذية ومماسح للأرجل حتى لا يدخل أحد منهم بقدمين متسختين: فالصف ليس زريبة خنازير، كما أنه ليس للتسلية. إنه معبد وإن لم نقل للمعرفة، تحاشياً للكلمات الكبيرة، فهو معبد للتربية المدنية.

هذا الصباح، بدوا مكهربين. يفرقعون كالشرر بين كويكبات رامكورف[2]. ينبشون الأرض بحوافرهم. ومثل قطط برية في قفص، يتقاتلون، بل ويكادون يصرخون بوجهي. كانوا متحرقين لالتهامي وسؤالي عن أخبار بكري. عندما ذهبت لأفتح لهم الباب، كادوا يوقعونني أرضاً، فكان عليّ التشبّث بقوة بالباب. ثم استقروا بضوضاء هائلة.

عدت بخطوات بطيئة وثابتة إلى جانب طاولتي دون أي كلمة، مرخياً

---

(1) Louis Bertrand

(2) Ruhmkorff هو حزام الكويكبات الرئيسي الذي اكتشف عام 1991.

ذراعي منتظراً أن يصمتوا.

«يمكنكم الجلوس».

فساد همس سريع، ضربت على الطاولة بالمسطرة وبدأت بتسجيل الحضور.

أغوستينو.

– حاضر، أستاذ.

بعد أتار، كان بلعباس. رأيته لكنني أردت أن أخضعه للنظام نفسه أي أن ينهض عند نداء اسمه.

«برنار، بيدو، بوسك، شارييه، غارسيا...».

لم يكن ينقص سوى ثلاثة.

وبعدها مباشرة، وحتى قبل أن أطلب منهم أن يفتحوا كتبهم، انقضضت عليهم:

«من هو اليهودي، يا إسبوزيتو؟».

إسبوزيتو ليس مشاغباً ولكني أعتقد بأنه سيصبح يوماً ما نذلاً كبيراً. إنه الزعيم، شخصية مهمة. ابن مسؤول مزرعة من أصل إيطالي أو إسباني لا أعرف. يبدو طويلاً بالنسبة لعمره، جميل وذكي بوجه مليء بالعزة. فلذلك يتوقع له النجاح.

تظاهر بالمفاجأة.

– أنا، أستاذ؟

– نعم، أنت إسبوزيتو، قف وأجب عن سؤالي: من هو اليهودي؟

اخترت غريمي ولداً يمثل البراءة والوقار والوعي والاستقامة. شعره أشقر قصير كضابط روماني، يمكن تخيله حاملاً العلم ونسر ذهبي فوق

رأسه. بدا أنه يحاول استجماع أفكاره، ثم وبصوتٍ واثقٍ وكأنه يسمّع نظرية:

«إنه قنفذ بحر لا شيء بداخله».

كادوا ينفجرون بالضحك. ولكن في النهاية بما أني كنت واقفاً فوق المنصة[1]، من حيث يمكنني أن أشرف عليهم، لم يبدوا أي حركة، كتموا ضحكاتهم، تظاهرت بالسذاجة:

«إسبوزيتو، ليس هذا ما أسألك عنه. أنا أعرف ما تسمونه بقنفذ البحر اليهودي: إنه قنفذ بحري فارغ، أجل قنفذ بحر يخدع الصيادين. نحن لا نتكلم عن قنافذ البحر، فقد انتهت الفرصة».

وأعدت بهدوء مقطعاً الكلمات:

«من هو اليهودي؟».

كان عليه أن يفكر خلال طرحي السؤال.

«إنسان قتل ابن الرب».

كانوا يتفرسون بي. فمن خلال أهاليهم هم لا يجهلون ما الذي حصل يوم أحد الفصح. فقد رأيت من الملعب، مناوراتهم قبل دخول الصف. اقتربوا من باب الرواق المغلق. انحنى إسبوزيتو ومرر إصبعاً من تحت الباب ليرى إن كان الدم ما زال عالقاً على البلاط.

- ومن يكون المسيح؟

- ابن الرب.

- ربما. ولكن المسيح كان في البداية يهودياً، يا إسبوزيتو. كما كان

(1) كان للصفوف في ذلك الوقت منصة خاصة بالمعلمين، أي إفريز عالٍ قليلاً عن مستوى الصف.

والداه يهوديين، وكذلك الرسل. عندما تذهب إلى الكنيسة وتصلي فأنت تصلي لليهود.

كان لكلامي وقع الصدمة عليهم وكادوا يختنقون.

– ألا تعرف ذلك؟ سأخبرك إذن. إن اليهود، يا إسبيزيتو، هم بشر كالآخرين. مثلك، ومثلي.

– ليس تماماً، أستاذ.

بأصبعه لمس أنفه ورسم دائرة:

«لديهم علاّقة هنا».

كنت لأمشي بينهم ولكني أعرف بأنهم سيكشرون في ظهري. أردت السيطرة عليهم مثل مروض حيوانات يهدّد بالسوط.

«انظر حولك إسبيزيتو، لا ليس هنا. بعد أن تخرج. وليس إلى العرب فحسب، بل إلى الفرنسيين أيضاً أو من يسمون بالفرنسيين، من هم أو من سيصبحون فرنسيين. ستلاحظ أن بينهم، وكما تقول، من لديهم أنوف على أشكال مخالب وأقواس وقناطر، أنوف معقوفة الرؤوس. فهل ما أقوله يبدو عصياً على فهمك؟ بانكروش تعني معقوف الرأس، وهو الاسم القديم للغراب. عليك أن تفهم لغتك».

«لو كنت يهودياً، يا إسبيزيتو، فكيف كنت ستتصرف؟».

بدا لهم السؤال فظاً جداً إلى درجة أنهم قهقهوا ضاحكين، فزجرتهم في الحال.

– أنا لست يهودياً، أستاذ.

– أعرف، إسبوزيتو. ولكن ليس من مانع أن تتخيل. إذن ماذا لو كنت يهودياً؟

- إن كنت يهودياً، أستاذ، فأنا خائن.

قال ذلك بنوعٍ من التحدي.

- لا تدعي السذاجة، إسبيزيتو واحترم الوقت، «إن كنت يهودياً سأكون...» سأكون، هي في الإعراب الحاضر المشروط.

ردد بلهجة لاثغة تستعمل لتقليد المتأنقين الفرنسيين.

- لو كنت يهودياً لكنت خائناً.

- لنحاول أن نفهم، إسبيزيتو أنت تريد أن تفهم أليس كذلك؟ عندما ولدت، لم تكن بعد أي شيء. أنت إسبيزيتو، اكتفيت بأن تفتح عينيك. وذهب والدك لتسجيل مولدك في البلدية. وماذا لو أسميت بدلاً من إسبيزيتو، شوكرون أو سبورتيش...

صرخ أحدهم: «أو بكري..». فشهق الجميع.

- أو بكري، أياً يكن، كنت لتسمى شوكرون أو سبورتيش أو بكري. كنت لتكون يهودياً. هل كنت لتحب أن نسخر منك أو نضربك على قفاك، ليس لأنك غبي أو عديم الأخلاق أو غير مستقيم. ولكن ببساطة لأن اسمك شوكرون أو سبورتيش أو...

- بكري!

جميعهم صرخوا بالاسم معاً. وكأنهم ألف شحرور أسود أطلقوا في إشارة واحدة النعيق نفسه، أو ألف من بنات آوى في عواءٍ واحد. لم أنفعل. وقفت عند طرف المنصة، أخرجت ساعتي من جيب صداري، ففككتها عن سلسلتها. ووضعتها بهدوء على الطاولة. فأنا أخرجها دائماً بطقوسية تمنحني الوقت للتفكير، وألمسها برقة. وهؤلاء الذين طلبت منهم الوقوف على اللوح كانوا ينظرون إلى ساعتي بحسد وغيرة.

«ولا واحد منكم، على حدّ علمي، لم يختر أمه أو أباه. نولد جميعاً وارثين أسماء عائلات معروفة أو غير معروفة، محترمة أو غير محترمة، ونصبح مسؤولين عما سنورثه بدورنا...».

اضطررت لقطع كلامي لكي أسال ابن الخبّاز الذي يشبه القرد والذي أخذ يتلوى في مقعده.

– هل لديك ما تقوله غاليارو؟

– اليهود كان يجب قطعهم أستاذ مثل جذوع التين.

أيضاً تعبير جنوني، كاد تلامذة المرحلة الابتدائية أن ينفجروا بالضحك الهستيري. تقدمت إلى طرف المنصة غاضباً.

«إذن؟ إن ولدت يهودياً أو عربياً غاليريو كنت لتكون مثلهم، خاضعاً للقوانين نفسها والتقاليد نفسها وللاضطهاد نفسه. عندما تجد ضفدعاً في الحقول ترجمه، ولكن الضفدع هو أيضاً حيوان مفيد ويأكل كمية هائلة من الحشرات المضرة. إنه أخرق أعترف لك، بشع؟ وهل تعتقد بأنك تبدو جميلاً بالنسبة له؟ فأنت تسحق بطريقة لا واعية الضفادع واليهود. أنت ساذج غاليِرو. ولكني لا ألومك، فأنا أحسبك ضحية التعصب والأحكام المسبقة. عندما تتكلم عن جذوع التين، لا أعرف ماذا تقصد بذلك؟».

نظروا جميعاً إلى بلقاسم الجالس متصلباً على المقعد بوجه وقور كصخرةٍ في وجه العاصفة.

فان كنت تقصد الكلام عن الرجال الذين أفكر بهم والذين عندما نسألهم لماذا تحبون فرنسا يجيبون: «لأنها أمنا» فأجيبهم مستنكراً: «ولكن أي زوجة أبٍ هذه، وأسفاه!».

– إنهم متوحشون، أستاذ.

هززت رأسي مبتسماً وكأنني أهنئه.

«أنت ذكي جداً إسبيزيتو».

ضربت مرة أخرى بالمسطرة على الطاولة وبلا حنق، كاستراحة صغيرة.

«أخرجوا دفاتركم، ستتعلمون جميعكم نص الإملاء نفسه».

تركت لهم الوقت لإخراج حاجياتهم وشحذ ريشهم، وسائراً المقاعد ملتفتاً إليهم بشكل مفاجئ لمراقبتهم.

«اكتبوا. إعلان حقوق الإنسان والمواطن... الذي صوت عليه مجلس النواب في العام 1789».

رددت ببطء مقطعاً الحروف.

«هل انتهيتم؟ البند الأول. نقطة. البشر يولدون ويعيشون... أحراراً ومتساوين في الحقوق. والناس لا يتفاوتون سوى بقدر خدمتهم للمجتمع. نقطة على السطر. البند الثاني. نقطة. الهدف من كل تجمع سياسي... هو الحفاظ على حقوق البشر الطبيعية... وغير القابلة للتحول مع الزمن. نقطة. هذه الحقوق هي الحرية، فاصل، الملكية، فاصل، الأمن ومقاومة الظلم. نقطة».

من وقت لآخر كان هناك من يرفع رأسه. أردد. فيبدأ صرير الريش. غاليريو يمد لسانه وهو يكتب وإسبيزيتو يبدو وكأنه يعاني مع ورقته. توقفت عن القراءة فاسحاً له الوقت لتغيير ريشته، إذ وجب إعادة بعض الاحترام له.

«البند الرابع. نقطة. الحرية تعني كل ما لا يسبب الأذية للآخرين. نقطة».

أعفيتهم من البندين الخامس والسادس وانتقلت إلى السابع.

«لا يمكن اتهام أحد، فاصلة، أو توقيفه، فاصلة، أو سجنه، فاصلة، إلا وفق الحالات المحددة بالقانون. نقطة. من يغش، فاصلة، يقتل، فاصلة، يقوم أو يسمح بسلوك تعسفي، فاصلة، تجب معاقبته. نقطة».

توقفت هنا. فهذا يكفي للمرة الأولى. ثم أعدت القراءة من البداية. شعرت بالقوة وبصفاء الذهن. كنت في قلب قلعتي متحكماً بكل أسلحتي مسيطراً على كل جماعتي. أولئك السفلة، أدركت حينئذ أني أحبهم.

فكرت بكل ذلك وأنا أعيد قراءة النص بصوتٍ عال. فالكلمات التي يكتبونها قد تتفاعل ربما في دواخلهم.

«الرجال يولدون ويعيشون أحراراً في الحقوق، ماذا يعني ذلك إسبيزيتو؟».

ظن أنه انتهى من الأسئلة وفوجئ بأنه ما زال قيد الإستجواب. لقد جعلته نجماً ومتحدثاً باسم الجميع. كانت مبارزةً بيننا. أسأت قليلاً استغلال سلطتي كأستاذ، فهي الفرصة التي لن تتكرر: على واحد منا أن يربح في هذه المباراة.

«لا أعرف، أستاذ...».

ثم وبصوت متردد:

– هذا يعني أن الفرنسيين أحرار ومتساوون.

– هناك صفتان: أحرار، بداية ثم متساوون في الحقوق. في العادة، كان من المفترض أن يضع المشرّع فاصلة بعد كلمة أحرار. يمكننا أن نكون متساوين في القامة والوزن والذكاء وحتى الواجبات. ولكن ينقصنا خاصة التساوي في الحقوق. انتبهوا لو سمحتم إلى

أن الجمعية العامة في العام 1789 لم تقرر أن الناس متساوون في الواجبات. فكلما علت مراتبنا كبرت واجباتنا. ففي هذه العقيدة الإيمانية لا يقصدون الفرنسيين فحسب، إسبوزيتو، ولكن – قلتها وأنا أقطع الكلام بقوة وبحدة – كل الناس، هل سمعت؟ فإعلان حقوق الإنسان والمواطن في كل العالم ترك أثراً كبيراً. أحرار ومتساوون في الحقوق، أجل كل الناس! البيض والسود. اليهود والعرب جميعهم يولدون ويعيشون أحراراً متساوين في الحقوق، أفهمت إسبيزيتو؟

– حالياً ليس هناك يهود في فرنسا، أستاذ.

– هناك القليل من اليهود إسبيزيتو، الذين أمدوا جيش الثورة بالقمح والأسلحة. وهل تعرف كيف يسمى أحدهم؟

تركتهم للحظة يتشوقون ثم أعلنت لهم عن اسم بكري.

– يهوديك أنت؟

– لا ليس يهوديّ أنا، كما تقولها بكل لياقة. فاليهود الذين مثّلوا داي الجزائر في صفقات القمح يعودون لعائلة معروفة جداً في الطبقة الأرستقراطية اليهودية: كوهين – بكري. آل كوهين لم أتعرف إليهم إلا من فترة قصيرة، يتحدرون مباشرة من هارون[1]، الأخ الأكبر لموسى والكاهن الأكبر لدى اليهود. لديهم واجبات وحقوق خاصة. تقدم لهم أول الفواكهة وأول القطاف، يمنعون من دخول المقابر لأنها الأماكن غير الطاهرة، لديهم هبة الشفاء كما فعلوا مع

(1) هارون بن عمران هو نبي يؤمن به أتباع العقائد اليهودية والمسيحية والإسلامية. عاش مع أخيه النبي موسى في مصر في عصر الفراعنة حسب العهد القديم والقرآن وفي العهد القديم هو ابن عمران والأخ الأكبر لموسى ومريم وله أربعة أبناء.

ملوك فرنسا عندما أصيبوا بالغُدب وهو مرض سلٍ يصيب الغدد في الرقبة. وهم لا يتزوجون إلا من بعضهم بعض. الرجل الكوهني لا يتزوج إلا بكوهنية. ومع الوقت حصلت زيجات محرمة، آل كوهين مع آل بكري.

بدا بلقاسم قلقاً. لابد من أنه كان يتساءل إلام أريد أن أصل؟ أنا نفسي لم أكن أعرف. ردة الفعل غير المتوقعة من إسبيزيتو دفعتني إلى التكلم عن احتلال الجزائر الذي لم يكن ملحوظاً في البرنامج أو أنه لحظ بشكل طفيفٍ جداً... مضيت أقول:

«يهوديّ أنا اسمه تحديداً بكري، مردوخاي بكري».

أضحكهم اسم مردوخاي.

– بكري الآخر خدع داي الجزائر إذن؟

– لماذا تقول ذلك إسبيزيتو؟

– لأنه هكذا أستاذ. فاليهود سرقوا العرب.

أعشق منطق المحاججة لدى إسبيزيتو. فقد وجد الخيط الجامع: فإن كان اليهودي قدم الحنطة الجزائرية لجيش الثورة لا يمكنهم إلا أن يكونوا بذلك قد خدعوا الداي، إنه يتمتع بحس المنطق، ويعتمد في منطقه هذا على ما يسمعه في محيطه. هذا التسلسل في الكلام، أدى بي إلى الرد.

«إسبيزيتو، رأسك محشو بمعلومات عامة وأفكار سخيفة ومبتذلة. بهذا الخصوص أنت مخطئ. لا أعرف إن كان اليهودي كوهين بكري سرق العرب. يقال إن الفرنسيين هم من سرقوه هو».

وكأن صاعقة نزلت عليهم، استبدّ بهم الحنق.

– هذا غير معقول أستاذ.

– أنا أخبركم بما يقال. فلم يدفع الفرنسيون أبداً لكوهين بكري. لفرنسا أعذارها: في ذلك الوقت بدّلت الكثير من القوانين: حكومة تنفيذية، حكومة القناصل، ثم بونابرت كان مشغولاً بأمور أخرى ثم الإمبراطورية. هل تتذكرون ما جرى بين 1804 و1830. لم يحسن كوهين بكري شرح ظروف الأزمة والوزير تالايران لم يكن مثالاً للنزاهة ولا قناصلة فرنسا. فكوهين بكري الذي لم نعد له ديونه لم يستطع أن يعيدها إلى داي الجزائر الذي طالب قنصلنا بمؤنه. ارتفعت لهجة الكلام وحادثة عرضية تحولت إلى قضية كبرى. لماذا؟ إنها مقتضيات المصلحة. لأن العرب أرادوا أن يجازوا اليهود والروم أرادوا مجازاة العرب، لأن الدبلوماسية استنفدت طرقها، والعسكر لا يفكر سوى بالحرب والحكومات خضعت للمصالح السياسية، ألم تكن الحجة المناسبة؟

تقدمت باتجاه الخريطة المعلقة على الحائط إلى يسار اللوح الأسود، وخبطت بالمسطرة عليها.

«ها هي. هناك جنوب البحر المتوسط بلد اسمه الجزائر حيث تصيب الشمس العقول بخمول استثنائي، عقولكم. هنا يعيشون من رقة الهواء وعذوبة الطقس أكثر مما يعيشون من العمل والمصانع. هنا للاستمتاع بالسماء، يكفي بعض البيض والتين والحبوب. ويضيف الدين ما ينقص، أو أنه يفرض على الناس الخضوع له. فيتغذون خاصة من الأحاديث النبوية ونصوص القرآن، يقتلون بسبب إهانة، والموتى المدفونون بالقرب من المنازل لا يخرجون من لعبة الأحياء: فنحن في طور تغيير كل ذلك ولكن البحارة الذين وطأوا هذه الشواطئ منذ القرن السادس عشر

عادوا بنوع من الحنين، فالجزائر لم تكن تبعد سوى ثلاثة أيام عن مرسيليا إن كانت الرياح مؤاتية كما أن اختراع البواخر قلص المدة اللازمة إلى النصف. أتعتقدون أن إنكلترا لم تفكر باحتلال الجزائر؟ لكن فرنسا سبقتها بسبب حادثة المروحة. يؤكدون أننا لم ندفع شيئاً من ديوننا لداي الجزائر وأن رصيدهم، الذي أقره مجلس النواب، ما زال مجمداً في مكان ما. أنا أروي لكم ما يقال لأردّ على أسبيزيتو».

عدت إلى جانب طاولتي تاركاً الدهشة مرسومة على وجوههم.

المدوّنة الثانية

العرب أخوة واليهود مواطنون فرنسيون.

«أين كنا؟»، استأنفت الكلام، «المبدأ الذي يجعل كل البشر من كل الأعراق متساوين في الحقوق. هذا ما أعلنته الثورة الفرنسية. المتوحشون، إسبيزيتو، هم الذين ينفون ذلك. فالإمبراطور نابوليون الثالث سمى العرب «أخوتنا». والجمهورية قررت إعطاء الجنسية بصورة جماعية لليهود. فمن يفكرون عكس ذلك ليسوا جمهوريين».

بدت لي هذه الصيغة أرثوذوكسية.

– لماذا إذن نغني، أستاذ؟

– ماذا نغني، إسبيزيتو؟

كيف ادعيت البراءة بطرح هذا السؤال؟ أطلق العنان لصوته مغنياً البيتين الشهيرين من نشيد مناهضة اليهود اللذين رددهما الجمع عند جادة الجزائر:

كم هو مقززٍ
اليهودي بنظارته...

لم أزجرهم للتوقف عن إكمال الأغنية. فقد فتحوا جميعهم أفواههم متهيئين لمواكبة زميلهم.

– أعرف أي سخافة تردد، إسبزيتو. أتعرف لماذا؟ لأن اليهود أذكياء. فلكي نبرر نجاحهم نتهمهم باللانزاهة. فإن أردنا فرضاً أن ندينهم بشيء فهو جبنهم.

– وصاحبك بكري؟

في الواقع بكري انتحر، فكل رجل ينتحر هو جبان.

ومن دون أن أفكر أجبت:

«السيد بكري صديق».

قبل أن يموت ما كانت لتخطر في بالي كلمة كهذه. رأيت في عيني إسبيزيتو صدمة لا حدود لها.

«ماذا أستاذ، صديق؟»).

تساءلت إن كان يسخر مني أو أنه لا يتخيل الأمر، ففي مخيلته المفسودة أي خيانةً كهذه. صديق، كلمة غير موجودة عندما نتكلم عن اليهود. كنت لأقول في أسوأ الحالات: «صديق الكولونيل غرييه»، وربما كان ذلك يجعلهم يرتابون.

«صديق يا إسبيزستو، هو شخص محبوب، نتعلق به لصفاته أو لمودّته. يمكنك أن تعيش مع زملاء وأصحاب دون أن يصبحوا أصدقاء، هذا لا يمكن فرضه. الصديق هو شخص نتقاسم معه الخبز والأفكار ونكشف له أسرارنا ويكشف لنا أسراره، يساعدنا ونساعده. الصداقة هي تبادل الأفكار والمشاعر. شيء من ذاك الذي تسمعونه في الكنيسة. عندما يحزن صديقك، فعليك أن تؤاسيه، إن جاع عليك أن تقدم له الطعام وإن لم يكن لديه منزل يجب أن تفتح له منزلك. ولإثبات ذلك لك، فإن صديقك سيرد لك الجميل نفسه. يمكنك أن تجعل أياً كان صديقك، أحياناً قد يكون كلباً أو عصفوراً. سيلفيو بيليكو في سجنه اتخذ من العنكبوت صديقاً. الصديق هو أثمن من في الدنيا. ندافع عنه. السيد بكري كان صديقي. لا تسألوني لماذا؟ من أجل لا شيء. لأنه كان شخصاً نزيهاً ومستقيماً، وقد

هددوه بالموت في البلدية وقد حميته».

أي رواية فبركت الآن! وهل أعترف لهم أنني فكرت في طرده ولم أحبه أبداً عندما وصل، وأنني تلكأت في تأدية واجبات الضيافة، وبأني أول من وصفه بالجبان، وبأني فكرت في الإفادة من تجربته لكي أتخلص من مصاعبي مع بائع البيانو ولكي لا أدفع المزيد من المصروف لإجيني؟ ولكن هل يمكن السيطرة على ما نقوله؟ كلمات تفلت منا أحياناً كزلة لسان أو كأن غريباً في داخلنا هو من تلفظ بها، تكون مختبئة تحت الجلد وتعبر عن نفسها عندما لا نتوقع ذلك.

«ثم»، مضيت أقول، «لماذا تعتبرونه جباناً؟ السيد بكري لم يقتل نفسه. نحن من قتلناه. أنا ربما لأني لم أقل ما كان يمكن أن يحميه والآخرون من خلال إهانته. فنحن لا نقتل فقط بالسلاح أو الخناجر. الغباء أيضاً يقتل».

نظرت إلى ساعتي واكتشفت أننا تجاوزنا وقت الاستراحة. جمعت الدفاتر، ثم خبطت بالمسطرة على يدي كي ينتظم التلامذة في طابور، ومع وصولهم إلى الباب باتوا أحراراً وركضوا زاعقين. ونادوا الفتيات اللواتي كن يلعبن تحت فناء الآنسة روسّي.

أمام السياج، كان هناك شرطيان ينتظران. دخلا إلى الباحة وألقيا عليّ التحية. عرفت منهما ذاك الذي جاء من أجل التحقيق، أحدهما وهو المسؤول ذات اللحية مثلي والآخر له شاربان كستنائيان غليظان. لم يكونا ثرثارين على الإطلاق، بل كانا متحفظين أو بالأحرى بدوا تعيسين، يقومان بوظيفتهما كأمر ضروري، مهمات تنفيذية لا أكثر.

«تريدان مقابلته؟».

أدخلتهما إلى الصف، ودفعت بحركة مبالغة الأولاد المحتشدين حولهما. «اذهبوا العبوا، واتركونا بهدوء». وبسرعة سيطرت رائحتهما على كل شيء، رائحة الجياد والجلد والتبغ، وعندما رفعا قبعتيهما، عبقت رائحة العرق والكولونيا الرخيصة. المسؤول شبه أصلع، الآخر يبدو أنه يهتم بشعره ويفرقه جانبياً.

«بمَ يمكنني أن أخدمكما أيها الأستاذان؟».

اتكأت على منصتي. بدوا مزعوجين، رمى المسؤول بجعبته إلى خلف ظهره وتنحنح.

«السيد ديماتون، كان لدى بكري مالاً عندما انطلق من منزله. هذا المال اختفى والعائلة تطالب به».

أول فكرة خطرت لي أنهما ليسوا مخطئين عندما يقولون إن لدى اليهود كل شيء يتحول إلى مسألة مالية. فعائلة بكري لم تسأل كيف مات مردوخاي، بل تقيم صفقة مع موته.

شردت وبدا عليّ الاشمئزاز. المال هو آخر ما كان بامكاني التفكير به في هذه القضية.

المشكلة هو أنه مبلغ كبير.

– كم؟

– أكثر من ثلاثة آلاف فرنك.

بالنسبة لي هو مجموع راتب عامين. أعتقد أن وجهي شحب في تلك اللحظة ودمي جف في ومضة عين وشعرت أنني أترنح. لن يتهمونني على أية حال بسرقة ثلاثة آلاف فرنك.

تابع المسؤول.

- فتحنا النعش، تخيل وفتشنا الجثة ولم نجد شيئاً.

- إن فهمت جيداً فإن...

أخذت ساعتي عن الطاولة وعلقتها بسلسلتها ووضعتها في جيبي. شعرت بالإهانة وأنني أرتجف ورأيت ما يمكن أن يحصل لي، التخيلات والدعابات والشكوك والطريقة التي سيشرّحون فيها إخلاصي لبكري. مهلاً...

«نحن لا نتهم أحداً سيد ديماتون. فقدط نسجل التصريحات ونحقق بكل ما يقوله الناس...»

صمت لبعض الوقت ومن المفترض أنه كان يدقق بي ثم تابع:

«هذا المبلغ، ربما كان بكري يحمله معه، وربما لا. في النهاية ربما يكون قد تركه في مكانٍ آخر دون أن يقول أو أنه خبأه عندما علا الصراخ. ألم يحدثك عن هذا المال؟».

استعدت هدوئي ونظرت إليهما بقسوة.

«لا».

ألصق الأولاد وجوههم بالزجاج، ذهبت إلى الباب لطردهم فهربوا وعدت.

كيف يمكن مواجهتهما؟ بأيّ حق يمكن الثورة عليهما؟ فهما يقومان بواجبهما كشرطيين وأنا مهنتي مدرّس. امتزجت رائحتهما شيئاً فشيئاً برائحة الطلبة ولكني ما زلت أميّزها، وبسبب إقفال النوافذ شعرت بالغثيان.

«أنتما معتادان على ذلك أكثر مني، هيا ابحثا في كل ما في الصف والطاولات والدواليب والخزانة ومكتبي، لا أعرف تحت المنصة. على

أية حال وعلى حد علمي فإن بكري لم يدخل إلى هنا. والدليل هو أنه قتل نفسه في الرواق. ولكن كان بإمكانه فالمفتاح بقي في الباب. اذهبا أولاً إلى منزلي سأرافقكما ثم تأتيان إلى الصف عندما يذهب الطلبة».

دفعت الباب على وسعه. إلى اليمين، مخزن تضع فيه الجزائرية المكنسة والدلو والممسحة وبضعة خرق. للجهة اليسرى، الباب الزجاجي الذي يفتح على المطبخ والذي يضيء الرواق. هنا انتحر السيد بكري فوق البلاط البني الغامق الذي نظف بالكامل.

سبقتهما وفتحت مصاريع نوافذ المطبخ فامتلأ المكان بالضوء وأظهرت لهما سرير بكري.

«هنا كان ينام. يوم الأحد الماضي عرضت لكما كل شيء».

على الطاولة زبدية وطبق إفطاري وركوة القهوة والقليل من الخبز.

«ستعيدان تفتيش كل شيء، أنا لا أسمح لكما فقط بذلك، بل أصرّ عليه، فتشا حتى أغراضي الشخصية».

فتحت لهما خزانتي واصطحبتهما إلى غرفتي وأصررت:

«كل شيء في مكتبي وأوراقي أيضاً. سيفاجئني أن يخبئ بكري هنا مالاً ولكن لا أحد يعرف».

وإن وجدا بصدفة سيئة الثلاثة آلاف فرنك، فمن سيصدق أنني لست من خبأها؟ وإن لم يجداها ألن يتهماني بإخفائها في مكانٍ آخر؟ لماذا ليس في الجزائر مثلاً كوني ذهبت إليها بعد موت بكري؟

في الزجاج المؤطر بالخيزران فوق منضدة الزينة رأيت وجهي. للحظة اعتقدت أنه شخص آخر ذاك الذي يقول أو يكتب ما يفوتني أو أنه أبي الذي قيل لي دائماً إنني أشبهه. ولكن لا، هذا أنا، أو أن الضوء أبداني بمثل

هذا الشحوب.

عدت إلى الصف بعد إقفال كل الأبواب خلفي. عادة وبعد انتهاء وقت الإستراحة أقرع الجرس. هذه المرة صفقت بيدي فجاؤوا إليّ بلا مبالاة. لقد فقدت هيبتي. وبطريقة آلية استمررت في خبط يدي كي أجعلهم يجلسون، بدوا متلهفين لمعرفة ماذا جرى. شعرت بالضباب يغشى ناظري. التقطت كتاب الرياضيات.

«أستاذ، لماذا جاءت الشرطة؟».

إسبيزيتو يعتقد بأن كل شيء مسموح له.

«لقد انتهى درس التربية المدنية. سوف تحلون مسألة حسابية. ربة منزل أرسلت ابنتها إلى السوق مع 8,750 غرام من الزبدة لتبيع بفرنك ونصف الرطل الواحد وست دزينات بيض...».

ما أقرأه وأنا أكتب هذه الأرقام على اللوح الأسود يبدو لي بلا معنى. لقد تورطت بالحكم المسبق الوحيد الذي كنت أعارضه بحسم. يمكنهم أيضاً استغلالي وسيشيعون أنني قبضت ثمن كرمي تجاه اليهود. وهذا ما سيضحكهم، يهودي خدعه فرنسي محتال لدرجة أنه لا يمكن تحميله أي مسؤولية ولا تقديمه للعدالة...

«... لتبيعها بـ 0,175 فرنك لكل ثلاث بيضات وكل فروجين بـ 6,50. كم هو المبلغ الذي يجب أن تعود به الفتاة علماً أن...».

لقد تخيلت كل شيء إلا هذا.

– ... علماً أنها اشترت 5,75 متراً من القماش بـ 2,20 فرنكاً للمتر الواحد و1,20 متراً من بطانة الثوب بـ 0,75 فرنكاً للمتر الواحد...

سأعيد القراءة. بم تحلم، غاليارو؟

– أستاذ، انظر إلى القمر، إنه فوق الجبل في عز النهار.

– حسناً، كل شهر نعيد الأمر نفسه وتقولون إنها المرة الأولى التي تشاهدونه هكذا. غداً ومع فارق الوقت اليومي سيكون القمر أعلى وأقل سماكة وسينتهي بأن يصبح هلالاً عند الصباح، وبعدئذ ستبدأ مسيرة القمر الجديد بالعكس، من الجهة الأخرى من السماء».

لن أترك لهم مجالاً ليتنفسوا، سأباغتهم بسؤال ثان: صاحب مكتبة اشترى عدداً من الكتب بـ 1,25 فرنك للإصدار الواحد، وقد قدموا له كتاباً إضافياً مع كل دزينة وقد دفع التاجر 468 فرنكاً، وبإعادة بيع الكتب كسب 108 فرنكاً. بكم باع الكتاب الواحد؟ وفي الأثناء سأستعيد بعض الهدوء.

بدأت أسير بين الطاولات. من شأن هذه العمليات الحسابية والتي لم تكن معقدة أن تحضرهم لمرحلة الشهادة. حاول غارسيا أن ينقل عن زميله من فوق كتفه فربتّ رأسه بمسطرتي، من الجهة الأخرى كنت أسمع حركة وحديثاً. فالشرطيان ينقّلان الاثاث وماذا إن وجدا دليلاً ما؟ وإن فتشا مدوّناتي وصادراها فكيف يمكن أن يفهم القاضي ما سيقرأه؟

فأنا أساساً متهم. ماذا سيخترعون عن قصة غدائي مع السيد بلعباس؟ ألن يحققوا مع البقال؟ وإن صودف أن وجدوا لديه ثلاثة آلاف فرنك. كيف يمكن لبلعباس أن يؤكد لهم أن ذلك هو حصيلة عمله في التجارة؟ كلّ ثلاث بيضات بـ 0,175 وليتر الزيت بـ 1,40 فرنكاًوعشرين سنتيم كيلو السميد، كم يلزمه أن يبيع لكي يجمع مبلغاً كهذا! وفي روفيغو من سيكفل حسن أخلاقي؟ أرتور، الآنسة فروادير، إيمي باري كل من يعرفون أنني

مفلس. لا أرى مخرجاً وأشعر أنني أتخبط في الظلام. وإن تشوهت سمعتي بالنميمة فأي دعوة سأقيم؟ عندما اتهمه العرب بأنه قاتل، عين رئيس بلدية سيدي موسى محام من باريس عنه، فهو رئيس مجلس مستشارين قادم، وكل زملائه في متيجة سيحلفون لصالحه. أما أنا فيمكن للمستوطنة أن تمزقني إرباً. كنت أنظر إلى الدفاتر وأنا أمر بين الطاولات متحاشياً بلقاسم. وجد إسبيزيتو الأجوبة الصحيحة أما الباقون فكانوا شاردين وتساءلت كيف سيتدبرون أمورهم بنتائج متوسطة كهذه. تذكرت ذلك الاثنين 15 إبريل 1901 شعرت بنوع من الانتفاضة في داخلي، فأنا لست عربياً ولا يهودياً، وسأدافع عن نفسي.

صرفت الطلبة، ورأيتهم يركضون في الملعب، ويتفرقون وهم ينظرون إلى الفتيات. وتعجلت العودة إلى الشرطيين اللذين لم يكشفا شيئاً. اصطحبتهما إلى الصف وفتحت لهما الخزانة حيث مجموعات الأحجار المعدنية والميزان وأنابيب الاختبار وأفران التقطير والأملاح الكيميائية وفانوس العرض، مخزون الحبر والطبشور ومجموعة دفاتر الحضور وكل ما أحمل معي، منديلي ونقودي في صداريّ وساعتي ومحفظتي التي تحوي ورقة نقدية بخمسين فرنكاً، وضعتها جميعاً على الطاولة وأخرجت مباطن جيوبي.

نظرا إليّ بصمت وبشيء من الإرباك.

«والآن لو أردتما أن أخلع ملابسي فسأفعل ذلك أمامكما... وستتأكدان أن مال بكري ليس لدى المدرّس. لقد بحثتما جيداً في الخزائن كما آمل؟».

أضحيت وقحاً، ففي الحالة التي وصلت إليها لم يكن لدي ما أخسره

كما أنه لا يمكنني اللجوء لأحد، على أية حال ليس إلى الرب. فلو كان أبي مكاني لذهب ربما وركع في الكنيسة. فدار المعلمين قتلت في داخلي أي مشاعر دينية، سأرفس وليكن من كان تحت حوافري.

كان الشرطيان يعتمران القبعة العسكرية، قبعة عالية جداً بجديلة عريضة فضية تفصل بين جزء أعلى أزرق وسفلي أسود مع الرمانة في النصف. بدا المسؤول متأثراً فقد قرأت على وجهه نوعاً من الاحترام والصدمة.

«لا تحقد علينا سيد ديماتون».

ابتعد قليلاً عن زميله.

«ألقِ نظرة مبدئية هنا، لوكونت. فقط من أجل المبدأ. هل هذا جيد؟ حسناً، سنذهب اعذرنا».

رافقتهما حتى البوابة الحديدية التي أقفلتها خلفهما، وعندما ابتعدا باتجاه حصانيهما المربوطين في مكان واطئ قليلاً تحت شجرة جميز، حصل في تلك اللحظة ذاك الشيء.

المدوّنة الثالثة

حدث في روفيغو: وصول بيانو المدرّس. إنزاله من القطار، المرافقة حتى المدرسة وفتح الطرد المُرسل.

إن طلب من أهالي روفيغو أن يرووا أكثر الأحداث غرابة منذ عام فلن يقولوا اليهودي الذي انتحر في المدرسة ولا جولة رئيس الأساقفة بتاجه المذهب مصحوباً بالموكب وكل كهنة السهل في الشوارع، وإنما وصول بيانو المدرّس.

حسناً، يفترض بي أن أكون سعيداً، فهو هنا، وقد مسحته عدة مرات في اليوم بفوطة من الفانيلا، وكنت دائماً أجد غباراً إضافياً بيد أنني لم أتجرأ على الضغط على أية نوتة. عندما أرفع الغطاء لأتأمل المفاتيح العاجية مع سلسلة العلامات الرافعة والنغمات بمجموعات مزدوجة أو مثلثة مع الحافة من القماش الأحمر فوقها وأعيد إقفاله، يحدث صوت الانغلاق على علبة المفاتيح هارمونيا غامضة تردد في داخلي صوتاً جنائزياً وحزناً وتكشف لي صورة روحي: اللاجدوى والعدم.

أردته كنصر فحصلت عليه، أخفيته عن الأنظار. توقفت الجزائرية أمامه، وربما تساءلت ماذا أفعل به ومن أكون أنا. فهي تعرف أنه يأتي من فرنسا، تهز رأسها إعجاباً. ليست أداة للحرب ولا لإنتاج القمح أو النبيذ. ماذا إذن؟ في المرة الأولى رفعت الغطاء وضغطت على إحدى النوتات وأكملت بالعزف الافتراضي في الهواء فابتهجت.

عندما رأيت عربة نقل البضائع أمام بابي، تساءلت ماذا تحمل ثم وفي

خاطرة سريعة أدركت أنه وصل بقطار الصباح. مع حجم ووزن كهذين، كان للجميع ما يقوله عنه. من الطبيعي فقد فتشوا مباشرة عن اسم المرسل إليه. ما هو الشيء الذي يمكن لمدرّس أن يرسل بطلبه من بار- سور- أوب مع كل هذه الملصقات «قابل للكسر»؟ قطعة أثاثٍ ثمينة، آلة لصنع المثلجات، صنعة ما؟ أنزل من العربة. أي حدث! كم من الصرخات! فقد تجمع حشد هائل من الناس، خرجت الآنسة فروادير واقتربت صوفي بحذر وشمته وجثمت للحظات ثم ابتعدت بازدراء، تقدم الخباز حتى عتبة بابه قبل أن يعود إلى معجنه. وقبل أن يختفي القطار تاركاً هذا الشيء المجهول في الساحة، بالقرب من النافورة، رفعه العرب بحذر على الطنبر. نشرت الأم «بان» الخبر وحضر رجال الشرطة إلى المدرسة للتحقيق في حين اكتفى الناطور بالمراقبة بحذر من بعيد تاركاً لهم حق التقرير، لم نكن نعرف ما هي ولكنها شيء ما من طينة. «آكلو العلف» كما يقولون هنا بقوا واقفين وأنوفهم في معلف القش يتداولون انطباعاتهم.

أجل فقط، وفي هذا اليوم الوحيد وفي اللحظة الوحيدة التي لم يكن من الواجب أن يحصل ذلك. دهش رجلا الشرطة، وتردد المسؤول قليلاً، ثم ذهبا باتجاه جواديها وتركاني أتدبر أموري، متمهلين في الركوب وتسوية جعبهما ونفض الغبار عنهما. في البداية نزلا باتجاه أشجار الكينا ومصنع تقطير إبرة الراعي، ربما ليشتما رائحة جميلة غير روائحهما، ثم عادا من الجهة الأخرى لكي يشاهدا جيداً مسرح الحدث.

شعوري، وربما بسبب ما حدث، كان أنهم يحضرون لي نعشاً ضخماً، علبة موت، نكبة كبيرة. تظاهرت بعدم الاهتمام لا بل ابتسمت وقلت: «ما هذا؟». لم يكن بإمكاني تركه في الباحة فإن جرح الأولاد أنفسهم

وهم يتسلقونه فسأتحمل المسؤولية. وأضفت: «ستفتحون الطرد هنا...».
حملت من مخزون عدتي مطرقة ومقصاً. فتحوه من أحد الأطراف، فالإطار كان قاسياً ولحمايته وضعت طبقتان من الورق الاصطناعي الشديد السماكة بالإضافة إلى كيس من الكتان كان علينا تمزيقه، كسرنا الألواح وفككنا مسامير الدعامات والزوايا التي كانت تضبط الطرد. واخيراً عندما فتحناه، ظهر جسم أسود وذهبي بديع وغريب، وقد تعجلت لنقله إلى البيت بعيداً عن عيون المتطفلين. مثل ثروة. خرجت الآنسة فروادير للحظة إلى الساحة، اعتقدت أنها ستقترب مني وتتحدث إليّ إلا أنها اختفت. عليها أن تفكر ملياً في ما ستقوله لي.

أعطيت لكل من العرب الثلاثة الذين جاؤوا به قطعة نقد من خمسين سنتيماً ووقعت ورقة الاستلام فالكولونيل تكفل بكل التكاليف وما كان عليّ أن أدفع شيئاً. وضعوا ما تبقى من دعامات وألواح في العربة وذهبوا وتركوني وحدي. أغلقت الباب والمصاريع وجلست على مكتبي أنظر إليه مستعيداً أنفاسي، وانتظرت أن تهدأ ارتجاجات هذ الحجر الكبير الذي رمي في بركة القرية ويستعيد سطحها هدوءه والتماعه. وتناولت قطعة من الخبز بالنقانق.

ما فاجأني في البداية، أنه لم يكن هناك شمعدانات، أين خيل لي ذلك؟ فقد رأيت اثنتان من جهتي حامل النوتة الموسيقية، وعندما فتحت الغطاء ودرت حول البيانو محاولاً استكشافه على ضوء الشموع، لا ليست شمعدانات، بحثت جيداً وليس هناك أي أثر لشيء كهذا ولا حتى أي حفرٍ صغير ولا أي علامة. لا شيء. يبدو أني حلمت تماماً كما يحصل

لنا مع الناس. فنحن نراهم كما نتخيلهم ونلصق بهم شمعدانات ليست لهم. قلت لمارغريت: «أسود وذهبي بأكمله» ولكني لم أتمكن من وصفه بالتفاصيل. ما عدت أتذكر العامودين الصغيرين الأصفرين الجميلين والمزخرفين بالأصفر اللذين كانا يحيطان بعلبة المفاتيح، أسلاك حديدية عند كل الزوايا، المقبضين المتينين، ولون الأبنوس الأسود اللامع والأناقة الرومانسية لحروف العلامة التجارية فوق علبة المفاتيح. أجل، إنها آلة جميلة رقيقة بخطوط نقية، بالكاد تصل حتى خاصرتي. ربما يكفي أن نعزف عليها لنغير روفيغو. ولكنني لا أجيد العزف، وروبير أين سيتعلم ذلك؟ فسيدي بلعباس تردد صدى أبواق الجيش وطبوله.

عندما أتذكر الرعب الذي تملكني عندما حاولت إجيني العزف على البيانو خلال إحدى حصص التعليم، وماذا يمكن أن أقدمه اليوم كي أسمع امرأة تعزف عليه! كم هو مضحك! اعزفي على البيانو يا جميلتي، أحدثي الضوضاء التي تريدينها أو الألحان الرومانسية، ومن أجل أن تفعل ذلك يجب أن تكون زوجة قاضي لاربعاء. لو كانت ماتيلد تجيد العزف فماذا ستعزف؟ تعالي يا دجاجتي[1] ربما أو نشيد مناهضة اليهود، لمَ لا؟

منذ زمن بعيد ونحن غارقون في البؤس...

بعد بكري كان ليبدو هذا البيانو طريفاً وكان ليعيد اعتباري لدى أهل روفيغو. ولكنت قمعت انفعالات إسبوزيتو. ولبدأوا جميعهم يغنون ككورس واحد اللازمة في حين أضبط اللحن. مدرّس محترم، وكنت لأحصل على ترقية أو أعين مديراً مثل غوريو، لماذا كنت أعتقد في ذلك

(1) Viens poupoule هي أغنية فرنسية من التراث الفرنسي (1902) للمغني فليكس مايول.

الوقت أن إجيني غير قادرة على تعلم الموسيقى؟ ببساطة لأنه كان عليها أن تذهب إلى بار– سور– أوب للتعلم، وكان ذلك سيكلفني كثيراً. كانت ذكية إجيني. من يعلم. من يعلم؟ لو كنت أكثر صبراً وأكثر تسامحاً... الكلمة الهزلية لذلك الحيوان جونسون عندما رأى البيانو للمرة الأولى: «بداية العز...» أكان يقصد الهزء؟ ألم يقصد بها أين يمكن أن تقودني امرأة مثلها لو تركتها تفعل ذلك؟ ألم يشأ أن يلدغني أو يغيظني حتى يقطع عليّ هذه الفرصة؟ وأنا الذي وقعت في الفخ، ها أنا جالس على الطاولة أخربش مكدساً كراسةً فوق أخرى مجففاً الحبر بنشافة أحركها من جانب لآخر كقارب متأرجح، لأن لدي هذا الهاجس بأن أكون دائماً هذا الشخص النظيف والمرتب والمنظم. في دفاتري.

في الحياة، أمر آخر.

وفجأة قررت قبل البدء في الصف أن أذهب إلى أرتور وأخبره بكل التطورات. فتحت الباب وإذا به واضعاً جبهته على ركبتيه وذراعاه محشورتين بين ساقيه، إنه قاسم الجالس عند أول الدرج.

«ماذا تفعل هنا؟».

كنت متفاجئاً لدرجة أني كلمته بصيغة المفرد للمرة الأولى. رأيت على وجهه حزن كلب عذّب فشعرت بالشفقة عليه. فهمت أنه تخيل أنني أخفي شيئاً ما. في هذا الشيء العجيب الذي أدخلناه إلى البيت يكمن سر تصرفي وكل ما يؤسس بنظره لعظمة بلادنا: فكل مرة نتكلم عن فرنسا إن كان في المدرسة أو في التظاهرات العامة في الصحف أو في سريرة كل منا، نستعمل صيغ خطابية ونستحضر صوراً كبيرة، أسطورة ثورة

1789 فالمي[1]، شعب نهض بوجه الطغاة مواجهاً العالم بأكمله رافعاً عبر أوروبا مشعل الأخوة العالمية قالباً العروش داعياً كل البشر لمقاومة الظلم: نستحضر روسو والفلاسفة وفولتير ومجد راسين وكورناي وفيكتور هيغو. فقد وصل بي الأمر حتى أحكي عن بودلير كقديس كبير لديانة محرمة وعن رامبو، ذلك الشاعر البغيض، كأحد أكبر العباقرة على مرّ العصور. كل هذا لا يترك الكثير من الأثر في عقل إسبيزيتو أو غاليارو الذي بحجم عقل طائر الزقيقة ولكن هل يمكننا أن نتخيل ماذا يفعل ذلك في روح فتى من القبائل؟ فما يشعر به يتضارب مع ما ندرسه له. يحاول أن يصالح داخله بين كل هذه التناقضات.

اخترت لهجة عالية وإنما رقيقة لزجره:

«حسناً ما هذا العبوس؟ ألا تفكر بأنه قد يكون لديّ همومي فتأتي وتزيد عليها؟ أتريد أن تعرف ما هو هذا؟ إنه بيانو يا صديقي... إزعاج إضافي، ذكرى سيئة. اسمع...».

لاحظت أن ذلك خفف عنه: تحدثت إليه وألغيت المسافات، أعطيته بهذه الحميمية تلك الهبة التي حجبتها عن الآخرين، أفشيت له أسراري.

وذهبت أبعد من ذلك.

«ابق هنا إن أردت فأنا سأخرج. تأمله، المسه، فأنا عائد».

(1) Valmi معركة فالمي التي تقابلت فيها القوات الفرنسية بقيادة دموريبه مع قوات التحالف الأوروبي الساعي لاحتواء الثورة الفرنسية، وقد وقعت قرب قرية فالمي في 20 سبتمبر 1792 ونجحت خلالها القوات الفرنسية في صد المهاجمين من الجيشين البروسي والنمساوي مما أدى إلى انسحابهما. وتعتبر موقعة فالمي على صغرها من أهم المعارك في التاريخ، لأنها ولدت في فرنسا وجيشها كان ببساطة هو الثقة بالنفس وجعلتهما مصدر فزع لأوروبا لمدة طويلة ولأن صمود الجيش الفرنسي فيها حال دون سقوط باريس والقضاء على الثورة وأفكارها.

تركت بابي مفتوحاً حتى يمكن رؤية ما يفعل وكي لا أخبئه عن أحد وبالطبع ليس عن الآنسة روسي، وذلك كاحتفاظ الكاهن بولد من الكورس لديه. اكتفينا من بكري. هرولت لأحكي لأرتور عن كل شيء فسكب لي كأساً ملآنة ورفع معي نخبه.

كان حارقاً وأشعل في قلبي لهيباً كبيراً.

المدوّنة الرابعة

ألم يكن دورمون محقاً؟ العرب لم يخترعوا شيئاً والقبائل في دمهم الحقد.

عند غوريو بالغت في الكشف عن نفسي. بدا مبتهجاً يتابعني باهتمام أخفق في إخفائه. اعترفت له أنني تراجعت أمام بابه لكي أذهب إلى بلعباس. فقال لي: «أرأيت أين تودي نفسك عندما تهجر أهلك. لقد قطعت الأوصال مع جماعتك وماذا قدم لك الآخرون؟ المدائح والكلمات المنمقة؟ حسبت نفسك دون كيشوت؟ شخصية روائية دون كيشوت. أنت لا تحبني ها؟ لا تقنعني بالعكس، لست واهماً. فأنت تفضل مرافقة القبائل، إليك النتيجة...». كدت أقول له إنه يشبه جونسون ولكن ذلك كان سيؤدي بنا إلى مكان بعيد جداً ولكان أجابني بأنه كان يستحسن بي أن أتبع أفكار جونسون.

سمعني دون أن يقاطعني إلا لكي يطرح عليّ أسئلة محددة. وأتذكر استنتاجاته بوضوح تام:

«في حالتك أنت أمران مختلفان: بكري والصغير بلعباس. اليهود أتركهم لك بكل طيبة خاطر. في النهاية، إن فضلت أن تخضع لتأثيرهم وأن تنتصب كمصلح للغبن... درومون لدينا كمدرّسين ميل لاعتباره شريراً شاذاً. كلمته «فرنسا للفرنسيين» ليست غبية. أليس اليهود طفيليين أثرياء؟ أنت حر بألا تعتبر درايفوس خائناً. ولكن هل يمكنك أن تؤكد أن ليس بينهم خونة؟ درومون يعتبرهم جميعهم خونة. أنا لا أعرف بأنهم

قدموه للمحاكمة من أجل ذلك. وقصتك عن المال بخصوص بكري تزيد الطين بلة، إنها بالأحرى مضحكة».

لم يكن غوريو يدخن لا بل كان يشمئز من غليوني. في هذا اليوم، ولكي أحمل شيئاً في يدي اشتريت علبة سجائر باستوس بعشرة سنتيمات، فهو لا يحبّ رائحة التبغ ولذلك فتح كل النوافذ وكمنفضة وضع لي صحناً على الطاولة. بنظره أنا شخص يبحث عن المتع. لزيارته لبست طقمي الرمادي الخاص بأيام الآحاد وصدرتي الغامقة، حلقت ذقني وبدوت شاباً. استقبلني بثياب عادية بقميص بلا ربطة عنق. فعلى الرغم من أنه أشقر وبدأ بخسارة شعره، فإنه ما زال يحتفظ بشعر كثيف في ذقنه. كيف يمكن أن أحبه؟ إن لاحظت التسامح في عينيه وإن لم أشعر بتلك المرارة في حديثه والرغبة الجامحة للوصول إلى منصب أعلى...

«بالنسبة للصغير بلعباس، أنت أيضاً حر. ولكن فكر جيداً قبل أن تقحم نفسك بالمزيد. لقد احتفظت لك بقصاصة من لا ديبيش[1] التي أعادت نشر مقال من فيغارو[2]. اسمع هذا: «الرجال الذين يعرفون بشكل أفضل إمبراطوريتنا الإفريقية تخلوا عن استيعاب العرق العربي. رأوا من العسير أن ننقل عاداتنا إلى القبائل وفهموا أن جهد فرنسا يجب أن يتوجه لجعل هذا الشعب احتياطياً وأن نقبل بأنهم لا يشبهوننا، إن أردنا أن يخضعوا على نحو مفيد لنا». ومدّ لي الورقة.

«اقرأ بنفسك، لم أخترع ذلك ولتستنتج أنني لست الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة وهذا يبدو لي واضحاً: نخضعهم أو نخضع لهم. ستقول لي

(1) La Depeche صحيفة جزائرية تصدر باللغة الفرنسية.

(2) Figaro صحيفة فرنسية.

إنهم كانوا أقوياء، لا أنفي ذلك. وستقول لي إنه بعد مائة عام من موت النبي كان الخيالة العرب يتمشون على اللوار[1] ونهر السند[2]، على نهر دجلة ونهر النيل وإن الإمبراطورية العربية امتدت من المحيط الأطلسي حتى الهندي مع ثلاث عواصم تكفي كل منها لبناء مملكة: بغداد والقاهرة وقرطبة. وستقول لي أيضاً إن العالم أجمع ما عدا البرابرة بات يتكلم العربية الذي يعود إليهم فضل النظام العشري والنظرية العلمية للوقت وبناء القبب. وسيحكون لك إنهم نقلوا إلى الغرب أفضل العلوم والأفكار الوثنية والتي كانت تشكل إرثاً أدبياً كبيراً ساهم في بناء ثقافتنا وإن هارون الرشيد ابتكر حاشية العلماء والشعراء والفنانين وإنهم اكتشفوا قبل الداناركيين الخسوف القمري الثالث ووضعوا قائمة كاملة بالنجوم وأسسوا لعلوم في الفيزياء والكيمياء واخترعوا في الوقت نفسه مع الصينيين الورق ورصاص المدافع وزرعوا قبلنا الأرز وقصب السكر والهليون والكرز، وكل الأشجار المثمرة في الواحات وكانوا يعرفون طبّ التخدير».

وقف وبدأ يتمشى متوقفاً كل مرة أمام النافذة طارداً عن نفسه الذباب. كان المكان مليئاً بذبل الغنم وروث سوق يوم أمس.

«لا تعتبرني عدواً معلناً للعرب. فأنا أحكم عليهم، هذا واجبي. فقد بحثت قليلاً في هذا الأمر وأعتقد أن ليس هناك حضارة عربية والتي نعيد إليها، خطأ، تأثيراً لم يمارسوه يوماً، وأن عبقريتهم قامت على ترجمة أعمال يونانية في مدارس دمشق والإسكندرية، ومحاكاتها وتبنيها وأنهم ابهروا شارلمان بساعة حائط بديعة صنعها حرفيون يهود، كما أنهم بنوا

---

(1) Loire هي المقاطعات الغربية من فرنسا.

(2) Indus نهر السند هو أطول وأهم نهر في باكستان وشبه القارة الهندية.

هنا الجوامع والقصور من خلال مستعبدين إيطاليين وأن الشعوب التي احتلوها تطورت رغماً عنهم وليس بسببهم، وبأنهم لا يملكون أي مخيلة وربما أنك اكتشفت ذلك لدى صغيرك بلقاسم. فالعربي واقعي يرى ويسجل ولا يمكنه تخيل ما لا يراه أمامه. روايتهم الشهيرة ألف ليلة وليلة ليست سوى انتحال للأساطير الفارسية والإسلام هو مجموعة مختارات من التقاليد اليونانية اللاتينية والتوراتية والمسيحية المجردة من الرمزية والفلسفة لتغدو عقيدة باردة جامدة مثل النظرية: الله، النبي، الرجال، وهذا ما يفسر انحطاطهم الفكري وعجزهم عن الانفكاك عن البربرية. هذه هي الحقيقة يا عزيزي».

لم يكن لدي ما أجيبه به، فقد أثر بي. وقد بدا لي هذا عكس ما سمعته في الطاحونتين. بكري نفسه حكى لي عن العرب باحترام.

«التقيت أستاذاً في الآداب في الجزائر لا يفكر مثلك».

تنهد بشيء من السخرية.

«هل هم بالنسبة له نوابغ في الذكاء؟ لماذا إذن لم يخلفوا وراءهم سوى الأطلال؟ لماذا بدأو بالتدمير؟ قلت لي إن ابنك بلعباس هذا من القبائل، للقبائل مزايا فهم أقوياء ورصينون ووفيرو النسل. ولكنهم أيضاً انتقاميون همجيون مغرورون وخونة. فقد خانوا القرطاجيين لصالح الرومان، والرومان لصالح الونداليين[1]، والونداليين لصالح البيزنطيين والبيزنطيين لصالح العرب. والعرب لصالح الأتراك والأتراك لصالح الفرنسيين... ودور من الآن؟ إنهم الساخطون السرمديون. في عروقهم دم أسود ولاتيني وبضع قطرات عربية، يجمعون كل العيوب وصفتهم

(1) الونداليون هم قبيلة جرمانية.

الأساسية هي المقاومة، قوة استثنائية ولكن من يمنعهم من أن يصبحوا شعباً عظيماً وحتى أن يتحدوا. ماذا كان سيحصل لنا نحن لو رفضنا يوليوس قيصر[1]؟ لكنا هؤلاء القبائل. ابنك هذا بلقاسم يوغرطيّ وسيخونك أنت أيضاً...».

أشارت ساعتي إلى الواحدة والنصف، لم آكل قبل مغادرتي روفيغو وقد شعرت بالراحة عندما صرخ بي على الطريقة الجزائرية:

«أوه لا، لا. لقد تأخر الوقت هل أكلت قبل مجيئك؟ لا؟ إذن إنت جائع كثيراً».

عقد ربطة عنقه ووضع سترة واصطحبني إلى فندق كولون إيكونوم القريب، حيث قدموا لنا اليخنة ولحم الغنم، وطلب غوريو قنينة نبيذٍ جيدة فانتعشت. اعترف لي أنه يتحاشى كل احتكاك بالعرب وأن مالكة المنزل هي من تنظف له منزله مقابل أن يعطي دروساً خصوصية لابنها.

سألته كيف يتفاهم مع دينون معاونه العربي.

«بشكل جيد جداً. علاقتنا واضحة، انا أقود وهو ينفذ، فهو مدرّس ممتاز. ومثل ببغاء حفظ كل ما تعلمه. ليس لدي ما أشكوه منه، بالعكس وعندما نراه قد نخدع به فلا أثار لعربيته في لغته الفرنسية. وما يساعده هو زواجه من فرنسية وأن عمه هو مدير المدرسة. ولكن عندما يعود إلى منزله يلبس القندورة ويأكل الكسكس جالساً على حصير، أناس ميؤوس منهم يا عزيزي. برأيي عليهم أن يتنكروا للإسلام وهذا ما لا يجب أن

---

(1) Jules César يوليوس قيصر، يعتبر من أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ وسبب ثورة تحويل روما من جمهورية إلى امبراطورية. كان هناك العديد من الحكام الذين تبنوا اسمه وأبرزهم أبنه (بالتبني) أغسطس قيصر وبطليموس الخامس عشر (قيصرون) ابنه من كليوبترا السابعة وصولا لقياصرة روسيا.

تتأمل به، فسيكون من السهل أكثر أن يصبح الفرنسي مسلماً. مسكينة الآنسة لوكين السابقة، كانت امرأة ذات مستوى رفيع، ما زالت ترفض أن تعترف بخطئها، فأنا أشفق عليها، عليك أن تذهب لرؤيتها».

كيف يتدبر أموره مع النساء؟ فهو لا يوحي بأنه قادر على استمالتهن. فهو من طرح عليّ السؤال الذي كنت أنتظره:

– بخصوص هذه المرأة التي سهرت معها على جثمان بكري، ما اسمها؟

– قلت لك السيدة كونيغ.

– اسم ألماني؟

– من أصل فرانك كونتي. ربما أنك تعرف الأولاد باري، أخوانها؟

– بالنظر فقط.

– الزوج مدير مزرعة. سيستلمون إدارة فندق أوترمال في روفيغو فالمالكة ستعود إلى فرنسا.

– هذا ما سيحل مشاكلك المنزلية. عليك أن تستأجر فندقاً عائلياً بسعر خاص.

عبرت بزفرة عن تشككي.

«هذه السيدة كونيغ ألن تغرم بها مثلا؟».

لست جيداً في الكذب، كما أنه كان يسعدني التكلم عن ماتيلد، فوصفتها له كامرأة استثنائية جميلة وذكية وتحدثت عن المزرعة في سيدي موسى حيث يمضي روبير الفرصة.

أبدى ردة الفعل التي تخيلتها بالضبط وبالكلمات نفسها:

«لم تفوّت أي سوء حظ، فأنت كمن يعد مجموعة، اعترف بذلك. أليس هناك نساء أخريات حولك؟».

نظرت إليه بشفقة. بماذا وبمن هو قادر أن يتظاهر؟ فهو ينتقد كل شيء ويقيس ويعدّ ويتردد ويحقق ويتحسس ويبحث وبعد ذلك يسكب مرارته. لا قيمة لأحد في نظره. العرب لا يساوون شيئاً والقبائل أقل منهم، وللتعبير عن رأيه بالمستوطنين يتقصد ذلك الصمت المعبّر أما اليهود فلا مجال للكلام أساساً عنهم. إذن ماذا جاء يفعل هنا، فهو لا يرى أحداً، ويلعب دور المتبجّج. كيف يمكنه الإدعاء بأنه يملك الحقيقة؟ فهو سفينة حربية راسية في مكانها مستعدة لإطلاق النار على كل من يقترب منها. أنا الذي لم يكن أكيداً من شيء ويقترف الحماقة تلو الأخرى، وربما أني أسلك الطريق الخطأ ولكنني أتقدم بشكل أعمى. مدرسته وصفوفه كل شيء ملمع مرتب من دون أي ذرة فانتازيا والبرامج تسير بكل انضباط. بمعنى ما يروق لي ذلك.

بما أنني لم أرد على سؤاله، عاد إلى الحديث عن أسباب انهيار الإمبراطورية العربية وعن الدروس التي يمكن أن نقدمها لهذا الشعب. تركته يتكلم ولم أخبره بقصة البيانو، إذ أمكنني أن أتخيل نظرته الساخرة المتوقعة. بالنسبة إلى ماتيلد لم أجد حلاً فغوريو محقّ: الشرطي لا يطلّق أبداً.

نهضنا وعندما وصلنا إلى الساحة كان القطار قد فتح بابه مطلقاً صفاراته فتصافحنا. «دبماتون»، قال لي، «عليك أن تصبح مديراً وهذا كفيل بحلّ كل شيء».

صعدت إلى مقصورتي ورأيته يبتعد باتجاه مدرسته بخطى آلية.

تملكتني فكرة واحدة: إنني مستعد لأن أدفع الغالي والنفيس لكي أمشي في غابات أرضي الأم في نهاية الخريف تحت مطر خفيف بعد موجات البرد الأولى، وقد تساقطت أوراق الشجر، وكأنها زخة ثلج نحاسية مفاجئة لتمسي الهضاب شبه حمراء كشعر روبير، وأهل مويفير مع بقعٍ نارية. نتقدم وسط عزف الأرغن تحت صحن الكاتدرائية في يوم عيد العنصرة بين المذابح والزخارف المذهبة في الوقت الذي تكتمل فيه أسرار العام العظيمة: وصول الفصل الحزين. نريد ألا ينتهي كل هذا وأن تحتفظ الغابات بزينتها الملكية وفي الوقت نفسه نكره أن نرى هياكلها المعدنية واقفة تتهشّم تحت السماء السوداء. مع أول عاصفة ليلية يسقط العنب ونرى أشجاراً ميتة فوق التراب بعد أن انفصلت جذورها الضعيفة عن الأرض. وأحلم أن اصطحب يوماً ماتيلد إلى هناك، لا يجب أن تعرف إلى أين آخذها، وسأقدم ذلك لها كهدية عرس. سأراها تمشي أمامي وأقول: «إنها لي...» وأغرز من وقت لآخر عصاي في التراب لأثبت مروري.

يهز الجابي كتفي فأنتفض: «لقد وصلت إلى روفيغو أستاذ».

مع نزولي من القطار شعرت بموجة يأسٍ تغمرني، مدركاً أن حياتي مفتوحة على العدم وأنني أضعت وقتي في تدريس الفرنسية لولد من القبائل سيخونني ولأوغاد لن يحتاجون إليّ وباتاغونيا[1] الخاصة بهم تكفيهم. فغوريو مصيب حين يحثني على أن أصبح مديراً. فهل سأغدو يوماً كذلك؟ وإن حصل فبما يفيدني ذلك؟ شعرت أنه محكوم عليّ بالتعب المجاني وأنني لست أحداً ولا حتى بأهمية حمار.

(1) باتاغونيا، (Patagonia) يقع معظمها في الأرجنتين وجزء منها في شيلي. أشهر أقاليم شيلي، وتتميز بالمناظر الطبيعية الخلابة وهي جزء من نهاية اليابسة عند طرف قارة أمريكا الجنوبية حيث الجبال الجليدية والمناطق المتجمدة.

كراساتي التي ملأتها بخطي المائل الدقيق انتهت إلى النار مثلي. فقد حدثني الكولونيل يوماً عن والد مارغريت، الشيخ بويشو الذي كان يحب تقليب النار وهلك مع كلبه في لهيبه. ربما كان يشبهني، وهل كان مثلي مشتاق إلى الشتاء أم أنه ضجر من العيش طويلاً؟ أنادي ماتيلد بكل قواي فلو كانت هنا لنجوت. ألم أخدع بالطريقة نفسها مع دلفين؟ وعندما ظهرت الآنسة لا ساروت ألم أشعر بالنزوة الحيوانية نفسها. هذا الهوس بلعب دور بروميثيوس[1]، أي غرور هذا! في الحقيقة إن كنت متأكداً أن ما أكتبه له معنى فسأشعر بالرضا. فحتى لو أن الغبار الذي أنثره كان لامعاً بعض الشيء فإنه في النهاية غبار. أي فارق جميل!

كاهن روفيغو أكثر حذراً مني. فقد تظاهرت بعدم رؤيته عندما تقاطع دربنا ولم أتبادل معه سلاماً عادياً حتى لا أجرحه عميقاً، هذا المنافس في الأخلاقيات المنسحب خلف الحصن على جبل الأبدية. فالرب في صفه يمكنه أن يسأله ويسمع نصائحه، وعزوبيته تحميه من النساء ويجد جواباً

(1) بروميثيوس، حسب الاسطورة الأغريقية هو الذي خلق الإنسان بناء على طلب زيوس بعد ان خلق أخوه أبيمثيوس الحيوان، وقد بالغ بروميثيوس في الإنعام على الإنسان فأعطاه القدرة على المشي منتصباً على رجلين كالآلهة وهو ما لم يحصل عليه حيوان آخر من قبل. ثم قام بروميثيوس بسرقة النار التي تعني النور والمعرفة والدفء من الآلهة وأعطاها للبشر مما زاد في سخط زيوس عليه. وأخيراً قام بروميثيوس بخداع زيوس، حيث أحضر ثوراً وذبحه، ووضع لحمه وجميع ما يؤكل منه في كومة غطاها بالأحشاء والمصارين ووضع العظام في كومة أخرى وغطاها بالدهن ثم خير بروميثيوس زيوس بين الكومتين، فاختار زيوس الثانية واشتد سخطه حينما علم أن كومته تحوي العظم، ومذاك باتت القرابين للآلهة تحوي العظم والدهن في حين أن اللحم هو للبشر ليأكلوه... وجزاء لبروميثيوس وتجاوزاته عاقبه زيوس بأن قيده بالسلاسل إلى صخرة كبيرة في القوقاز وسلط عليه نسراً جارحاً ينهش كبده كل يوم... ثم ينمو الكبد مجدداً في الليل إلى ان أتى هرقل وخلصه...

لكل شيء في كتاب صلوته. أنا... جول فرري[1]، رسول العلمانية لا أحظى بأي مساعدة وكل ما أفعله لا يقودني سوى إلى الهاوية.

عدت وأقفلت على نفسي الباب ولحسن الحظ فقد جاءت الجزائرية ورتبت أغراضي. أبسبب زيارتي لغوريو؟ اغتظت من وجود البيانو وشعرت برغبة في دفعه إلى الدرجين اللذين يفصلان المدخل عن الرواق والتخلص منه. وسيتدحرج محدثاً صوت ارتطام الخشب والأوتار. وفي ضربة واحدة، سيتوقف الناس عن الارتياب من صحتي العقلية.

(1) Jules Ferry (1832– 1893) هو رجل سياسة فرنسي أضحى رمزاً للعلمنة الفرنسية وواحد من الآباء المؤسسين للهوية الجمهورية. فهو من فرض التربية العلمانية وجعل التعليم إجبارياً ومجانياً بما يسمى بـ «المدرسة المجانية والعلمانية والإجبارية».

المدوّنة الخامسة

زيارة الكولونيل غريبه للمدّرس في منزله. «أنت سيد متيجة».

«يا عزيزي»، قال لي الكولونيل وهو يمد لي يده، «ليس هناك سوى طريقة واحدة لنكون محقين في كل شيء، والتي كشفها لي الجنرال دو رواي: تمسك جيداً وقاوم وأنت تراهم جميعاً يهوون قبلك، إذن حتى لو أخطأت فلا تستسلم وإنما ثابر. بدعك ستتحول إلى أفكار عبقرية وستصبح رائداً. لا ذنب لبكري سوى أنه انتحر. وهذا ما لا تفعله أنت أبداً».

كان متأنقاً مثل ميلورد، بدلة غامقة مخاطة بدقة مع ربطة عنق فراشية صغيرة حسب آخر صيحات الموضة، وعصاه ذات المقبض الذهبي التي يستعملها وكأنه صولجان، قبعة رقيقة من اللباد، وعند طية صدر السترة وردة جديدة كبيرة. عينان لامعتان ولحية مرقطة بين الأبيض والأسود وشعر طويل يصل حتى الرقبة.

استلّ من صداره ساعته الجميلة المسطحة.

– ألن تبقى هنا؟ صاح أرتور.

– قلت لمارغريت إنني عائد أيها السادة، أجابه الكولونيل.

أراد أرتور اصطحابه لكنه رفض. وعندما بتنا وحدنا قال لي همساً:

«أحب أرتور كثيراً غير أني نمت بما فيه الكفاية في خيم المعسكر، وما عدت أحتمل في شيخوختي سوى الراحة، فقضاء الليلة عنده أو عند إيمي بات من الماضي. كما أن أبدد وقتي وأنا أعظ قروبي روفيغو... لقد جئت من أجلك».

القطار ينتظر في الساحة.

– كم ما زال لدينا من الوقت قبل وصول القطار؟

– عشر دقائق.

– حسناً، أرني إذن هذا البيانو الشهير.

فتحت له بابي. تساءلت كيف ستكون ردة فعله «أنت محق»، قال لي، «لكنت فعلت مثلك واحتفظت به. إذن هنا استقبلت بكري؟».

أريته المطبخ والسرير الذي نام عليه والرواق حيث قطع وريده.

«هكذا، بهذه البرودة، أي شجاعة لديه»، قالها وكأنه يحدّث نفسه. «نحن العسكريون نقتل بسهولة ويحصل أحياناً أن نُقتل بيد أن نقتل أنفسنا فذلك أمر آخر لا يجب أن نفكر بهذه الطريقة. أو أن نحسب أنفسنا أبطالاً».

لم يكن لدي الوقت لأريه صفي، مع أنني كنت أحب ذلك خاصة من أجل الآنسة روسي المختبئة وراء مصاريع نوافذها... أطلق القطار صافرته فتقدمنا دون تعجّل على طول الموكب، وكأنه يستعرض الركاب. بحث عن أولى المقصورات إذ كان هناك دائماً مكان فارغ في المقصورة الثانية. وقبل أن يصعد توقف والتفت باتجاه الكنيسة والفندق والمدرسة وبطريقة علنية، وكأنه يقدّمني كزينة على جبهة الجماعة، عانقني.

«سأهتم بكل شيء يا رفيقي التافه»، تمتم.

تسلق رصيف محطة القطار ثم وبصوت هادر:

«سلام يا سيد متيجة».

ثم بقي واقفاً وانتظر حتى أقلع القطار وبدأ يلوح لي.

ملاحقاً بنظرات أهل القرية عدت إلى منزلي بخطى عادية قدر الإمكان،

رغبت في الغناء وبالجلوس أمام البيانو وعزف مقطوعة صارخة كموسيقى الاستعراضات العسكرية.

ومذ ذاك بدأت أحترم نفسي.

وحتى الآن ما عادوا يتذكرونه إلا كشائعة. لقد رأوه، عاد الناطور يصافحني من جديد، وقال لي رئيس البلدية: «صديقك الكولونيل لو غربيه شخصية كبيرة. ما كنت أعرف أنه أحرق الجبل قديماً وأنه في 1871 لاحق المقراني حتى عقر داره في القلاع...»، هو أيضاً أضاف «لو»[1] إلى اسمه، وأنا لم أصحح له. كنت فخوراً جداً بأن سيد متيجة هو أنا.

بعد أسبوع عاد تقريري من المحافظة مع ملاحظة «للحفظ» ورسالة من هيئة التفتيش الأكاديمي جعلتني أتضرّج خجلاً: «مدرّس روفيغو لا يستحق سوى الثناء. وسلوكه مثال يحتذى به». بات طلبتي يطيعوني دون مقاومة، وإسبيزيتو تأدّب، ولم يعد أحد يشير ولو بتلميح صغير لما حدث إلا إذا فعلت أنا. وبالأمس قالت لي الآنسة روسي صباح الخير للمرة الأولى.

وبدأت أنتظر ماتيلد.

أخبرني أرتور أن زوجها الشرطي لن يلتحق بها قبل شهر على الأقل وأنها ما زالت تسكن لدى شقيقها إيمي وقرابة السابعة صباحاً تذهب إلى الفندق. فالآنسة فروادير بدأت تسلمها تدريجياً الإدارة والمطبخ والمطعم واستقبال الزبائن، وعند المساء وبعد العشاء تعود إلى المنزل. موقع منزلها يجبرها على المرور بالساحة أمام المدرسة، لذا بت أحزر خطواتها، أعرفها من بعيد، خطى رشيقة واضحة وخفيفة بيد أنها مصممة. كلّ مرة أردد

(1) إضافة الـ «لو» (le) على اسم العائلة في اللغة الفرنسية يكون غالباً وليس بالضرورة دائماً دليلاً على نبل الشخص المعني.

أبيات الشاعر الألماني من القرن السابع عشر التي كان أبي يلقيها أيام الأعياد ليدهش أصدقاءه، هوفمان فون هوفمانس وولدو.

قلت لها: «مشيتك إلهية
وأعتقد أن وجه جونون شحب من الغيرة
فأعاد له فيبوس ولأجلك توهجه
لا تحسبي أنك تلمسين الأرض
وأن قدمك الخفيفة تسحق العشب والزهر
لا! فكل خطوة من خطواتك تدوس قلبي وتجرحه!...».

على الأرجح إنها ترجمة للشاعر اللاتيني كاتول. فأبي كان قادراً على اختراع هوفمان فون هوفمانس وولدو هذا، إذ لم أجد اسمه في أي معجم. أردد الجزء الأخير من القصيدة وخاصة البيت الأخير، ألتهمه وأتلذذ به. فهو ليس لبودلير ولا لرامبو، إنه شيء آخر. فخلف لازمته الكورسية هناك بساطة تشبهني. عندما تدق منتصف السادسة ألتصق بمصاريع النافذة مشنفاً السمع، أروح وأجيء مرتجفاً أغتسل واحضر القهوة.

وبعد أن تصل بداية الطريق حيث يسكن إيمي يمكن لماتيلد أن تستدير بزاوية قائمة باتجاه الفندق. لماذا تأخذ طريق المدرسة أليس من أجل أن ترسل لي إشارة؟ لتؤكد بأنها تريد أن تترك أثراً لمرورها متحدّية الآنسة روسي؟ في كل مرة كنت لأخرج لو امتلكت الجرأة وأقبل الأرض خلفها.

في المساء أيضاً أرصدها. أضع قنديلي فوق مكتبي بالقرب من النافذة وأقول: «يوماً ما ستتوقف».

يوم الأربعاء قررت. فقد خيل لي أنه لم يكن هناك الكثير من الزبائن.

استقبلتني الآنسة فروادير على طاولتي المعتادة في آخر الصالة الفارغة مقابل المدخل. تصرفت وفقاً لمتطلبات الظرف وتظاهرت بعدم الاكتراث.

– تريدين تركنا، أهذا نهائي؟

– لقد حزمت حقائبي، وما إن ينهي السيد كونيغ أموره مع خليفته، أي أنا وصوفي... سأحجز مقعداً في الباخرة وأنطلق!

– هل ستبقين بضعة أيام في الجزائر؟

– فقط لأشرف على شحن الحقائب، قالوا لي عليك أن تزوري الشمال وتنزلي حتى بسكرة[1]، إنه أفضل الأوقات تماماً قبل الصيف، وتعتقد أن بإمكان ذلك أن يشعرني بالأسى؟ لا، سأتخلى عن كل شيء، المرء في سني يعود إلى دياره.

نظرت نحو المطابخ وفردت فوطتي منتظراً ظهور ماتيلد.

ها، لن يأسف عليّ أحد سواك.

أنت تشرفينني كثيراً.

لقد خرجت لمواجهتهم. هذا ما يحبونه: ألا نخافهم. أنا أستقبل كل الناس ولا دخل لي بالسياسة غير أني لا أحب أن أستقبل العرب في الفندق بمن فيهم أولئك الأغنياء الزعماء أو غيرهم أما في المطعم فليأت من يشاء. يأتون مصحوبين بمستوطنين فاستقبلهم، لا لحم خنزير، هكذا هو دينهم وأنا أتفهم. بيد أن هناك من لا يتوانى عن شرب النبيذ وهناك حتى من يشرب الأفسنتين. لَمَ لا؟ ولتفعل عائلة كوينغ ما تشاء. فهو شرطي سابق يمكنه أن يتدبر أموره، أما هي فتعرفها، للأسف ليست هنا الليلة، ليس

---

(1) بسكرة هي مدينة جزائرية وهي عاصمة ولاية بسكرة. تقع جنوب شرقي العاصمة الجزائرية.

هناك أحد، لقد أرسلتها لترى ما الذي يفعله زوجها ولتحثه على إنهاء كل شيء».

لم أعِ ماذا أكلت، شعرت بالتكدر ورغبت بالعودة إلى المنزل. أبدت صوفي على غير عادتها بعض العاطفة اتجاهي، جلست عند ركبتي سعياً وراء قطعة من اللحم. أعتقد أن الآنسة فروادير فطنت لما يجري، وإلى أن عمار كان يبتسم لي ببعض مكرٍ. رحيل ماتيلد دون علمي جرحني، تملكني شعور بالإحباط، فأنا لا أعني شيئاً بالنسبة إليها. أو لعلها اشتاقت لزوجها؟ أتخيلها بين ذراعي الشرطي، مغمياً عليها من النشوة، لا، هنا أنا أبالغ ولكن في النهاية... سأشحن روح الشرطي بحرارتي الخاصة، ليرى زوجته بعينيّ، يبعدها قليلاً ليتأملها يمسك وجهها بين يديه مثل جوهرة في تاج ويقول لها: «أنت حياتي، أنت قلبي...». رجل شرطة... لمَ لا؟

وجدت في صحني قطعة جلد وأعطيتها بكل رقة لصوفي.

«خذي يا جميلتي». «يا جميلتي» قلتها بقصد مدح صاحبتها.

«ليس عليك أن تفعل ذلك، فهي سمينة بما فيه الكفاية، لا أريدها أن تغدو مثلي».

دخل أحد الزبائن، تاجر جوال، زبون معتاد وهذا يبدو من تحيته المتخففة. ذهبت فروادير لإجلاسه بالقرب من المدخل فاقترب مني عمار.

«إذن سيد ديماتون، كل الناس أسوياء؟...». تبادلنا نظرة تواطؤ وحمحمت. فهم يعرفون إذن ما قلته والعرب يتبادلون ذلك في ما بينهم، لاحظت أنه عندما أجيء إلى مركز البليدة يعاملونني بنوع من الاحترام الودود.

«المساواة بين الناس واحدة من أكبر مبادئ الثورة ولم أفعل شيئاً سوى التذكير به».

لا يفوتها شيء الآنسة فروادير. أسرعت كالزوبعة باتجاهي وصرفت عمار.

«هنا أنا أخالفك الرأي»، قالت، «في رأيي المساواة هنا هي سوء تفسير أو أننا سنضيع. ففي اليوم الذي يصبح بإمكان عمار أن ينتخب ستجد جذع تينة على رئاسة بلدية روفيغو ولن تتمكن بعدها من التدريس».

لم أكن أرغب حقيقة في النقاش، انحنت فهبت عليّ رائحة حادة ورأيت تحت إبطها شعراً مفتولاً.

– أنت، سيد ديماتون، ستخدم هؤلاء في مقهى بربري.

– هيا آنستي، فإن صوّت مجلس النواب على تعليق الإعلان في البلديات لا يمكننا القول إنهم خضعوا بذلك لضغط الغوغائيين. فنحن في زمن الجمهورية والقانون يطبق على الجميع.

– لا أعرف شيئاً عن هذا الإعلان.

– ألا تقرأين الصحيفة؟

استدارت باتجاه النزيل ومشت إليه بضع خطوات وسألته:

«هل قرأت أنت هذا في صحيفة لا دييبش؟».

وشرحت له فبدا متفاجئاً.

«في لا دييبش يحكون معظم الوقت عن معركة الأخوة رِجيه في تانتوفيل».

فقد رحل درومون في الوقت نفسه الذي كانت فيه قافلة من المعلّمين تزور الجزائر. في ترمينوس ثم تانتوفيل، واجه الأخوة رِجيه خصوماً

سياسيين. وجرى تبادل إطلاق النار ولوحق اليهود. فبعد أن أعلن عنهم في البداية كقتلى، وقف الأخوة رِجيه فوق الطاولات والضمادات على رؤوسهم وألقوا الخطب. المهرجان الاعتيادي.

لم أصر، أكلت بسرعة التحلية ورافقتني الآنسة فروادير حتى الباب. كانت القرية نائمة وبنات آوى منطلقة في مهرجانها للفرح.

- متى سأتوقف عن سماع هذه الأصوات.

- ستشتاقين إليها.

- لا أنا ولا صوفي. ربما أنت.

صافحتها وابتعدت. شعرت أنها أصبحت من أعدائي. ستتحدث عني بغيظ وستهمني تحت النظرة الساخرة لعمار بأني أنشر الأفكار الخطيرة. «سنفاجأ لاحقاً بكل هؤلاء الفتيان متفاخرين يعتقدون... سيتعلمون ذلك في المدرسة. هل أنت مع تعلمهم؟، أنت...».

على ماتيلد أن تعرف بسرعة كم اشتقت إليها.

جلست إلى طاولتي.

«أين أنتِ يا قلبي؟ أمشي تحت المطر، أناديك، الطقس بارد والريح تعصف...» هي تفهم هذه الإشارات. لا يجب أن أقول المزيد، أخاف أن أرعبها.

وقعت ووضعت الرسالة في مغلف وكتبت العنوان، كانت المرة الاولى التي أكتب فيها إليها: مدام ماتيلد كوينغ، لدى آل باري إيمي، المالك روفيغو. بيدٍ مرتجفة ختمت المغلف وأمسكت بعصاي. تظاهرت بأنني أتمشى، لم تكن شبابيك الآنسة روسي مضاءة، انحدرت باتجاه

اشجار الكينا ثم صعدت باتجاه الساحة مررت من خلف الخباز ثم خلف الكنيسة، صندوق البريد إلى اليمين قريباً جداً من الفندق والشق الذي نمرر منه الرسائل موجود بين الشباكين بمصاريعهما المقفلة تحت القضبان المعدنية. أخرجت المغلف من صدري الذي كان يغلي ورميته وعدت بالاتجاه المعاكس. الهلال في الحي الأول يتدحرج فوق الجبال.

أي غباء! كل هذه الصرخات الساذجة المبهمة: «أناديك، الطقس بارد والريح تعصف...» لقد تجرأت على مناداتها بالمفرد واستعملت صوراً رومنسية فوضوية، هي التي بالكاد تعرف القراءة! كان عليّ استعمال أسلوب أكثر وضوحاً وبساطةً. في الحد الأقصى أسميها فخري وتاجي وفي عقلي أعدت كتابة الرسالة: «ماتيلد، من أجل رؤيتك ذهبت هذا المساء للعشاء في أوترمال، لم أجدك هناك، إني حزين، أتمنى كثيراً...». وعندما ستتسلم الإدارة، ويأتي رجال غريبو الأطوار مثل التاجر الجوال ويتبادلون الدعابات بمحمولاتها المريبة ويخبرون بعضهم بعض عن وجود نادلة جميلة في روفيغو... غير أنه بوجود شرطي يسهر على عفة زوجته، لن يجرؤ أحد على فعل ذلك.

لقد اقترفت للتو حماقة، ولنفرض أن كل شيء جرى بالشكل الصحيح ولنفرض أن ماتيلد عادت لوحدها وان أحداً لم يفتح الرسالة قبلها، ألم يكن يستحسن وبدلاً من أن أسمح لنفسي بالانجرار وراء هذه الغنائية المضحكة أن أقول لها بكل وضوح إني أحبها وأنتظرها كل مساء، وأترك بابي مفتوحاً وليس عليها حتى أن تقرعه، يكفي أن تدفعه...

المدوّنة السادسة

ثورة اندلعت في مارغريت[1]. مجلس استشاري حربي في البلدية. بلقاسم يحمل عصفوراً إلى المدّرس، هاجر، غراب زرعٍ أسود ورمادي.

اليوم، السبت السابع والعشرين من أبريل 1902، عند الرابعة من بعد الظهر، مباشرة بعد الصف، أرسل أرتور مولوداً، أحد تلامذته، لاصطحابي. حسبت أن ماتيلد ربما كشفت رسالتي.

في المشغل، وجدت أرتور وحده وعلى طاولته بندقيته التي غالباً تكون معلقة في المنزل، وجهه المنقبض أخافني، لم يكن ذلك سوى الغضب. وأنا الذي عليّ أن أبدو هادئاً تقدمت واضعاً يدي في جيبي. لوح بالصحيفة: «هل عرفت؟».

قرأت بالعنوان العريض على الصفحة الأولى: «*ثورة في دوار أدِليا (مليانة) لبني مناصر*».

المقال المنشور هنا كان بتاريخ الأمس: «شيء لا يصدق، زهاء مئة من الخيالة العرب المسلحين هاجموا ظهراً قرية مارغريت ونهبوا المنازل. خمسون من المستوطنين خطفوا وجرحوا. وهرب السكان للاحتماء في محطة أدِليا. واستولى العرب على أسلحة وذخيرة حربية وجواهر وأموال. وبعد أن ارتكبوا جريمتهم هربوا باتجاه جبل زكّار. وقد أجبروا

(1) مارغريت هنا ليست إحدى شخصيات الرواية (زوجة الكولونيل غريبه) بل إحدى ضواحي مدينة مليانة الجزائرية ومارغريت هو الاسم الذي أطلقه عليها الفرنسيون واليوم تسمى بـ «أدِليا».

كل الأوروبيين الذين صادفوهم على إعلان انتمائهم للإسلام وعلى ارتداء البرنس. وقد أقفلت مدينة مليانة أبوابها».

ما عدت أذكر جيداً أين تقع مارغريت، بحثنا في روزنامة البريد. على بعد بضعة كيلومترات من البليدة، ليس بعيداً جداً من هنا. في البلدية هناك خريطة أفضل.

روفيغو فارغة هادئة، لم نقل شيئاً ونحن نعبر الساحة. نظر أرتور خلف الكنيسة والقرية والجبل الهادئ الساكن بعد العاصفة، ذلك الجبل القريب جداً لحد أنك قد تلمسه.

الجنرال مارغريت هو خيال معروف خلال احتلال الجزائر وقتل في فرنسا في حرب العام 1870. التجمع السكاني الذي يحمل اسمه يوجد على ارتفاع 782 متراً. وخط سكك الحديد الخاصة بوهران تمر أسفل الجبل وتلتقي أفريفيل والسهل حيث تلتهب سانت- إيمي- لا- جديوية. على المتمردين أن يتجمعوا في المسافة الممتدة بين وادي الشلف والشاطئ، منطقة غير معبدة ومليئة بالعرب وببنات آوى.

«كما هنا»، قال أرتور مشيراً إلى الشمال، «نجلس براحتنا، ممددين، نزرع الكرمة ونعالج الأرض الصعبة، ونترك جذوع التين ومن خلف ظهورنا يتآمرون بهدوء علينا. الآنسة فروادير كانت محقة بأن تهرب. يجب تلقينهم درساً، وإن لا... فمجرى العدالة سيكون طويلاً. والعسكريون لا أحبهم ولكن عليهم أن يثبتوا هيبتهم في هذه اللحظة».

أرسلنا الناطور ليبحث عن رئيس البلدية في مزرعته.

«هل رأيت إلى أين تودي بنا أفكارك؟ فأنا مع أن نقتلهم جميعاً ولمرة

واحدة وبأن نلقنهم درساً».

صمت وتنبهت إلى أن لدي ميلاً خفياً لفعل ذلك.

وصل المستشارون وجلسوا إلى الطاولة يتناقشون حول خطة تحركٍ ليلية، وبما أنهم يعرفون أفكاري فلم يرغبوا في إشراكي في ذلك كله. شعرت أن مكاني ليس بينهم وفضلت الذهاب.

أيها المرأة، أيتها المرأة، أنا بحاجة إليك، ربما كنت بحاجة إليّ أيضاً، وإن التقينا فلن يكون لاصطدامنا سوى صوت حفيف ورق الأشجار في الهواء. سأبتدعك وسأترك هذا الصخب الذي يسكنني ينفجر كضوضاء معركة. فعاصفة تضرب أطراف صخرةٍ وتضيع في البحر أكثر أهمية مني. سأرسل جيوشاً للبحث عنك وأحطم الحواجز بيننا وليدم حبي لك والنار التي تضطرم في داخلي حتى أبدية الأبدية. وأسمع وقع خطواتك ويدق قلبي: ستترددين ثم ستدفعين هذا الباب وتظهرين فيردد الصوت معلناً: «ها هي ماتيلد...». بالنسبة إلى الآخرين، لست سوى امرأة. بالنسبة إلي أنت الشمس والقمر والنجوم والصوت الذي يخرج من الرمال والذي يصرخ عالياً. وسأختبئ من النور الذي يعميني، اهزميني أحرقيني اخترقيني برمح قاتل وليسل دمي حتى الرمق الأخير. وأولئك الخيالة الذين يقتحمون قرية لكي ينهبوها مجبرين رجالاً من الديانة الأخرى على اعتناق دينهم! فمنذ زمن بعيد وأنا أصرخ بالكلمات التي تجعل منك إلهتي. سأحملك خلفي على الحصان، وننطلق من قمةٍ إلى أخرى حتى طلوع الفجر، وعندما نمسي وحدنا أتوقف وأنيمك على ذراعي وأدلك على الكنيسة الكبيرة التي تضيع أبراجها في الغيوم، البرق والرعد وخطوطهما

في يدك الملائكية، الصراخ المتجمد للروح في كاتدرائيتها...

هذا الصباح قرعوا بابي. ليلة البارحة سهرت طويلاً وأنا أكتب فلم أستيقظ بسهولة.

جاء بلقاسم مع صبي عربي لا أعرفه، واحد من جيرانه بلا شك أراد أن يدله على مدرسته وأستاذه. خلال الأسبوع يرتدي بلقاسم ثياباً أوروبية ويبقى حاسر الرأس بلا طربوش. في هذا اليوم لبس برنساً أبيض ناصعاً مهفهفاً لم تتكسر بعد طياته أما صديقه فارتدى جلابية رمادية. فربما لأنه يوم أحد أراد أن يميز نفسه عن المسيحيين؟ يمكن أن يشك المرء بذلك.

– تأتيان من لاربعاء أنتما الاثنان، هكذا سيراً على الأقدام؟

– في العربة قليلاً ومشياً على الأقدام قليلاً والآن ربما في القطار.

– بهدف لقائي؟

أخرج من برنسه قفصاً صغيراً رفيعاً جداً من القصب يحمله بمسكة معدنية معقوفة وداخله عصفور أسود بحجم القفص.

– ما هذا؟

– هدية لك، ربما يذكرك ببلادك.

أي فكرة غريبة هذه، عصفور، لم أفكر يوماً بهذا. لا أحب الحيوانات إن كانت بالوبر أو الريش وإلا لاقتنيت كلباً منذ زمن. كدت أقول لبلقاسم: «ماذا تريدني أن أفعل به»، ولكني عدلت عن ذلك.

– إنه كبير هذا العصفور. وهل عليه البقاء في قفص صغير كهذا مثل السجن؟

– القفص هو لحمله فهو يعيش حراً.

– ما هو بالضبط، غراب؟

– لا، لا ليس غراباً. الغراب يكون أسود بالكامل، انظر.

هذا صحيح، إنه رمادي مع حوصلة غضة لامعة، لم يكن فيه سواد سوى الجناحين ونوع من القبعة على الرأس والجبهة والقوائم لامعة محرشفة.

– أين التقطته؟

– أحضره أحدهم إلى أبي الذي أعطاني إياه في اليوم التالي لزيارتك لنا.

في هذه اللحظة أطلق العصفور، زعقته شبه قرقرة سريعة لا تشبه النعيب المشؤوم للغراب. خيل لي أن غوريو وهو يحاول تصنيف هذا الصوت بين أصوات طيور النّوء.

– ماذا يأكل هذا العصفور؟

– أي شيء. خبز ولحمة وجبن وحبوب، إنه لطيف جداً.

يبدو أني أعطيته هذه الفكرة عندما تحدثت يوماً عن الأصدقاء وعن عنكبوت سيلفيو بيليكو. لا يمكنني رفض الهدية وتساءلت أين يمكنني وضعه، ليس في غرفتي ربما في المطبخ على حافة الشباك المطلّ على الجهة الشمالية بعيداً عن أنظار المارة.

بحثنا له سوياً عن مكان. انزعجت قليلاً لكشف سريري الهابط ومكتبي غير المرتب وثيابي المبعثرة. وضعت بعض كسرات من الخبز في طبق وأضفت قطعة جبن وسكبت الماء في زبدية.

– هل له اسم.

– أناديه هاجر.

أغار، إنه اسم خادمة ابراهام، والدة إسماعيل. وهذا يفاجئني فما كان

العرب يسمونه بهذا الاسم. ربما أنه الاسم الذي ظننت أني سمعته.

«أهو ذكر أم أنثى؟».

أبدى بلقاسم جهله، ليس مهماً، كنت لأفضل أن يكون حمامة أو يمامة. هاجر اسم ملائم لغراب الزرع ولكنه اسم عربي. فإن بقي عندي سأحوله مسيحياً إلا أنني لن أعطيه الجنسية الفرنسية.

«حسناً جيد»، قلت لكي أصرفهما، «بلقاسم، لقد تأثرت كثيراً بهديتك».

ترددت في فتح القفص مباشرة. يلزمه بعض الوقت ليعتاد مكانه الجديد، قربت له الصحن إلا أنه بقي يقرقر. غوا غوا... ولكن بحدة أكبر هذه المرة. هاجر، هاجر، لم أجد اسماً فرنسياً مشابهاً لهذا إلى أن لمع في رأسي اسم أمير روسي مرّ قديماً في الأدب، إيغور، يعجبني هذا الاسم. من يدري إن لم يكن إيغور هو اسم الفارس الروسي الذي تتحدر منه أمي؟

بدا لي مهتماً بما أفعله، وعند الظهر عندما ذهبت لتناول الفطور لدى أرتور فتحت له القفص وحدثته.

«لديك ما تأكله وتشربه. أنت في بيتك، سلام إيغور». امتحنت مشاعري، هل سأخطئ إن تركت النوافذ مفتوحة؟ بلقاسم أكد لي أنه يعيش حراً. وإن أقفلت عليه قد يهرب في أول فرصة. أريد أن أعوده مباشرة على الحرية، فقط دفعت باب غرفتي وذهبت.

الأخبار هذه المرة أقل خطورة، لم يكن هناك خمسون قتيلاً من المستوطنين بل خمسة: خطأ في الصفر في النسخ أو في الطباعة. ترأس نائب المقاطعة في البلدية اجتماعاً. هذه الثورة كانت فعل متعصبين. بعض العرب حموا الأوروبيين وبكى قائد منطقة أدِليا الحاصل على وسام

شرف. ويبدو غريباً جداً هذا الغضب الكبير بإجبار المستوطنين على نطق الشهادة والتنكر للمسيحية ثم إجبارهم على ارتداء البرنس والطربوش. لم يرفض أحد فعل ذلك.بمن فيهم المحافظ الذي هرول في الساحات وعريف مليانة ورجلان من شرطته. ملازم أول في الدرك لم ينجُ من ذلك سوى لأنه هرب. من مات من المستوطنين قتل في البداية خلال تبادل النار. حاصرت الأفواج المتمردين وسوف يحاكمون ويقتلون.

كاهن مارغريت، رئيس دير من عائلة ليستراد والذي ما زال شاباً لم يقتنص فرصة أن يصبح شهيد الكنيسة الإفريقية، قرأ الشهادة مثل الآخرين ومزقوا له رداءه الكهنوتي وألبسوه برنساً وسلبوه مسدسه ومائة وخمسة وتسعين فرنكاً، وتسع ورقات من فئة العشرين فرنكاً ونقود، كل هذه التفاصيل نقلها أرتور عن نائب المقاطعة.

– وإن حصل لنا ذلك؟ قلت لأرتور.

– البرنس ليس مشكلة، لدي واحد شتوي أما الطربوش فأبداً.

– ستعرض حياتك وحياتي وحياة فتياتي للخطر سدى، صرخت بولين.

لم يجب وظلّ يمضغ بصمت.

«لنعترف بذلك، لقد قلدناهم وانا أولهم. هنا لا أرى من يجرؤ على مقاومتهم. على الطاولة أمام غداء وقنينة نبيذٍ لذيذٍ نشعر بالثقة بأنفسنا. ولكن وسط عصابة من المسعورين وعندما نفقد أسلحتنا...».

تكلمنا عن أحداث العام 1871. في ذلك الوقت كان عمر أرتور عشرة أعوامٍ ويتذكر حريق مزرعة بويشو فقد اصطحبه أبوه لمشاهدة الحريق وتذكر البنطال الأحمر للكابتن غرييه في مأتم الشيخ.

«لا أعلم إن كنت محقاً»، قلت له، «أريد أن أعرف المزيد عن ثورة مارغريت، اسأل المدرّس كم لديه من طلاب عرب؟ فكر بما يجري هناك. هناك أكثر من سبعة آلاف عربي في المقاطعة وليس هناك أي من أطفالهم في مدرستي بما أنكم ترفضون انتسابهم. يلزمني مساعد لأدرسهم الحضارة المدنية. التلميذ الوحيد من عندهم هو من لاربعاء، قطع هذا الصباح سبعة كيلومترات مشياً على الأقدام ليحمل لي عصفوراً».

دمعت عينا بولين وقالت لزوجها:

– أرأيت؟

– أي نوع من العصافير؟ سأل أرتور.

– غراب زرعٍ أليف.

في العادة، يوم الأحد بعد الظهر وقبل أن أعود إلى المنزل، أقوم بجولة في القرية وأتبادل التحايا مع الناس وأتلقى بعض الاعترافات بالتقصير من أهالي الطلبة. أشجع من أرضى على نتائج أولادهم، وأنصح ذوي الأولاد متبلدي الذهن بتوجيههم نحو مهنة ما، أتنفس قليلاً إذ لا أعاني من ضغط الوقت في هذا اليوم. ولكن منذ أن استأنفت الكتابة، هجرت هذه النزهات وانكببت على العمل.

هذا اليوم، تحرقت للعودة إلى المنزل، كذلك الشعور عندما كان بكري عندي. حدثت نفسي: «فلنذهب ونرَ ما حصل مع إيغور، هل تأقلم؟». حاولت ألا أتسبب بالكثير من الجلبة وفتحت باب المطبخ بهدوء. لا إيغور، بالكاد اقترب من الصحن، وقفت على النافذة وناديته. لا أحد. ربما التهمته قطة، خرجت وتفحصت السقف. قال لي بلقاسم إنهم قصوا جناحيه قليلاً كي لا يطير ويعود إلى الجبل ولكنه ما زال قادراً على الطيران

من شجرةٍ لأخرى.

درت حول المدرسة وبحثت في شجر الكينا.

«أتبحث عن شيء ما؟».

كل الناس سألوني وأجبت: «غرابي». كان عليّ أن أشرح: «طير يشبه الغراب وليس برياً تماماً فهو أليف حملوه لي هذا الصباح ربما أنه خاف ولكنه لم يذهب بعيداً...».

«ربما يكون قد عاد».

تنبهت إلى أنني أشعر بالألم وكأن صديقاً هجرني. صديق؟ بالكاد أعرفه لا بل ترددت باستقباله، كان عليّ أن أترك له المنزل كله، وليس أن أقفل غرفتي لكان حينئذ ربما اعتبر نفسه في مكانه، وربما كان يلزمه رفقة في حين تركته وحيداً.

خيل لي بأني سمعت قرقرته، تنقلت في أرجاء القرية كلها يحيط بي حشد من الأولاد.

«وخاصة لا ترتعبوا إن رأيتموه. أخبروني فأحمل له أنا صحن الجبن، هو يحب الجبن».

هبط الليل وإيغور لم يعد. تساءلت أين يمكن أن يختبئ فهو يعرض نفسه لخطر أن يصطاده أحد أو يلتهمه حيوان. أو أنه أصبح متمرداً، غراب زرع عربي؟

ناداه أخوته وعيروه. هل رفض أن يصبح مسيحياً؟ ألم يتركني لهذا السبب؟

المدوّنة السابعة غير المكتملة

أي اسم يمكن أن نعطيه لصوت غراب الزرع؟ إيغور والبيانو.
ضجة في منتصف الليل، المدرّس يتوقف عن الكتابة.

كنت أشرب قهوتي في المطبخ عندما سمعت فجأة رفرفة أجنحةٍ وزعيق. وقف على حافة النافذة وبدأ ينقر بنهم من الصحن. سمّرني الشعور بالفرح في كرسيي، لم أقم بأي حركة. نظرت إليه مبتسماً وناديته باسمه:

«إيغور، إيغور».

كان يبدو جائعاً. بضربات قوية من منقاره التهم فتات الخبز وأطراف قطعة الجبن وما تبقى من المعكرونة التي أعددتها لغدائي. أتخم ثم بدأ بالكلام، نعم لقد ألقى علي خطابات مع بقبقاته وقرقراته وصرخات تعجبه الحادة. قلت له: «أتساءلت أي نوع من الرجال أنا، أفهمت أنني أحبك؟...».

نهضت بهدوء، أتذكر أن العصافير تستحم كل صباح، أخرجت وعاءً مكوراً من الخزانة الجدارية وملأته ماء ووضعته إلى جانب الصحن مواصلاً التحدث إليه وتأمله، إنه جميل جداً، لون الدخان مع قلنسوة سوداء ذات حافة تتقدم حتى منقاره، عينان زرقاوان غامقتان كاملتا التدوير، يحيط بهما إطار أبيض، الذيل قصير. راح يحك ظهره بمنقاره ورأسه بأظافر قوائمه، تقدمت خطوة باتجاهه فهز رأسه بقسوة وإنما دون وحشية، فعلى أية حال ما زال حذراً ويقوم بخطوات إلى الوراء.

اغتسلت ولبست ثيابي محاولاً ألا أخيفه وتركت كل شيء مفتوحاً. قلت له: «أنا مضطر للذهاب إلى صفي، سوف أعود، أنت في بيتك».

منذ قصة بكري نشأت علاقة حميمة بيني وبين طلبتي، قال لي إسبيزيتو:

«تبدو سعيداً أستاذ».

نظرت إلى بلقاسم وقلت:

«لقد عاد غراب الزرع».

جميعهم يعرفون بطبيعة الحال. بعضهم فتش في الشجر وخلط بينه وبين العقعق. سألوني إن كان بمقدورهم رؤيته.

«لاحقاً».

أرادوا أن أعلق على الأحداث لأن مستوطني المزارع جاؤوا مصطحبين أولادهم في العربات، حاملين معهم بنادقهم. فضلت السكوت، ما عدت أعرف، عودة غراب الزرع غيرت كل شيء.

«كيف يصرخ غراب الزرع أستاذ؟».

أستغلّ أصغر تفصيل لكي أفتح أنظارهم على ما يحيط بهم وأعلمهم أسماء الحيوانات والأشياء وأسرار العالم. من دوني هل كانوا ليعلموا أن طائر السمان يصيت وأن البومة تنعق؟

«الزاغ[1] ينعق. حسناً صوت غراب الزرع مثل الزاغ، يمكننا أيضاً أن نقول إنه ينفخ كالبوق ولكن مع فارقٍ بسيط، وأحياناً تكون زقزقات أو ارتعاشات شبيهة بالكركرة، وكأنه يحاول تقليد طيور أخرى وبأنه يخلط كل شيء في حنجرته. هو ليس شحروراً ليصفّر كالمزمار، له بالأحرى

---

(1) الزاغ هو طائر من فئة الغربان.

صوت أجش جاف قليلاً ومتكسّر. سأسمعكم اياه وستحاولون أن تجدوا وصفاً له...».

بات لإيغور عاداته. مع أربع ألواح خشبية وشريط مشبك بنى له ارتور قفصاً أكبر.

«تضعه على حافة النافذة»، قالت لي بولين «فإن ناسبه ذلك، سيقضي الليل في داخله».

أحياناً يذهب ليحط على شجر القيقب ويعود ما إن أضع أمامي الموقد الذي يعمل بالسبيرتو فيحاول التقاط البعوض والحشرات ناقراً على الزجاج. وكأنه يتمرّى. بعد محاولتين كاد يدخل. في لحظة وأنا مستغرق في الكتابة على طاولتي سمعت حفيفاً فرحاً، وقف على طاولة المطبخ ثم على كرسي ومن هناك على البيانو. وهنا مخدوعاً بلمعان الخشب راح ينقر ظله. سيقضي على البيانو، أنا الذي علمت الجزائرية كيف تمسحه دون أن تجرحه، سخرت من نفسي. غداً سأرفع الغطاء عن علبة المفاتيح. من يظن أن البيانو قد يفيد غراب زرعٍ ليزرق على المفاتيح؟

قال لي رئيس البلدية إن مدرّسة مارغريت تزوجت بمالك من هناك وبأنها واجهت المتمردين: «اقتلوني لو شئتم لكن لن أسمح لكم بأن تمسوا هؤلاء الأطفال». وقد اقتيد زوجها مع المستوطنين الآخرين وبقيت هي حتى المساء بالقرب من طلبتها دون أن تقلق، ولم يطلبوا منها تلاوة الشهادة.

جاء الليل وإيغور ما زال في قفصه جاثماً على أعلى عواميده. لم أغلق نوافذ المطبخ إلا نصفياً حتى لا يجذب نور قنديلي الكثير من الحشرات. شعرت بشيء من السلام بفضل غراب زرعٍ عربي. لست من ذهب يبحث

عنه، فقد ذهب وكان بإمكانه أن يعود إلى أخوته أو أن يلجأ إلى شخص آخر. لقد اختارني أنا مثل بكري.

بعد أن تغديت قبالته ولقمته بعض فتات طعامي فتحت صحيفتي. كما العادة، راقبت خطوات ماتيلد. فروادير سترحل غداً، وقد أتمت شحن حقائبها في القطار. الشرطي سيستقر في الفندق ويمكنني حينئذ أن أعلن العزاء لأحلامي. فهو اليوم يحميه الضمير العام والنظام والتقاليد الفاضلة ولن أتجرأ على النظر إلى زوجته، في حين أن الكثير من الالتباس يدور حولي. فمن أجل أن أمسي ذاك المدرّس النموذجي وأكون جديراً بصراحة بتقييم المفتش الأكاديمي، على العرب أن ينزلوا من جبلهم وأن أظهر رغم ما قلته لأرتور، ما يمكن لمدرّس أن يفعله.

اعتقدت أن هناك من يقرع على الزجاج، ذهبت إلى المطبخ.

«هذا أنت إيغور؟».

لم أجده قبالة النافذة. عندما اقتربت بهدوء اكتشفت أنه نائم في قفصه. إذن من أين يأتي الصوت؟ هر ربما. انحنيت إلى الخارج. العويل القوي لبنات آوى يلتصق بالنجوم.

هل تحاول الآنسة فروادير أن تحتمي من الأصوات باحتضان صوفي بين ذراعيها؟ روبير قال لي إنه في سيدي بلعباس لا يسمع صوت بنات آوى. منذ أحداث مارغريت تراجع عدد المسافرين وتدهورت الحركة التجارية.

عاد الصوت من جديد. في غرفتي شعرت بالجزع، كما في المساء الذي عدت فيه إلى منزلي وشعرت بوجود غريب واكتشفت بكري على نور عود الثقاب. هذه المرة القنديل مضاء. ضربات خجولة تبعها صمت

طويل، هل ثمة من يحاول الدخول؟

وفجأة شعرت بقلبي يخفق بشدة ويهوي بين ضلوعي.اعتقدت أنه أغمي عليّ، كنت أختنق وانفجرت...

12 مايو 1901

حدث ذلك منذ نحو الأسبوعين أو ما يقارب ذلك.

قبل أن أوضّب هذه الكراريس في جزمة كبيرة وأرميها أعلى الخزانة في عمق الرف، أضيف بعض السطور في الصفحة الأخيرة لأوضح. من يعلم؟ إن نسيت...

في ذلك اليوم، 29 أبريل الماضي، عندما وضعت فجأة الريشة كانت قد بلغت التاسعة والنصف مساء.

وقفت مرتجفاً بالباب. أتراني أحلم؟

كدت أصرخ...

إنها هي.

التسلسل الزمني

قرنان من الزمن من الحكاية الفرنسية – الجزائرية

وضعه غوي دوغاس (جامعة باريس 12)

1770– يؤسس الأخوان ميشال كوهين ويعقوب بكري، مع يهودي جزائري هو نفتالي بوجناح الملقب ببوشناق، مؤسسة بكري أخوان وبوشناق.

1794– بأمل التجارة مع الجمهورية الفرنسية الفتية، أوصى داي الجزائر حسن باشا، وهو تحت وصاية العثمانيين، أمام مجلس الأمن الوطني، بيعقوب بكري كوكيل له.

1796– 1799 عبر وساطة مؤسسة بكري – بوشناق، قام الداي ببيع الحبوب إلى جيش بونابرت، خلال حملتي إيطاليا ومصر، وهي ديون لم يتم الوفاء بها يوماً.

1808– النقيب بوتين، الجاسوس الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر، يضع خططاً سرية لإنزال مفترض على شبه جزيرة سيدي فرج واصفاً بالتفاصيل ضواحي مدينة الجزائر.

1826– الداي حسين الذي خلف الداي حسن، يتوجه إلى شارل العاشر ويطلب منه أن يسدد، من دون تمديد ولا تأخير، ديون فرنسا، التي وصلت مع لويس الثامن عشر إلى سبعة ملايين فرنك ذهبي.

1827– التاسع والعشرون من أبريل، وخلال محادثة غاضبة مع الداي، ادعى القنصل الفرنسي بأنه تلقى منه ثلاث ضربات بالمروحية.

هدد بترك مهامه إن لم تنتقم فرنسا له. في فرنسا، حيث بدت الحكومة مربكة، أدارت الصحافة القضية. شاعران مرسيليان، ماري وبارتيليمي، نشرا تحت عنوان «الباكرياد (من بكري) أو حرب الجزائر» قصيدة ملحمية ساخرة:

كل باريس تعلم أن الداي المتعجرف
صفع فرنسا على خدها الملوكي.
لترتفع كل الأصوات
من كل التراب الفرنسي مستنكرةً.
با ع البارونات أملاكهم القديمة،
وفي العروق عاد الدم القديم للصليبيين يغلي
وحمل كل شجاع في زنزانةٍ رايته،
الجميع غاضب والجميع يتسلح ولكن أحداً لا يذهب للحرب.

يونيو: أسطول حربي يرسو قبالة مدينة الجزائر طالباً من الداي الاعتذار والإعلان أن فرنسا سددت كامل ديونها! هذا الإنذار انتهى برفض حاسم ونهائي. فخضعت ولاية العرش في الجزائر إلى حصار بحري.

1830 – يونيو بعد فصول عديدة من سوء التفاهم والضغوط، وبعض الفرص الضائعة للتحاور، ينجح الفريق الداعي إلى الحرب في باريس.

14 يونيو: أسطول الأميرال دوبريه – برفقة وزير الحرب الكونت دو بورمون – يقوم بالإنزال في المكان نفسه الذي اقترحه الجاسوس بوتين.

4 يوليو: ترسو أخيراً قافلة الجياد والمعدات الثقيلة، ويتمكن الجيش من

مهاجمة حصن الإمبراطور ومدينة الجزائر.

23 - 25: يوليو، هزيمة المارشال دو بورمون أمام البليدة.

27 - 29: بعد «الأيام المجيدة الثلاثة»، شارل العاشر يتخلى عن السلطة لدوق أورليان لويس فيليب.

1831- يحتل الجنرال دامرومون - الذي مات في 1837 عند احتلال القسنطينة - وهران ولكن ليس من دون مقاومة.

1834- الثاني والعشرون من يوليو، أمر ملكي بإرساء نظام التملك الفرنسي في شمال أفريقيا، يدعم توسيع الاستيطان، ويأتي بعد الكثير من المواجهات العسكرية.

1840- الجمهورية الفرنسية تعلن الجزائر مقاطعة فرنسية. زيادة عديد الجيش الفرنسي، وتسمية الجنرال بوجو حاكماً عاماً.

1843- دوق أومال ولاموريسيير يلقي القبض على عائلة عبد القادر الجزائري، والذي وعلى امتداد خمسة عشر عاماً قاد كافة حركات المقاومة ضد الاحتلال.

1847- استسلام الأمير عبد القادر والذي لم يكن نهاية المقاومة: ففي شرق وجنوب القسنطينة العام 1852، وفي منطقة القبائل من العام 1854 وحتى 1859، وفي وهران بين 1858 - 1859، ثم مرة أخرى في منطقة القبائل عامي 1864 و1865، حدثت انتفاضات قمعت غالباً بعنف.

1852- إعلان الإمبراطورية الثانية.

1857- الأول من يوليو، يطلق الحاكم العام راندون حملة دموية في إيفرحونن، التي كانت عائقاً أمام «فرض السلم» في منطقة

القبائل، وبتلك المعركة يتمّ الفرنسيون سيطرتهم على بلاد الجزائر.

1858– الرابع والعشرون من يونيو، استحداث وزارة الجزائر والمستعمرات، وأول الشاغلين لها هو الأمير جيروم نابوليون. هذه الوزارة لم تدم طويلاً، وأعاد مرسوم 24 نوفمبر 1860 تعيين دوق مالاكوف المارشال إيمابل بيليسيه، حاكماً عاماً للجزائر.

1860– من السابع عشر وحتى التاسع عشر من سبتمبر، يزور الإمبراطور نابوليون الثالث والإمبراطورة أوجيني ليومين مدينة الجزائر. الإمبراطور الذي عاد بانطباع جيد جداً عن السكان الأصليين، يمكث لفترة أطول في زيارة لاحقة العام 1864 (الثالث من مايو – السابع من يونيو).

1863– للمرة الأولى، مرسوم من مجلس النواب يضمن لسكان البلاد الأصليين حق امتلاك أراضيهم، يقول «إن القبائل الجزائرية تمتلك الأراضي التي تقيم فيها وتستغلها..». ولكن من دون تجريم كل عمليات القضم التي حصلت منذ العام 1830.

1865– الرابع عشر من يوليو، مرسوم نيابي أيضاً يحدد الوضع القانوني لمسلمي فرنسا: «المسلم من سكان البلاد الأصليين هو فرنسي، غير أنه يبقى خاضعاً للقانون الإسلامي. يمكنه أن يتجند في المشاة والبحرية، ويمكنه أن يشغل وظائف مدنية في الجزائر. ويمكنه بناء لطلبه أن يطلب الانضمام لفرنسا والخضوع لقوانين المواطنين الفرنسيين، وبهذه الحالة عليه الخضوع للقوانين المدنية والسياسية الفرنسية».

1870– انطلاق الكثير من الزواويين إلى الحرب ضد بروسيا مما أضعف سلطات الاحتلال في الجزائر.

سبتمبر، هزيمة سيدان وانهيار الإمبراطورية الثانية وإعلان الجمهورية الثالثة. نهاية النظام العسكري في الجزائر.

نوفمبر، مرسوم كروميه يمنح الجنسية الفرنسية وبشكل جماعي ليهود الجزائر، وهو المرسوم الذي اعتبره المسلمون تمييزياً وغيرعادل.

1871 – انتفاضة جديدة في منطقة القبائل وفي «الهضاب العليا» التي يديرها الباش آغا مقراني، أحد إقطاعيي مجانة، تضغط على السلطة، فيستغل الجيش الفرصة لإثبات قوته. مصادرات أراضٍ وغرامات عالية. المقراني يقتل في مايو.

1881– 1883– رجال «أبو عمامة» يهاجمون المراكز العسكرية غرب وهران وجنوبها قبل أن يلتجئوا إلى المغرب جارة الجزائر.

1898– الاضطرابات العرقية ضد اليهود في شهر يناير تعطي لإدوارد درومون الفرصة بالتقدم للانتخابات التشريعية. ينتخب في الثامن من مايو نائباً للدائرة الانتخابية الأولى في مقاطعة الجزائر، ويستمر حتى العام 1902 رئيساً للحزب المناهض للسامية.

1901– في مارغريت، مستوطنة صغيرة، مجموعات من الفلاحين الثائرين يثون الرعب بين المستوطنين.

1911– مئات من وجهاء المدية يرفعون عريضة إلى مجلس النواب من أجل تحسين أوضاع المسلمين، الذين أصبحوا خاضعين للخدمة العسكرية الاجبارية. ونتيجة للمطالبات يتم إدخال سبعة

وثمانون ألفاً وخمسمائة جندي إلى السلك العسكري من أصل مائة وثلاثة وسبعين ألف جندي من السكان الأصليين شاركوا في المعارك.

1914- الأول من أغسطس، الأمر بالتعبئة العامة يثير بقوة المناطق في الجزائر، ويسقط في المعارك أكثر من خمسين ألفاً من السكان الأصليين، واثنين وعشرين ألفاً من الفرنسيين الجزائريين.

1919- قانون كليمنصو (الذي أعلن من العام 1915، كان في البداية أكثر جرأة، إنما أجّل تنفيذه لغاية انتفاء معارضة تدخل المجلس الأعلى في الجزائر)، وهو منح الجنسية الفرنسية لعدد قليل من الجزائريين من المؤيدين للفرنسيين.

نوفمبر، الأمير خالد، الابن الأصغر لعبد القادر، يحقق انتصاراً في الانتخابات البلدية في الجزائر، حيث اكتسحت لائحته جماهير السكان الأصليين وبعد تدخل رئيس لائحة منافسة، الطبيب بلقاسم بن تامي، يقوم مستشار محافظ ولاية الجزائر بإلغاء نتائج الاقتراع بحجة أن المتنافسين الخالديين انتهكوا المبادئ العلمانية للجمهورية بمرافعات مرابطية! نفي الأمير العام 1923.

1929- الجمعية التأسيسية للحزب الأول المستقل بشكل كامل، «نجمة شمال افريقيا». في العام التالي أسس بمبادرة من فرحات بلعباس اتحاد المنتخَبين الجزائريين، والذي يقوم برنامجه على التساوي في الحقوق والواجبات بين سكان المستعمرات أياً تكن جذورهم وديانتهم.

1930– مئوية غزو الجزائر. في تونس والجزائر وبحضور الرئيس غاستون دوميرغ، أقيمت احتفالات باذخة تؤكد على السلطة الكولونالية المطلقة شمال أفريقيا.

1931– بما أنه كان بالنسبة لفرحات عباس «لا وجود للوطن الجزائري» أسس الشيخ بن باديس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي كان شعارها «العربية لغتي، والجزائر وطني والاسلام ديني».

1934– أحداث خطيرة بين الطائفتين المسلمة واليهودية في القسنطينة: 27 قتيلاً، وتدخل الجيش وفرض حظر التجول.

1936– إنشاء الجبهة الشعبية.

يونيو، اندماج بين اتحاد المنتخَبين وجمعية العلماء لتأسيس المؤتمر الإسلامي الجزائري.

نوفمبر، «مشروع فيوليت» المدعوم من قبل ليون بلوم الذي يسعى إلى دمج أفضل للجزائريين في الجمهورية، والذي يواجه برفض كبير من قبل معظم المستوطنين.

1940– إبطال مرسوم كروميو 1870. ثم إعادة العمل به مع زيارة ديغول للجزائر.

1942– الإنزال البريطاني – الأمريكي في مدينة الجزائر.

1943– مايو، وصول الجنرال ديغول، الذي أعلن بسرعة عن إصلاحات في الجزائر: فتح الباب بشكل أوسع أمام إعطاء الجنسية الفرنسية وحقوق التصويت، وفي مرحلة ثانية لكل الجزائريين ما فوق الواحد والعشرين عاماً (خطاب القسنطينة).

1945– الثامن من يونيو في سطيف وقالمة وقسنطينة، تظاهرات تقمع بقوة وتوقع آلاف الضحايا. هذه الأحداث التي وقعت في اليوم نفسه الذي كانت تحتفل فيه أوروبا بالنصر على النازية، ولدت وعياً اكبرمن ذي قبل لدى الأجيال الجديدة.

1946– أبريل، فرحات عباس يؤسس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، ومصالي الحاج «حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

1947– يقرّ مجلس النواب قانون إنشاء مجلس جزائري تشريعي يتكون من 120 عضواً تشكله جماعتان. وهو القانون الذي لاقى رفضاً جماعياً من قبل النواب المسلمين الجزائريين.

1954– مارس تأسيس «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» والتي كان هدفها التحضير للانتفاضة المسلحة. وبضمها في الخريف قيادات من الحركة الوطنية، أصبحت في نوفمبر ما يعرف بـ»جبهة التحرير الوطني».

ليل 31 أكتوبر، الأول من نوفمبر، سلسلة من الاعتداءات ضد المؤسسات العامة. وفي اليوم التالي اغتيال مدرس شاب وقائد في منطقة باتنة: «يوم عيد جميع القديسين الدموي» الذي أعلن انطلاق النضال المسلح من أجل الاستقلال. فرنسا تحل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» وتعتقل العديد من القادة الوطنيين.

1955– يناير الوضع في الجزائر يسبّب أزمة سياسية في فرنسا، إذ رفض مجلس النواب إعطاء الثقة لبيار منِدس فرانس وفضل إدغار فور. جاك سوستيل، الحاكم العام الجديد يصل إلى الجزائر مع ثلة من الإصلاحات التي عارضها معظم المستوطنين.

في الجزائر تكثفت الاعتداءات (123 قتيلاً في فيليفيل) وعمليات القمع تحصد أكثر من ألف من الضحايا. اعلان حالة الطوارئ في أبريل وانتقال الأزمة الجزائرية إلى الأمم المتحدة.

1956 فبراير، في حين تم استدعاء سوستيل إلى باريس، تم استقبال الجنرال كاترو، المعين في وزارة الجزائر الجديدة، بالغضب وبقذف كل أنواع الخضار في وجه الزائر الجديد: إنه «يوم الطماطم».

استقالة كاترو الذي خلفه لاكوست.

زيادة عديد القوات العسكرية إلى أكثر من أربعمائة ألف عنصر في الصيف.

مفاوضات سرية مع جبهة التحرير الوطني في دول ليست أعضاء في الاتحاد الاوروبي، قطعت بعملية اختطاف طائرة قادة الثورة بن بلة، آيت أحمد، بوضياف، خيذر، لشرف في 22 أكتوبر، مما أدى إلى إضراب عام للتجار المسلمين.

1957– يناير ومرة اخرى في الربيع، سلسلة من الاعتداءات في المقاهي في مدينة الجزائر وكازينو لا كورنيش، والتي رد عليها مظليو الجنرال ماسو بعنف. بدء التوقيفات الاعتباطية، والتعذيب والإعدامات السريعة في العاصمة.

1958– الثامن من فبراير الطيران الفرنسي، ورداً على عمليات هجوم انطلاقاً من الأراضي التونسية، يقصف القرية الحدودية ساقية سيدي يوسف. ردة الفعل الكبيرة تؤدي إلى تدويل الصراع.

13 مايو، تظاهرة شعبية دعماً لفرنسا أمام مبنى الحاكم العام في الجزائر. يوم «الصداقة» يبدأ بنهب المبنى وإحراق المكتبة.

4 يونيو، الجنرال ديغول رئيساً للوزراء مدعوماً بكامل سلطات رئيس

الجمهورية، يزور الجزائر ويطلق خطابه الشهير: «لقد فهمتكم!».

19 سبتمبر، جبهة التحرير الوطني تعلن إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية تحت قيادة فرحات عباس.

3 أكتوبر، من القسنطينة، يعلن ديغول، وبأمل إعادة إطلاق العملية السياسية والإدارية، خطة خمسية لإجراء تغييرات عميقة.

1959 الثامن من يناير، الرئيس رينيه كوتي يخلي كرسيه لديغول، وتعيين ميشال دوبريه رئيساً للحكومة. الجنرال ديغول وبول دلوفرييه يتكفلان كل في مجاله بإيجاد حل للأزمة الجزائرية.

في الخريف، تعلن الحكومة الجزائرية المؤقتة استعدادها للتفاوض. ديغول يعد الشعب الجزائري باستفتاء لتقرير المصير وهو ما قوبل برفض شديد من قبل مؤيدي الجزائر الفرنسية، أدى استفحاله إلى استدعاء الجنرال ماسو إلى فرنسا. دعم محدود لاقتراح باستقلال الجزائر في الأمم المتحدة.

1960- يناير، «أسبوع المتاريس». الجيش المقسوم التحق بوقت متأخر برئيس الجمهورية. ديغول يقصي شال المتهم بالخداع.

يونيو، محادثات ميلون تتوقف بشكل مفاجئ.

1961- استفتاء يعطي ديغول الصلاحية الكاملة لحل الصراع بشكل عاجل والحكومة الجزائرية المؤقتة تعلن استعدادها للتفاوض. انقلاب الجنرالات شال وزيلر وسالان وجوهاد (21 ابريل) وضع الجمهورية في خطر ويؤدي إلى عودة الاعتداءات. محادثات في إيفيان ولوغرين، تنطلق بصعوبة في مايو، وتؤجل مراراً.

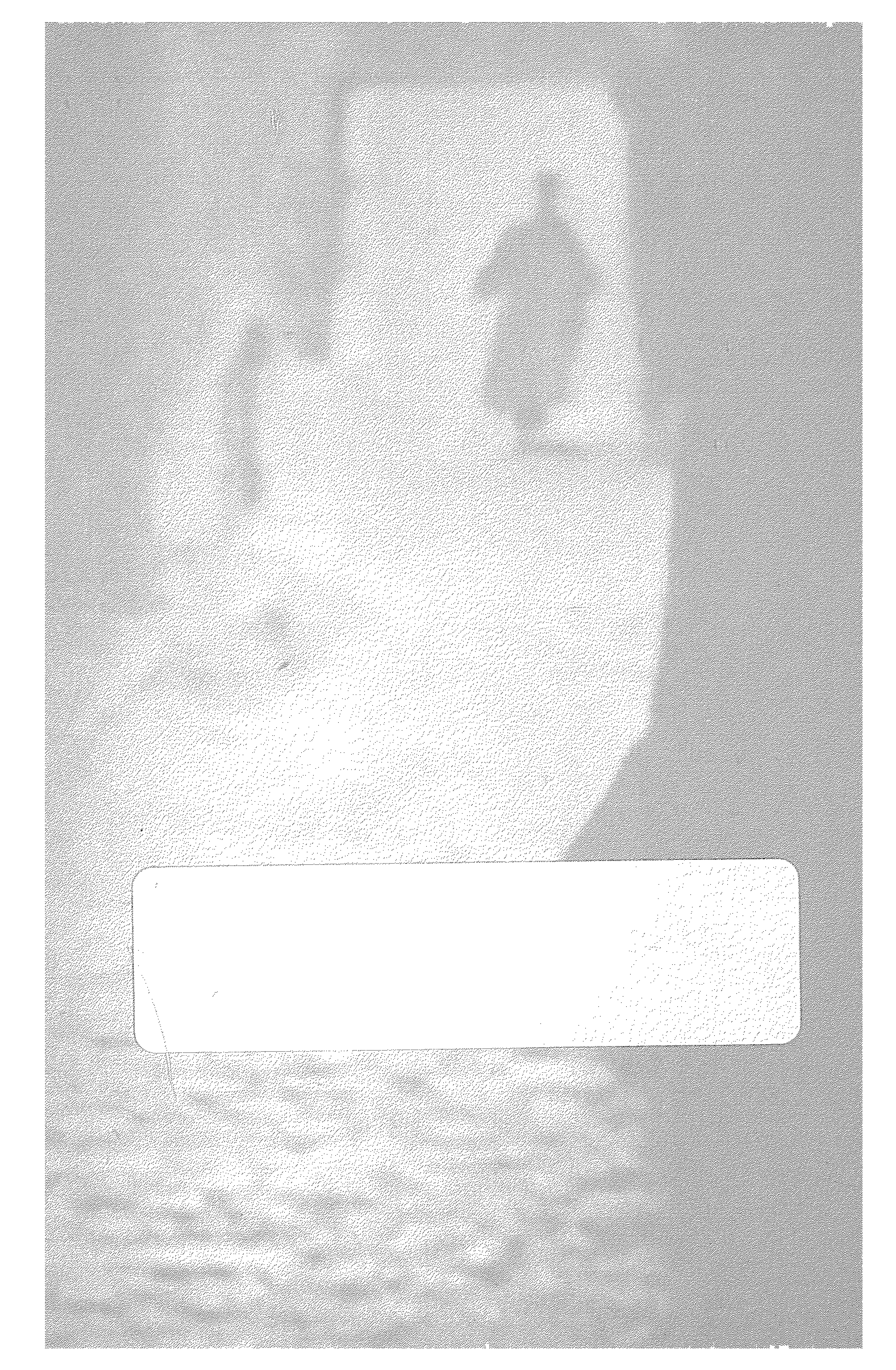
سالان على رأس «منظمة الجيش السري».

1962 – تصاعد الاعتداءات على جبهتي المتوسط. الرأي العام الفرنسي، التعب من الحرب والمصدوم بدموية منظمة الجيش السري يؤيد سلاماً فورياً.

مارس، المؤتمر الثاني في إيفيان والذي يؤدي في النهاية إلى اتفاق بين حكومة الجزائر المؤقتة والحكومة الفرنسية. توقيع اتفاق لوقف إطلاق النار ولكن منظمة الجيش السري تصعد عملياتها.

في السادس والعشرين، يطلق الجيش النار على حشود أوروبية تتظاهر في شارع إيسلي في الجزائر.

الثالث من يوليو، اليوم الأول من الاستقلال الجزائري. فرنسيو الجزائر، بأغلبيتهم العامة، يغادرون الجزائر.



نبذة عن المترجمة:

ولدت ضياء حيدر في جبيل، لبنان. درست الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، وعملت في الصحافة اللبنانية بين عامي 1996و2005، قبل أن تنتقل للعمل والعيش في الإمارات، حيث تعمل في مجال الترجمة والصحافة الإلكترونية. لها في الترجمة: "سلاحف بوليلنغا"، "في بلاد تيتو"، "زيبولين الصغيرة جداً"، وغيرها.

مدونات سيد متيجة

كان بإمكانها أن تقول لي: "لقد انتظرتك..." وضعت يداً على مقبض الباب والأخرى مرخية على طول جسمها. ارتميت على ركبتي، أتذكر ودون أن أقصد ذلك، رميت قبعتي لتتدحرج في الغبار. رفعت يدي باتجاهها فانحنت علي، فوقفت. لا أعرف كيف حصل ذلك ولا لماذا أتخيل فجأة هذه اللحظة التي كان كل شيء فيها ينشد، ونعتقد أننا في الأبدية. حيث تتفجر الروح لأن الهواء يهب على الكروم وحقول إبرة الراعي ويصعد باتجاه الجبال ويخلط الروائح التي علقها الليل ويقذفها باتجاه الجهة الأخرى من الصحراء التي أتحرق للضياع فيها: وكأن مجاري الأنهار الجوفية عرفت طريقها من خلال آثار الصدف والحصى، وعندما ينفجر الإعصار يحمل الماء كل شيء. خلف الكروم حدائق مشعة وغابات وهضاب خضراء وبحر تضربه شمس مائلة.









